

طغراء

رواية

الرواق للنشر والتوزيع

إهداء

إلى مرشدي عبر الأزمان والأوطان... اجتزت بي عالم الرجال الخشن القاسي وأعدتني منه امرأة أخرى... أفكر في العالم وأعيد تقييم مسلماتي من جديد...
إلى زوجي...

أنا مكنتش يوم شيال حمول،
إتّعتعوا...
ووسعولي في صدركم،
حتة عليها أنحني...
وأقول كلام بيهزني...
بيغلي جوايا ونفسي أطلعه...
يا صحابي لا... ماتوسعوش
ليا أنا...
ده احنا يادوبك، كل واحد مننا
بيقول كلام...
وبرضو هو بيسمعه......

سيد حجاب

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾

(سورة البقرة: ٢٥٧)

١ـ المحكوم

ـ الكلمات الأولى ـ

أكمل خالد تحية حبسه الاختياري ـ الإجباري أيضًا ـ في حجرة الإعداد بقناة «ستوكس» الفضائية للمسابقات، تحت غَمامة معلقة من دخان عشرات السجائر المحترقة والمتكومة فوق بعضها البعض كجثث اليهود بعد المحرقة المزعومة...

يبحث عن مكان في المطفأة لوأد آخر لفافة دخنها في العلبة فلا يجد، يتركها تسقط على الأرضية المكسوة بالموكيت ويدعسها بحذائه الرياضي...

مازالت الصفحة أمامه خالية... لا تزال قريحته تبخل عليه بالمزيد من «الفوازير» والألغاز...

يمسك بعلبة السجائر ويهزها... فارغة... يلقيها خلفه لتسقط أسفل الستار الرمادية القطيفة حيث تتكوم تحتها تلة من النفايات المخفية...

- طيب... كويسة دي... إيه الاسم المكون من خمس حروف اللي لو شيلنا منه حرفين يتبقى ثلاثة؟!.. جامدة...

ثم ينحني على لوحة المفاتيح يكتب الحصيلة اليتيمة لإعداد اليوم...

- تحية... أنا مروح... مش هتيجي؟
- ما قلنا بلاش تحية دي... لأ يا أبلة سماسم، لسه مخلصتش نمرتي... روّح ياعم... إخلع انت، مش هروح على طول...
- ماشي... طولة لسان بس أصلها...
- ماتورّق بقا وسلانسيه سلانسيه!
- خالد... مش فايقلك... سلام...

يسمع خالد خطوات لطفي زميله يبتعد... لطفي خريج فنون جميلة، درس في دورات تعليمية لفنون الجرافيك والخدع بألوف الجنيهات فقط ليمضي يوم عمله في قناة ستوكس في مسح الحسنة من فوق حاجب أحمد السقا، أو طمس حلق نانسي عجرم لزوم فقرة الفروق بين الصورتين .. لم يتخيل لطفي في أحلك هلاوسه أن هذا هو مصير برنامج الفوتوشوب، تصور للحظات - فقط للحظات - أن من يدرس خمس سنوات في كلية عملية يتبعها بعامين من الكورسات يمكنه أن يعمل في مجال تصميم الإعلانات مثلًا أو الخدع السينمائية...

فقط صوتٌ صغير في رأسه كان يوسوس له في خبث، صوت يحمل نبرة أمه...

(عليك من ده بإيه إلا قعدة الخزانة جنب اخواتك البنات... مش الخمس تلاف جنيه بتوع الكورسات دول كنت تُشبُك بيهم أحسن...)

تراجع خالد في كرسيه ممسكًا قمة أنفه بأصبعين... الساعة التاسعة والنصف...

رمق التليفزيون منخفض الصوت في ركن الحجرة والذي لا يذيع شيئًا إلا البث المباشر لقناة ستوكس...

تقف المذيعة مرتدية «بادي» أخضر ضيق على بنطلون من الجينز أكثر ضيقًا... تتمايل مع نغمات الأغاني الأكثر انحطاطا في تاريخ الغناء في الخلفية...

«اهال يشك فيا... ويجيب اللوم عليا... من كتر شكه فيا، كل الناس بتقول عليه ابو شكّة!»

تتشابك أهدابها الصناعية المغلفة بكتل الماسكارا مع شعرها المصبوغ بلون أصفر يتجاوز حدود الاحتمال اللوني للكون... يبدو سواد شعرها من الجذور...

- ياللا يللاااااا... إتصل بينا دلوقتي... رن رنة واحدة واحنا هنتصل بيك... فزورتنا سهلة جدًا... إيه الحاجة اللي تاخد منها تزيد... هسهلهالكو... عندكو اختيارين... الحفرة ولا السلة؟

تجذب المذيعة البادي القصير لتغطي سرتها، ينكشف صدرها... لديك خياران عزيزي المشاهد... الحفرة أم السلة... الصدر أم البطن؟

لمده تزيد عن اثنتي عشرة ساعة تقف مذيعة السوبر جيت في إلحاح... تمط كلماتها... تمط ملابسها... تتمايل... خطوتين للأمام... خطوتين للوراء... انحناءة أمامية... ترقص تانجو الإسفاف الخاص بها...

- ونقول آلووووو... مييين؟
- أنا سعيد... من كوم حمادة...
- أيوة يا سعيد... إيه اللي تاخد منها تزيد الحفرة ولا السلة... السلة ولا الحفرة... بلخبطك أهو...!
- الفُحرة!

تصمت المذيعة في ترقب... تنظر إلى الكاميرا بدلال إباحي... تتصنع

الضيق... تجذب البادي إلى أسفل ليخفي سرة سوداء تبدت بين طية بطنها...

- سعيد... مبروووووووووووووووووووووك! كسبت معانا ٥٠٠٠ جنيه شحن لموبايلك!

عزيزي المشاهد... مبروك... اختيارك صحيح! ... صدر أم بطن؟ نعم... صدر! لقد ربحت معنا ٥٠٠ دقيقة من البث المتواصل للصدر!

«يابا يابا رقصهم يا ابو طه... دلعهم يا ابو طه... ما تقولش خد ولع... ده فرحنا هيولع...»

- الكل معانا كسبان... لو ماجوبتش صح هتكسب معانا ٥٠ دولار فورًا... ولاب توب!

ينقسم أسفل شاشة قناة ستوكس إلى شريطين... في القسم العلوي رسائل المشاهدين...

((«الأُطة» الشرسة: عندي شقة في الوراق... محتاجة عطف وحنان... للجادين ويس))

((نور الإيمان: اتقوا الله بقا... ربنا هياخدكوا أخذ عزيز مقتدر...))

((الأهلي ويس: كفاية يا قلب بلاش «عزاب»! أشرف ٢٣ س..))

((النمر المصري كوكو: عايز «ذوجة» أرملة أو مطلقة بيضا جميلة شعرها ناعم وطويل «للذواج» فورًا... لدي جميع الإمكانيات... يفضل من لديها شقة...))

ويبث في الشريط العلوي الإعلانات...

((الآن لدى شركة الطائف والخليل وحصريًا... وداعًا للإحراج... مع «الايون كينج»... شراب أقراص واسبراي... فقط بـ ٩٩ جنيه... اشتري

علبتين وأحصل على لبوس «لايون كينج»....))

((خلاصة نخيل المانجو اليمنية... العلاج الفعال للذبحة الحمراء وأمراض الكلى من السنة النبوية........))

((عسل نحل المدينة المنورة... فيه شفاء للناس... للعجز الجنسي والخصوبة للجنسين... يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم.................))

فكّر خالد: شراب من مستخلص بصاق الإبل... اتبع سنة نبيك... لاصقة من خلاصة الثريد... اتبع سنة نبيك... وداعًا للإحراج... اتبع سنة نبيك...

طم... ططم طم طم... اسمع كلام أبوك... طم ططم طم طم... اتبع سنة نبيك...

سبوع يومي من خليط الجنس والدين وأوهام الرجولة... اعلن عن أي شيء لعلاج أية أعراض ثم ارفق بإعلانك «قال الله» أو «قال رسول الله» تضمن الدنيا والآخرة في إعلان واحد...

هناك قنوات أخرى تعلن طيلة الأربع والعشرين ساعة عن المنشطات الجنسية على خلفية من الموسيقى «الشرعية» المؤداة بصوت بشري خاشع... الخلطة المضمونة هذه الأيام... لن يستطيع أحد التشكيك في أي منتج يتبع «سنة نبيك» وإلا فالكفر والهرطقة تهمة مسبقة التحضير تلائم جميع الأذواق...

تجاوزت الساعة التاسعة والنصف... يقوم خالد ويغلق التلفاز... يشعر بقسطه من الذنوب يلح عليه بوجوده الثقيل كلما أمعن النظر فيما تذيعه تلك القنوات...

- توب علينا يا رب...

يتوجه إلى الحمام المرفق بالحجرة خالعًا الحذاء الرياضي والشراب، مشمرًا ذراعيه حتى الكوعين...

يتوضأ... يخلع خُفَّيه عند تلك المنطقة متغيرة اللون من الموكيت أمام الحمام تحديدًا... يفرش سجادة الصلاة ويقف... يُكبِّر...

لم تفت خالد صلاة منذ أن كان في الثانية عشرة... يصلي خلف أمه طفلًا... وأمًا بأصدقائه مراهقًا... ومنفردًا الآن...

منذ أن عمل في قناة ستوكس وهو يصلي منفردًا... دائمًا ما يصلي العشاء بخواتيم سورة البقرة... يعلن اعتذاره لله ويطلب مغفرته... يشعر بحمل ثقيل على ظهره...

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٨٦)

يسجد خالد... يدعس جبينه في النسيج الخشن المتآكل للسجادة في موضع السجود... يكاد يخترق الأرضية بجبينه...

- يارب... يا رب... أنت أعلم بمسألتي مني...

يخشى خالد أن يترك معيَّة الله ويقوم من سجدته ليسلِّم ثم يضطر أن يواجه وحيدًا حقيقة ثقيلة الوطء...

يعلم أنه لن يجد رائحة الطعام الشهي تشدو على سلم العمارة في استقباله... لم تعد «أم خالد» قادرة على الطهو كما كانت في الماضي...

هي دوما بالنسبة له «أم خالد»... ليست أمي... ليست «رفعة»... فقط هي «أم خالد»... لا يطيق أن يفصل اسميها عن بعضهما...

تعودت أم خالد أن تتفنن في أنواع الطعام وأشكاله... تشتري مجلات

الطهي الأجنبية من سور الأزبكية... تجلس جوار النافذة وتدلي نظارتها ذات العدسات الدائرية الشبيهة بحلقات البصل على طرف أنفها... توجه صفحات المجلة نحو ضوء الشمس وتجاهد في قراءتها...

- من ساعة ما وحل البرك اللي اسمه فتحي ما طلع بالعمارة قدامنا ٢٥ دور زي الخازوق الدنيا ضلمت وكتمت... مش عارفة أقرا!

كان نظرها ينسحب تدريجيًا بينما يحلو لها أن تُسدل أسباب تدني الإبصار على ما صنعه الآخرون ليعكروا صفو رؤيتها...

- واد يا خالد... هو الباوند ده كيلو يعني ولا أقل؟

- أقل يا ماما... ييجي ٤٠٠ جرام كده...

- طيب والأو زد oz دي... تبقا الوقَّة؟!

- وِقَّة إيه يا أم خالد بس...

ويقوم خالد محتضنًا رأسها الأشيب، دافنًا أنفه بين شعيراته الفضية القليلة عطرة الرائحة...

- الوقة دي أيام توجو مزراحي وصراع العَطفة والضمير! ده إنت اللي خدودك أحمر من التفاح الأمريكاني اللي وقته بتلاتة صاغ! سيبك إنت يا جميل... قوم اعملنا سندوتشين خيار مخلل وتعالى نقعد ع الشلته نجيب في سيرة الناس!

كانت تضحك وتقرصه في منطقة أعلى فخذه تصر على أن تسميها «الباليب»... يقفز خالد ألمًا مصطنعًا ويقودها إلى المطبخ ليتناولا من الحلة مباشرة ما تبقى من طبخ أمس...

يغلق خالد نور حجرة الإعداد... يميل على علبة التبغ الفارغة الملقاة على

الأرض، يظهر منها صورة مقززة لقدم مهترأة لردع المدخنين عن التدخين، الصورة هي إصدار للبالغين من أبي رجل مسلوخة...

ينحني عليها ويهزها لعلها تحوي بين أركانها سيجارة مخفية غفل عنها في بحثه المرة السابقة...

برز من تحت الستار طرف شيء بلاستيكي مستدير... سحبه خالد وقربه من عينيه على الضوء المنبعث من الردهة... لم يكن سوى طبق "ميلامين" مُترب...

تركت أم خالد الترجمة الصعبة لمجلات الطهي الأمريكية وبدأت في شراء مجلات زهرة الخليج من نفس المكان...

برعت في طهي الطعام الخليجي والشامي إلا إنها كانت تتوقف كثيرًا عند أسماء الأكلات الغريبة وتبدل في نطقها وفق لغتها البسيطة العفوية...

- إيه ده يا أم خالد؟ رز بالبتنجان؟!
- ما أعرف اسمها مقلوبة ولا مدلوقة... المهم، القرنفل باين فيها؟!
- ده القرنفل والياسمين والمهلبية اللي بتشر من إيدين أم خالد! حلوة أوي... ما تعملش سندوتشات دي آخدها معايا الشغل أغيظ بيها الواد لطفي؟!
- هتعمل سندوتشات رز يا أهطل... هبقا أحطلك شوية في طبق ميلامين... بس أوعى تنساه ولا ترميه في الشغل... الأطباق خلصت عليك أنت و"الطفك" ده!

مسح الطبق في الستار، ثم دسه في جيب الجاكيت العملاق وخرج آملًا أن تحدث إحدى معجزات الله وتُشفى أم خالد...

* * *

تقول له ماري - وهي تستند بكوعيها على كاونتر الاستقبال - أن هناك احتشادًا للناس في ميدان التحرير لليوم الرابع على التوالي...

تقول له أن مستر مؤيد - مدير القناة - يرفض أن يمنح العاملين إجازة لظروف البلد غير المستقرة أمنيًا... إجازتهم يوم الأحد فقط...

تهمس له ماري - وهي تتأكد من غلق أدراج مكتبها - بأن مستر مؤيد يظن أن ما تقدمه القناة أهم مما تقدمه القنوات الإخبارية... عندما تشاهد القنوات الإخبارية فإن التوتر يغزوك وتلح عليك فكرة متوحشة "الناس اللي في التحرير بتعمل حاجة... الناس دي بتفكر... بتحاول... أمال أنا قاعد في بيتنا بعمل إيه؟!"

بينما يصيبك نصيبك من رضا البقرة عن مرعاها عندما تشاهد ستوكس... الحياة جميلة وهانئة... فقط "ترن" ويتصلون هم... تخطئ الإجابة ومع ذلك تربح! فأين هي المشكلة بالله عليك؟! لم تجحد نعم الله وتنظر إلى تسعة أعشار الكوب الفارغ؟

تجمع ماري شعرها البني المجعد في طوق للشعر وتتسع عيناها الجاحظتان من مرض لديها في عمل الغدة الدرقية... تكمل همسها وهي تهبط سلم القناة خلف خالد بأنها لا تشعر بالراحة إزاء عملها هنا... تشعر أنهم مربوطون بشكل ما إلى ساقية تدور في الصحراء...

يعبر خالد بماري ومخاوفها الطريق المقفر أمام القناة... يحاول أن يوقف لها تاكسيا...

- ماتركب معايا وأنزل أنا في الهرم وانت كمل بالتاكسي لبيتك... مش هتلاقي مواصلات...
- كان نفسي والله... حتى أطمن عليكي... خصوصًا إن الموبايلات مش

شغالة النهاردة... بس أنا راجع القناة تاني... نسيت حاجة...

لم ينس خالد شيئًا، لكن ما يحويه جيبه من مال هو فقط كل ما يملك ليشتري لأم خالد جرعتها التي تأخرت من الدالوكساسين اللعين، مائتي جنيه...

في الصباح طلبت أم خالد منه ألا يحضر الدواء... ربما أرادت أن توفر ثمنه الباهظ...

يساوره الشك دومًا ما إذا كانت تشتريه هي من الأساس أم تدخر ثمنه لشيء مما يلزم البيت... لم يجرؤ قط على تبين الحقيقة...

يصمم الطبيب المعالج لوالدته على الدالوكساسين ولا شيء سواه... يرفض تمامًا إعطائهم بديلًا أقل سعرًا... يشعر خالد وكأن عائد بيع ذلك الدواء يعود إلى جيب الطبيب مباشرة...

يشتري مرتب خالد علبتي دالوكساسين وتبقى مائة جنيه وحيدة لمواصلاته وسجائره... بينما يتكفل معاش المرحوم الحاج صابر تحية، المهندس الزراعي السابق، والده، بالطعام والشراب والمصاريف الجانبية بمعجزة ما يجبن أن يسأل عن تفاصيلها...

إن ركب مع ماري ونزل في الهرم فسيضطر إلى دفع أجرة السيارة، لن يدعها تدفع هي بالطبع... إذًا فالحل الأنظف هو التعلل بأنه نسي شيئًا في القناة...

- آه... خالد... مستر مؤيد كان بيسأل على الشهادة المرضية علشان الإجازة اللي خدتها يوم ٢٥... ماجبتهاش ليه؟ كده هيخصملك خمسين جنيه...

- حاضر... أنا بس نسيت أجيبها معايا... هوم يا أسطى؟!

يقف التاكسي على بعد مترين منهما... تجري ماري والبخار يتصاعد من فمها وتركب التاكسي... يهتف خالد...

- اتصلي في البيت لما توصلي وسيبي خبر مع الحاجّة...

- حاضر... سلام...

تغيب ماري بالتاكسي عن ناظره... يقف في البرد يتحسس الطبق الميلامين في جيبه... يتحسس الجيب الآخر في حركة لا شعورية مطمئنًا على علبة السجائر والمحفظة... المحفظة في أمان وعليه أن يشتري علبة سجائر أخرى من الجيزة... فشلت محاولاته في الإقلاع عن التدخين بينما أتت محاولاته الأخرى للإقلال منها بنتيجة عكسية تمامًا...

مشى في بطء وظل ينفخ في كفيه طلبًا للدفء...

يوم الخامس والعشرين من يناير، لزم خالد فراش والدته في وضع جنيني خشية أن يتأكد بشكل ما من أن هناك أحداثًا سياسية تهدد سلامه النفسي وتُلقي قالبًا من الطوب الأحمر في بركة حياته الآسنة... تعلل بمرضه وطلب إجازة أسبوع... رفض السيد مؤيد إلا أن يسمح بغيابه يومًا واحدًا على أن يجلب معه شهادة مرضية تبرر غيابه دون إذن يسبق طلبه للإجازة بأسبوع...

- مالك يا قلب أمك... مكموش كده كأنك رجعت بطني تاني... ماري السكرتيرة كلمتك تاني تطمن عليك... ماترد عليها يا بني...

- خايف يا أم خالد...

يلتصق بها أكثر... تفوح منها رائحة المضادات الحيوية... يلصق قدميه تحت الأغطية بقدميها المتورمتين...

- من إيه يا ضنايا؟ يوه... وانت صغير؟!

- بيقولوا في ثورة... هيحصل زي تونس... فاهمة يعني إيه؟! هيضربوا في الناس والأشغال تقفل... البلد هتقف... مش هيقا في فلوس يا أم خالد... مش هيقا في أمان... ماله مبارك؟ ثلاثين سنة وفلوسنا في

جيبنا وبيوتنا مقفولة علينا... عايزين إيه تاني؟ طمع وخلاص؟ مالنا ومال السياسة؟

بيسرق؟!هو كان شق جيوبنا وسرق؟ بكره يموت وييجي غيره... نشد ليه الأسد من ديله؟!

- كل ده يا بني في بطنك وساكت؟! يابني أنا لو فيا حيل كنت مسكت يافطة وهللت معاهم... هي موتة ولا أكتر... الناس اتخنقت يا بني... ما عادش فارق الموت من الحيا... يعني عاجبك مرمطتك بخمسميت جنيه وآل إيه بتكتب فوازير... بكالوريوس إعلام قد الدنيا بيكتب فوازير!

- يا أم خالد دي حاجة ودي حاجة... لو قامت ثورة فعلًا مش هيقفا في حتى الخمسميت جنيه دول...

- يا بني محدش بيبات من غير عشا... قوم اتوضا وصلي المغرب كده وانزل شوفلك حد يعملك الشهادة المرضية... روح للدكتور إمام...

- تصدقي عمري ما سألت نفسي عن تخصصه قبل كده! هو على طول موجود والناس بتجيبه لأي سبب... أطفال ماشي... ولادة مش مشكلة... حد انفتح نافوخه يخيط عادي...

- والله ما أعرف... بس الوله ابن ناس وذوق... كلمت أختك؟ سألت عليك...

قام خالد وهو لا يكاد يقدر أن يقف على ساقيه اللينتين... توضأ ثم جلس على السجادة بعد فروغه من الصلاة...

- يارب... اشفيها بقا... تعبت... حاسس إن ضهري بينكسر... مفيش علاج نافع... طب يا رب لو قاموا ضد مبارك وخلعوه... حتى الدوا

اللي بوهم نفسي إنه بيعمل حاجة مش هلاقي أجيبه... ساعتها هحس إني بكسر ضهري بنفسي... سايبه يتقطع وواقف أتفرج... يا رب استرها مع عبيدك يا رب... ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به...

ارتدى خالد شبشبًا على بنطال الترينج ونزل يتحسس الحوائط ويلصق جنبه بها... الشوارع خالية حتى في منطقة ازدحام بين السرايات...

يرفع رأسه في بطء كالسلحفاة... يمسح الشرفات بحثًا عن لافتة الدكتور إمام...

طيلة العشر سنوات الأخيرة كان الدكتور إمام «ينبثق» من مكان ما إذا احتاجه أحد... لا يعرف أين عيادته تحديدًا ولا من أين يحضرونه في الطوارئ...

شاب مهذب ذو أصول ريفية، هكذا عرفه خالد بلا أية تفاصيل أخرى... يهز رأسه مُلقيًا التحية كلما مر به صدفة... تلك هي كل علاقته بالدكتور إمام...

توقفت عيناه على لافته سوداء مثبت فوقها مصباح نيون ترتعش إضاءته وتتجمع حوله الحشرات...

«الدكتور إمام أبو زهرة... جلدية وتناسلية وعقم»

- إخص! يعني أدّي مؤيد شهادة مرضية مكتوب عليها جلدية وتناسلية؟ يقول إيه الراجل؟ كنت بعُط فين؟!

صعد خالد السلم وطرق الباب عده مرات... يبدو أن الرجل غير موجود... لذا عاد خالد أدراجه ودس جسده تحت الأغطية مرة أخرى جوار والدته ونسي كل شيء عن الشهادات المرضية...

* * *

من آخر الشارع أبصر خالد ميكروباصًا... يحمل الهواء صوت التباع المتدلي من الباب...

- هرااااع هرااع هراااع...

وتلك تعني «هرم» في اللهجة الجديدة الخاصة بتباعي الميكروباصات بحيث تحولت المحطات بين الجيزة والسادس من أكتوبر إلى «جيزا هراااع رمايا بوياع بوياع بويااااااااع» والتي كانت في الأصل «جيزة هرم رماية أكتوبر أكتوبر»!

توقف الميكروباص على بعد عشرة أمتار من خالد بينما أطل التباع برأسه مشيرًا إليه...

- بسرعة يا نجم كده معايا... هوب هوب هوبا كده...

يصل خالد إلى الميكروباص فلا يجد مكانًا واحدًا خاليًا، حتى المساحة خلف السائق جلس فيها شابان تصطك ركبهما بركب الجالسين على المقعد الأول اصطكاك الأكواب في صينية شاي مزدحمة...

- طيب وقفت ليه طالما مفيش مكان؟ أركب فين أنا؟

- الحق على «ـــــ» أبويا اللي وقفتلك في الحتة «المأتوعة» دي... إطلع يا أبو عزة... زباين ولاد «ـــــ»

وجد خالد أذرع الركاب تجذبه جذبًا إلى الداخل بينما أوجدوا له مكانًا يكفي إحدى إليتيه على المقعد القلاب بينما تظل الأخرى معلقة في الهواء، في حين يندس أنفه في فم التباع...

- معلش يا أستاذ... ما يقصدش يعني... قاعد حلو ولا أتأخرلك شوية؟

- كويس... كفاية...

أذنا خالد تنبضان بالدماء... لم لم يرد على إهانة التباع؟ لم سمحت كرامته أن يركب «نصف» راكب مع شخص بهذه السفالة؟ لم لم يدك وجهه في قفاه؟

- لا مؤاخذة يا نجم... أنا ما «قصدتش» أبّع فيك لا سمح الله... بس إنت عارف إحنا في «زورة» يا برنس ولازم نشيل بعضينا... قوم أنا لما اعمل معاك جيلة وأقفلك في صحرا يتوب فيها الكافر تقوم إنت تشخط فيا كدهون وبتاع؟

- صحرة إيه؟ على أساس إن دي قافلة مثلًا؟

- وبعدين؟ شوف بقا أقوله «زورة» وبتاع وكدهون يقولي «كافلة» وقريش وبتاع...

- خلاص يا أسطى... خلاص يا بشمهندس... إحنا قربنا نوصل أهو...

ابتلع خالد ريقًا جافًا وألصق جبينه بالشباك... أخرج خمسة جنيهات ناولها للتباع فوضعها في جيبه ولم يبد أي نية لإخراج الباقي...

- الباقي لو سمحت...

- ما هي خمسة جنيه...

- غليت إمتى؟ ما أنا جاي الصبح كانت عادي... ده إنت كمان هتقسم الخط وتاخد أجرة تاني من الهرم للجيزة...

- معلش يا نجم... «زورة» وكدهون و«السورار» غلي وداخلين على أزمة «وَكود»...

التقط الركاب الخيط في سرعة من فم التباع ليلفوه حولهم كالشرنقة...

((بيقولك فيه أزمة بنزين... ده كده مش هيبقا في مواصلات...))

((ولا عيش... الطوابير كانت ع الأفران الصبح كده... بسأل إيه قالوا مفيش عيش... وبكرة مش هنلاقي كيس المكرونة ناكله...))

((ياأم صباح... انزلي اشتري اللي تقدري عليه دلوقتي حالًا أول ما تنزل وأنا هروّح بالعيال... بيقولك الصبح مش هنلاقي عيش ولا تموين ولا خضار ولا حاجة...))

((بس هيسيبوهم... بيقولك أمن الدولة بيقفش في العيال في التحرير...))

((بيقا لازم الجيش ينزل...))

((إيه ده؟! طيب الحق أروح أقول لماما إن الجيش نزل علشان ماتروحش الشغل بكرة...))

((شغل إيه... بيقولك في دبابات في الشوارع وإسرائيل هتقفلنا ع الأبواب بقا...))

((بيقا الجيش هيلغوا معاهدة السلام... أصل إسرائيل هي أس البلاوي اللي احنا فيها دلوقتي... بتنكشنا علشان نبدأ إحنا بالغلط))

((بيقولك يا نجم مبارك أصلًا مش هِنا هوّن... بيقولك هج على «فرلندا» وخد معاه البرنس جمال...))

أصاب خالد الدوار وهو يرى كل الأحاديث تبدأ ب «بيقولك» وتنتهي بتأكيد شديد للمقولة، يتبع ذلك تنويعات فريدة واستنتاجات ما أنزل الله بها من سلطان...

في خلال دقائق دارت شائعة أزمة البنزين التي استنتج منها الناس أزمة السلع الغذائية... سينزل الناس كالتتار على الأطعمة ويخزنونها لتمسي البلد في أزمة طعام فعلًا... مما سيضطر الأمن للسيطرة على المظاهرات بالقوة فينزل الجيش لحماية الشعب فتقلق إسرائيل وتجد «تلكيكة» مناسبة لصنع المشاكل

واستغلال حالة التشتت الذي سيصيب الجيش على حسب أهوائها الخاصة!

لأول مرة يرى خالد مفعول الشائعة بالتصوير السريع أمامه... كل شخص من الركاب سينزل ويتوجه إلى منزله لينشر الشائعة بلمساته الشخصية إلى نحو عشرة أشخاص... ستنتشر الشائعة بمتوالية هندسية رهيبة. إذا كتبها أحدهم على فيس بوك فستصبح الحقيقة الوحيدة ولن يبحث أحد عن «بيقولك» واحد بات مصدر الأخبار...

- الهرم يا بشاوات... اللي هيكمل جيزة يبعت اتنين جنيه كمان... مفيش مواصلات في الرماية أساسًا...

لم يتحرك أحد وتتابع انسياب الجنيهات من آخر السيارة عبر الأيادي إلى أولها... لن يجرؤ أحد على النزول وتجربة حظه بعد أن سمع النبرة المتأكدة في كلام التباع... لن تجدوا مواصلات... انزلوا أو ادفعوا... أنتم أحرار تمامًا... لا وجود للَي الأذرع هنا...

نزل خالد في بداية شارع مراد بالجيزة ومشى لا شعوريًّا في أي اتجاه يبتعد عن صوت الضوضاء أمام مسجد الاستقامة في الميدان...

تحسس جيبه مرة أخرى... دار بعينيه على المحال المغلقة... لا سجائر إذًا... أخذ ينفث البخار من أنفه وهو يجد السير نحو كشك بقالة وحيد تحت ظلال شجرة عتيقة...

- عندك سجاير لو سمحت؟

- لا والله...

- طب ممكن التليفون؟

يتصل بوالدته... لا أحد يرد... تلح عليه الرغبة في نفث الدخان... في نفث أي شيء...

يتصل برقية أخته...

- ألو... أيوة يا حبيبي... إنت فين؟

- أنا في الجيزة... أم خالد مابتردش ليه؟

- أصلها يا حبيبي تعبت شوية وأنا نازلالها أهو... شهّل إنت بس، إنت أقرب...

- مالها أم خالد؟ في إيه؟ هي فين؟

- في البيت يا حبيبي والحاج رضوان جارنا ومراته معاها ماروّحوش من الصبح...

- طيب أشتريلها الدوا وآجي بسرعة... بس ما بيردوش ليه لو هما هناك؟

- إنت عارف الحاج رضوان ومراته يا خالد... السمع مش ولابد والحركة مش قد كده... أنا نازلة أهو...

- استني انتي ماتنزليش... بيقولك الجيش نزل!

أغلق خالد الخط وهو يبتسم في مرارة... اضطر لاستغلال الشائعة إياها كي لا تنزل رقية...

رقية الجميلة... رقية الكبيرة... رقية أم ضحى...

تحمل ملامح أمها في وجهها القمحي المستدير... وتحمل هم الجميع في قلبها الأبيض الكبير...

يرعى أم خالد خمس نسوة من جيرانهم... سيدة لكل يوم، بينما يتفجر المنزل بالروائح الشهية والضوضاء الحبيبة عندما تأتي رقية يومي الخميس والجمعة...

تطبخ طعام الأسبوع وترصه في الثلاجة... تغسل وتنظف وتلكز ابنتها ضحى كلما بدر منها بادرة تخريبية ما...

يعمل عمرو زوجها ضابطًا بحريًا، دائم السفر، بينما تكد هي بلا أجر يذكر في طابونة التربية والتعليم...

يجتمع الأخوان تحت جناح أم خالد المهيض... يرقبانها تذوي... لا يجرؤ أحدهما على البوح بما فيه...

يرشفان الشاي في الشرفة ويراقبان الغسيل المتراقص المتمايل مع هبات رياح الشتاء...

- شكلها هتديها مطر...

- أما ألحق ألم الغسيل... ههويه على الكنبة كده وابقى طبقه انت... ماتكلكعهوش وخلاص...

- ما هو أصلًا اللي طالع من بُق كلب... مش قلتلك بلاش ميه سخنة في القمصان؟!

- ابقا حط منديل ع الياقة علشان ما تسودش كده زي قعر الحلة وأضطر اغسلها بمية سخنة!

يضحكان في مرارة... يتصنعان شخصيتيهما القديمتين... ينسجان معًا كذبتهما الواهية...

((يا ترى يا خالد هتكون موجودة الأسبوع الجاي؟ يا ترى هنتجمع هنا ونضحك ولا .....))

((.........................))

((رد عليا يا أخويا... طمني... اكدب عليا بس ما تفضلش ساكت كده يا حلوف!))

تحتضن رقية سلة الغسيل وتبدأ في نثر ما بها على الأرائك والمقاعد...

- الأسبوع الجاي إن شاء الله هعملكوا جلاش من اللي خالد بيحبه...
- من أبو لحمة ولا التاني القوديجي ده؟
- ياوله، وأنا أكلتك حاجة قوديجي قبل كده؟!
- ما إنتي كل أسبوع تعشمينا وتخلي بينا...

تجذب أم خالد خيطًا مرخيًا في نسيج كذبتيهما...

- يا مين يعيش ياولاد... يا عالم...

يصمت الاثنان... يتبادلان النظرات... تتشاغل رقية في الغسيل... يا عالم...

يسير خالد داسًا كفيه الباردتين في جيبي معطفه... يتمنى لو يجد سيجارة واحدة... يهرول حتى يصل إلى الصيدلية الشهيرة في شارع مراد وهي الوحيدة التي تبيع الدالوكساسين... يلهث ويدخل مصطدمًا بحائط من الدفء ومعطر جو كئيب...

- دالوكساسين لو سمحت...
- عليكم السلام ورحمة الله! خد نفسك بس... الدالوكساسين صعب تلاقيه... منزّلوش منه من فترة... أصله مستورد...
- مفيش بديل له طيب؟
- لا والله... تركيبته مش مشابهة لأي مضاد حيوي معروف... ثواني

أتصلك بفرع القصر العيني... غالبا عندهم واحدة...

مرت ثوان ثقيلة ثبت فيها خالد نظره على الصيدلي... لحظات وانفكت عقدة حاجبيه بابتسامة وهزة رأس...

- في عندهم واحدة... تحب نبعت نجيبهالك وتعدي بكرة تاخدها من هنا؟
- لا... هروح أنا دلوقتي...
- طيب اسمع...

يخرج خالد مهرولًا مرة أخرى مقاطعًا كلمات الصيدلي... يتقافز على الرصيف مفكرًا... أيهما أسرع... انتظار تاكسي أم الهرولة إلى شارع القصر العيني؟

يقدّر أن الانتظار سيحرق ما تبقى من أعصابه الهشة أساسًا، فينطلق جريًا، لكن رئتاه تحت وطئة التدخين المستمر...

مع بداية وصوله إلى شارع القصر العيني، تنامى إلى مسمعه الضوضاء المتسللة من بين العمائر الطويلة الصامتة... الكئيبة...

صياح وهتافات...

تجمُّع من البشر يزداد كثافة كلما تقدم في عمق الشارع المؤدي إلى ميدان التحرير...

يتوقف منحنيًا مستندًا بكفيه إلى ركبتيه... يخدع نفسه بضرورة التقاطه لأنفاسه... لكن شيئًا ما يجذبه للتراجع الآن...

يزم عينيه ليرى ضوء الصيدلية البعيدة يغريه بالتقدم... أم خالد تنتظر دواءها... لا تجبن الآن!

يحاول السير ملصقًا كتفه بالحوائط ومداخل العمارات... يثبت نظره على الأرض أمامه، يتقوقع في حفرة النعامة مخفيًا وعيه في طيات جبنه...

الضوضاء تتعالى...

صوت فتاة تصرخ...

يلقي نظرة أرادها خاطفة لكن عينيه ثُبِّتتا على الفتاة الصارخة كأنها تم لصقهما بها... وتسمرت قدماه في الأرض...

كانت فتاة ممتلئة القوام، شعرها أسود ناعم ملفوف خلف رأسها في لفة محكمة، ترتدي قميصًا شديد الاتساع والطول في محاولة منها لإخفاء سمنتها ...

وخلفها شابًا يجذبها من ملابسها فيتمزق أول أزرار قميصها في يده... تنفك ربطة شعرها مع جذبها منه... وتسقط أرضًا في محاولة يائسة لضم أطراف ثوبها على صدرها...

((الحقني... آه... ليه كده... عملت إيه بس... آي!!!))

يسمع صوتها رغم المسافة الكبيرة بينهما... يسمع صوتها دون أن تحرك شفتيها...

فقط عيناها السوداوان الواسعتان تنظران له في جزع... وخجل...

((إنت شايفني... أبوس إيدك ما تعملش نفسك مش واخد بالك... الحقني!))

للحظة بدت رقية أخته مكان الفتاة... هل يتركها؟؟

اندفع عابرًا الشارع بينما تحلقت فتيات يغطين أفواههن بأكفهن في صرخات مكتومة، تلوذ بعضهن بالفرار بينما تمد الأخريات أيديهن إلى الفتاة الساقطة...

يقترب الشاب مرة أخرى بسرعة نحو الفتيات في محاولة منه للمس أي أجزاء من أجسادهن وعلى وجهه تعلو بسمة سادية كريهة...

يهجم خالد عليه فيسقطه أرضًا بوزنه واندفاعه المفاجئ...

يسقط الشابان فيركل خالدًا الشابُ المتحرش ويقوم مترنحًا، يعدو بين الجموع...

يقوم خالد ولا تزال صورة رقية مكان الفتاة الواقعة أرضًا تعمي بصره...

يدفع المتزاحمين محاولًا ألا يفلت الوغد منه بأي ثمن...

لم يكن خالد ضعيفًا ولا قليل الحيلة... دومًا ما كان ينأى عن المشاركة في شجارات شارعهم مع أقرانه، إلا إنه مشاهد ممتاز لأفلام الأكشن..!

ما كان ينقصه فقط هو الحافز والشجاعة وبعض من الإيجابية...

يعلم أن من سقطت لم تكن رقية، لكنه ظل متشبثًا بما خيل إليه أنه رآه... وظلت السيطرة لاندفاع الأدرينالين...

((أبوس إيدك ما تعملش نفسك مش واخد بالك... الحقني))

تتقاصت المسافة بينه وبين الهارب فقفز فوقه ممسكًا قدميه من الخلف... سقطا على الأسفلت الخشن بوجهيهما...

ركل المتحرش خالد في وجهه وحاول القيام مرة أخرى لكن خالد أمسك بقدمه في جولة ثانية، فأخرج المتحرش مطواته وخدش بها كف خالد...

ترك خالد قدم الشاب فقام الأخير واقفًا يتحلق حوله الشباب في محاولة لإمساكه...

((عمل ايه ده؟..))

((تصدق كنت فاكر إن الواد الأسمر هو الحرامي -لحد ما شفت المطوة!))

((إمسكه يا ممدوح من قفاه!))

كلماتهم تتوالى وتختلط في ذهن خالد... يهز رأسه كأنما ينفض الأحرف المتداخلة منها ثم يقوم ممسكًا بكفه عاقدًا حاجبيه في ألم...

يرى من بين جفنيه المثقلين المتحرش يخرج جنزيرًا ويطوحه على جانبي جسده فيصيب من يصيب ويهرب من مرماه من يهرب...

((هاتولنا مرتبة من أي بيت!!!!))

يحاول خالد أن يجلي الكلمات غير معلومة المصدر من رأسه ليركز...

يتابع حركاته... يتشتت الشاب مع محاولات الشباب الآخرين لتقييده...

تلتقي عيناهما... يبتسم المتحرش بسمته المقيته ويهتف...

- وجعاك أوي البت... عجبك اللحم الطري!

- دي أختي يا حيوان!

يهجم خالد بلا تفكير فتصيبه السلسلة وتلف على ذراعه... يجذبه الشاب نحوه فيسقط على ركبتيه...

- عاملي رجل يا «______»....

يغلي الدم في عروق خالد مع إهانة أمه ورجولته في آن واحد... يطوق شاب نحيف ظهر المتحرش مستغلًا انشغال الجنزير فيختل تركيزه لثوان...

يجذبه خالد من الجنزير بقوة تعتصر عظام عضده المكسورة فيسقط أمامه...

يكيل له خالد اللكمات المتوالية في غيظ وهو يزمجر... مرت أقل من دقيقة

تم تصويره فيها من أكثر من زاوية ومن أكثر من مصور هاو ومحترف...

وأخيرًا نجح المتحرش في إخراج قرن غزال لامع شق به جبهه خالد فانسال الدم يعمي عينيه...

جذبه رجل أربعيني من معطفه كي يبتعد عن صاحب المطواة لكن خالد تملص من الرجل تاركًا المعطف له، سقط المعطف تحت الأقدام فانكسر الطبق في جيبه...

لا يزال الشر ينطلق من سلاح الشاب الحاد مصيبًا من حوله بجراح طفيفة تثير الذعر ولا تسبب الموت...

((المرتبة جاية أهه!!))

أيةُ مرتبة؟؟ تلقى خالد الطعنات يردها هو لكمات دامية غير موجعة من يده اليسرى غير المصابة... يتساءل في نفسه... أأنا حقًا من يَضرِب ويُضرَب؟ أهذا حلم من تبعات ليلة ساخنة مع فيلم أكشن أميريكي؟؟

وجاء أخيرًا قوم يحملون مرتبة إسفنجية ألقوها فوق المتحرش وألقوا بأجسادهم فوقها... وسيلة فكاهية لكنها مضمونة للوقاية من شخص مسلح بجنزير أو مطواة وجندلته...

رغم الجراح المنتشرة فيمن حوله إلا أنه غاص وسط الأيادي الممتدة له، يعينونه على القيام...

زجاجة مياه باردة تُصَب على منديل أبيض تمسح صاحبته وجهه من الدماء، تنعشه القطرات المثلجة وتجلي بصره... يفتح عينيه فيجد الوجه المستدير والشعر الأسود نصف المفكوك لفتاته المستغيثة...

- إنت... إنت كويس؟ آسفة أوي... أرجوك بلاش يحصلك حاجة وحشة!!

- أنا كويس... إنت كويسة؟؟

تراجعت واقفة وضمت قميصها حول صدرها مبتسمة في عصبية...

- أنا كويسة... مأمنة نفسي أهو... ما بلبسش أقل من ٣ طبقات احتياطي..

ضحك الجميع ما بين جريح لا يعبأ بجراحه... وما بين من أصابه قلق أذابه الضحك المتوجس...

حمله الناس حملًا إلى الرصيف الأوسط من الميدان وأجلسوه... أحضر له الرجل الأربعيني معطفه مبتسمًا، أخرج المحفظة من جيبه وناولها لخالد ثم وضع المعطف بجوار الأخير على الرصيف...

- وأنا أحوش فيك ما بتتحاش.:. تجولش وابور داخل في الرجل طوالي! شوف ياعم فلوسك كاملة ولا حاجة وجعت منك... لو معاكش نلمولك!

مد خالد يده يمسك المحفظة من الرجل ولم يعلق...

لم يتواجد خالد قط في وسط كل تلك المجموعة المتنوعة المتناقضة المتجانسة من المصريين... بل كانت طفولته في أسوان شبه منغلقة، حتى بعد ما جاءت أسرته إلى القاهرة وهو بعد في أولى سنوات دراسته الابتدائية، ظل منغلقًا على أسرته ونفسه ومجموعة قليلة من زملاء المدرسة أو العمل...

قميصه غارقٌ في دمائه المختلطة بدماء من كانوا حوله... ورأسه يضج بالضحكات والأنين والأغاني... هتافات علنية ودعوات لم تغادر صدور الداعين... كلها تدور في دوامات عقله...

((عيش... حرية...))

((الشعب يريد...))

((.. ناح النواح والنواحة على حاحا وعلى بقرة حاحا....))

أخذ زجاجة المياه من الفتاة الواقفة في حيرة إلى جواره... غسل وجهه مرة أخرى وشرب الباقي ثم ناولها الزجاجة الملوثة بالدماء...

- شكرًا..

- أنا اللي لازم أشكرك يا....

- خالد... خالد تحية...

- شكرًا يا أستاذ خالد... بس دراعك شكله اتكسر... ممكن نوصلك أقرب مستشفى...

صدمته الكلمة وأعادت إليه ذاكرته المفقودة وسط الجموع... المستشفى... الدواء... أم خالد...

- أنا لازم أمشي دلوقتي... آسف... والدتي عيانة ولازم أجيبلها الدوا حالًا...

اندفع يجري دون أن يسمع ردود الواقفين...

دون أن يلقي بالا لسترته مع الرجل الواقف هناك وسط الزحام...

يشعر بألم كالحريق في جسده... رغبة عارمة في أن يحك جلده حتى يسلخه...

شعور سخيف بأنه يسمع كل ما يدور حوله وكل ما يدور في داخلهم ولا يبوحون به...

وكل ما يدور بداخله ولا يجرؤ هو على البوح به...

((عايز الحق أم خالد.. عايزين يلحقوا أم الدنيا...))

يدفع باب الصيدلية فيدميه بكفه... يطلب طلبه الوحيد...

- دالوكسامين وحياة والدك!

* * *

طرقات متوالية على الباب الخشبي القديم ذي «الشراعة» كادت تخلعه وتسقط اللافتة الصغيرة المعلقة عليه والتي تحمل اسم «د. إمام أبو زهرة»...

دكتور إمام رجل في أول الأربعينات، عفي الجسد في غير ترهل، أبيض ذو لحية قصيرة بنية وشعر ينسحب انسحابًا تكتيكيًّا مدروسًا إلى مؤخرة رأسه..

خرج من الحمام الممتلئ بالبخار وقد ارتدى ملابسه في عجلة على جسده المبتل... انهمر الماء من جبهته ورأسه على نظارته فتكسرت الرؤيه أمام عينيه...

لا مجال للبحث عن الخف... الأرض مثلجة لكنه تحاشى المشي فوق السجادة كي لا تبتل...

- أيوة... أيوة... أيوة جاي حاضر... الله!

فتح إمام الباب ليجد خالد الغارق في الدماء والعرق، كفه اليمنى متورمة ودماؤه المتجلطة تجعل من المستحيل استبيان مكان الإصابات الفعلية...

- أمي بتموت... تعالى معايا حالًا...

- حاضر... حاضر... ثواني بس...

وقف إمام في وسط الصالة يدور حول نفسه لا يعرف أين ملابسه ولا يراها...

- طب ادخل... إيه اللي حصلك؟

- مش وقته... أنا كويس... كنت في التحرير وحصل شوية مشاكل...

المهم... أمي بتموت وأختي معاها لوحدهم...

ارتدى إمام تريننج وجده قريبًا ومسح نظارته في صدره فازدادت العتامة...

خرج الشابان في الشارع المظلم يهرولان، تتابعهما أعين الكلاب الضالة والقطط...

صوت لهاثيهما يبعث في خالد إحساسًا ثقيلًا من بطء الوقت ولزوجته... جو كابوسي لطالما زاره في نومه مرارًا... العجلة والبيت الذي لا يجيء...

لا يزال يسمع همسات الناس خلف أبوابهم المغلقة... يشعر القلق المتسلل إلى النفوس... يسمع دعوات مرتجفة وأغان وطنية أعادت للكبار منهم ذكرى العبور...

رقية ممتقعة الوجه تفتح الباب، عيناها معلقتان في صمت بجسد أخيها المختفي خلف ستار مسود من دماء...

لم يجب تساؤلاتها المذعورة حين جاء أول مرة... فقط نظر إلى جسد أمه المتفخ، ألقى الدواء أرضًا ثم نزل مهرولًا في حالة مزرية للبحث عن طبيب...

دومًا، ينسى خالد الكون من حوله حين يرى ضحكة أمه... أو ألمها...

لا يتخيل فقد حصنه الدافئ القوي رغم رقته... لا يتخيل أن تنفصل «أم» عن «خالد»...

- مين اللي كان بيعالجها؟؟

نظرت رقية إلى خالد منتظرة إجابة منعها حياؤها من تعدي دوره فيها، فوجدته شاردًا ثقيل الأنفاس، يهرش جسده في غل بطريقة لم ترها من قبل...

- خالد... مالك؟

- أستاذ خالد... حاسس بإيه؟

أفاق خالد ونظر إليهم نظره خاوية... للحظة تبدى ظهره المظلم من ياقة قميصه فأبصر إمام شيئًا أثار ريبته...

- ثواني كده... ممكن أشوف ضهرك؟

- لا!... آسف... مش دلوقتي... أم خالد مالها؟

- مين اللي بيعالجها؟

- دكتور محرم ثابت... في وسط البلد...

- لازم الحاجّة تتنقل المستشفى حالًا...

ضربت رقية على صدرها دون وعي ثم انكفأت على يدي أمها تقبلها... بينما تسمر خالد في مقعده يحك جسده، شيء يفصله عن العالم... شيء يحول بينه وبين التركيز...

- أستاذ خالد... ممكن لحظة واحدة بره؟

تحامل خالد على نفسه وخطا محنيًا يستند على الجدار... مد إمام يده يربت على كتفه...

- بقولك... أنا هطلب عربية الإسعاف دلوقتي واتفضل حضرتك غير هدومك لحد ما توصل...

- هتموت؟

- نعم؟؟

- أم خالد...

- ماتقولش كده... هي كانت بتاخد علاج إيه؟

- كيس الأدوية جنبها... أجيبهولك؟

- لا... أنا هجيبه... بس متأكد إنك كويس؟ لو في جرح مفتوح ولا حاجة ممكن أخيطه لحد ما الإسعاف توصل...

- بعدين... بعدين...

طعنة غير مرئية تخترق ضلوع خالد وتبحث في جشع عن موضع قلبه... وبل بطعم الزقوم يحرق أحشاءه...

يدخل الحمام مغلقًا وراءه الباب في هدوء...

يخلع قميصه ويلقيه أرضًا...

((هو أنا هلم وراك طول عمري... مش قادر تشوطه برجلك حتى في سبت الغسيل... أم خالد... ١٩٩٤!...))

ينحني ويضع القميص المهترئ في سلة الغسيل...

يهدر سخان الغاز صنع المصانع الحربية الأبيض الضخم...

((.. استنى أنا هولعلك السخان... ولا عايزة يهب فيك زي ما هب في البت في فيلم نادية!... أم خالد..١٩٨٩!..))

قطعة الصابون الصغيرة غير المشذبة والمصنوعة من بقايا قطع الصابون القديمة والتي تحرص أم خالد على تجميعها في كيس بلاستيكي ثم تذويبها وصنع قطع صابون أصغر بها...

((.. هو المعاش هايكفي إيه لما هنرمي الصابونة في نصها ونرمي الأكل علشان بايت... أم خالد... ٢٠٠٢..))

الضوء الخفيض للمصباح الموفر يعكس ظلال روحه على الحوائط حوله...

يرى الجروح الطولية في جسده... لا يقوى على تحريك أصابع كفه الأيمن... لا يقوَى على إدارة الكف حول محورها...

يقف في بانيو القدم، يصب الماء على جسده شاردًا... يزيد الماء إحساس الحريق في جروحه المفتوحة...

يسمع همسات من الماء ذاته..!

((.. لابد للظالم من يوم..))

((... المصيبة الحول جه وما حصلش جبر السدا..))

((.. لو كان ربك ياخدهم في شوطة واحدة...))

((.. إرجموهم.. خزوقوهم..!!!))

((.. غصبر إيجي استوري، ايجو غصبر بوجوروي!))

يخرج في جزء من تحت الماء... يمسح عينيه ويفتحهما عن آخرهما...

لا يرى مصدرًا واحدًا لكل تلك الأصوات الهامسة المختلطة، مختلفة اللهجات واللغات...

يغلق الماء ويبتعد عنه مذعورًا... ما الذي يحدث اليوم!

يضع الفوطة البيضاء على كتفيه محاولًا تجفيف جسده بيد واحدة دون إعادة فتح الجروح...

ينزع الفوطة ليضعها على مكان آخر، لكنه يتوقف ويقرب عينيه منها...

حروف مزخرفة معكوسة مطبوعة على الفوطة من آثار دماءه!!

يقف على أطراف أصابعه أمام المرآة الصغيرة في محاولة منه لرؤية جروح ظهره...

((ما تصرخيش في الحمام يا رقية قلتلك!!.. أم خالد.. ١٩٨٧..))

كان ما رآه دليل لا يدحض على الجنون!

* * *

جاءت والدة خلود واصطحبتها من الميدان ليلتها... لم تكف عن تأنيبها وتكييل التلكيكات إلى كتفها في غل...

- لولا ستر ربنا كنا زماننا اتفضحنا... أبو الفيس بوك لأبو اللي اخترعه يا شيخة... هم شوية عيال مقاطيع نازلين... تنزلي إنت ليه؟ هه؟ بتستقوي عليا بخالك اللي فرح بيكي أوي... البت وطنية يا مها... سيبيها تطالب بحقها يا مها... أما أشوفه بس...

- ماما... مفيش حاجة حصلت... اللي حصل ده ممكن يكون وحش فعلًا... بس أثبتلك إن في شباب ورجالة وبنات جدعان... كلنا بنخاف على بعض هناك وغير هناك... يفرق إيه الميدان عن أي مكان تاني؟ ما كان ممكن أتعاكس أو أتعرض للتحرش في أي مكان تاني وأي وقت... وبرضو كان هايبقا في جدعان يحموني...

- والنبي تنقطيني بسكاتك يا خلود... بلاش بقا كلام النت بتاعكو ده... آل أمان آل... وإيه اللي معاكي ده؟

اعتصرت خلود الجاكيت وكأنها تحتمي في روح مالكه مرة أخرى... صوت كصوت شظايا تحتك ببعضها صدر منه...

- ده جاكيت الشاب اللي دافع عني... نسيه في الميدان...

- طب إرمي إرمي... بلاش قرف...

- قرف إيه يا ماما؟ بقولك الرجل اتعدم العافية وشالوه من الأرض

غرقان في دمه... يبقا بلاش حتى نشكره..؟؟

- وهاتعرف مكانه فين يعني؟ ربنا يردهاله في إخواته ولا مراته... إرميه بقا!

انقبض قلب خلود... «مراته»؟ تراه متزوج؟

وما يهمها في ذلك؟؟

- أنا لقيت في جيب الجاكيت رزمة كروت شخصية له... فيها عنوان شغله...

- هنبقا نبعت خالك بيه يشكره... إقفلي بقا على الموضوع ده...

خلود ابنة مها الوحيدة... تعاملها كملكية خاصة وتذوب خوفًا حين تستشعر اقتراب ذكر في سن التزاوج منها...

لا شعوريًّا تسببت في سمنة واضحة لها، تزداد اطمئنانًا هي على ابنتها كلما علا السياج حولها من الدهون... لن يجرؤ أحد على الاقتراب...

تدفن هي شخصيًّا خوفها من المستقبل في طعامها...

لكن حاجز أمانها النفسي يبدأ في التداعي مع دخول الإنترنت بيتها...

تشجعت خلود أكثر على التواصل والاقتراب من البشر وهي آمنة خلف شاشتها... لا يراها أحد... ولا يلقي عليها أحد الطوب راجمًا سمنتها، عاجزًا عن رؤية ترهل روحه هو...

وجدت خلود ضالتها في الأعمال الخيرية تلتها المشاركة في الحياة السياسية من خلال مدونة صغيرة لها، ثم من خلال عملها كصحفية في مجلة نصف معروفة تصدر من قبرص... إلا إنها لا زالت تستشعر نقصًا في شخصيتها يكمله حب حقيقي لشاب يعشق ذاتها الخفية...

مسيرة اليوم نظمتها مع أصدقاءها من شبكات التواصل الاجتماعي... انتابتها رجفة في الصباح من وقع صورتها في نفوسهم حين يرونها لأول مرة... وقرب الظهر، تلاشى ذلك الخوف متحولًا إلى حماس مفرط مع اندماجها معهم تحت راية واحدة... لا ينظر أحد إلى الآخر، إنما ينظرون جميعهم في اتجاه واحد ثلاثي الألوان... أحمر وأبيض وأسود...

وفي المساء... تلاقت عيناها بعينين خائفتين، قلقتين... لشاب أسمر دقيق الملامح يرتدي معطفًا رماديًّا ويمشي متحاميًا بالحوائط وسط جمعٍ كل من فيه قد هدم الحوائط والأسوار وتسلقها عابرًا إلى المجهول...

ووقت انتهكت قدسية جسدها يد جبانة خسيسة، لم تجد سوى عينيه تتعلق بها من دوار المفاجأة ودوامة العار...

صرخت روحها مستنجدة في صمت... آملت ألا يتخلى هو بالذات عنها...

ولم يتخلَّ...

تغير غريب بدا في عينيه... تبدل الخوف في عينيه إلى غضب...

تبدلت ملامحه المسالمة إلى ملامح قاسية غريبة...

وسمعت زمجرة مخيفة تخرج من بين أسنانه...

كان يتحرك كنمر، يقفز، يخمش... يدفع ويقاتل عاري اليدين...

رغم وضوح انعدام خبرته، إلا أن شخصية أخرى نمت تحت جلده... شخصية كاسحة... مغرية... مغوية...

اندمج كلية في عملية تحول المصريين يومها... غضبة شديدة سرت في نفوس هادئة هدوء النيل...

فيضان على غير موعد أخرج الطين والدماء والصديد من الأنفس...

وكان خالد واحدًا منهم...

خطت أفكارها السابقة سريعًا في مفكرة صغيرة قبيل وصولها للمنزل بدقائق... وفي بالها أن تسهر على كتابة ما حدث اليوم في مدونتها، ربما إحالة أفكارها إلى مقالة كاملة صالحة للنشر...

خالد تحية.. The Egyptian Metamorphoses!

* * *

نزل «السيد» كما يطلقون عليه من طائرته الخاصة القادمة من واشنطون فجر يوم ٢٩ من يناير يحوطه حاشيته المتشابهين شكلًا ورداءً...

لا أحد يطلق عليه «السيد» سواهم... لكنه بالنسبة لباقي الناس هو رجل أعمال شديد الشهرة، يعمل في مجال الإعلام والصحافة والبحث العلمي...

تمت الإجراءات في سرعة غير معتادة، لكنها معتادة بالنسبة إليه... فهو لا ينتظر أبدًا، حتى وإن كان الانتظار في صالة كبار الزوار...

سيارته مرسيدس مايباخ السوداء تنتظره في الظلام...

يحمل النسيم البارد عطره الكليف كريستيان رقم ١ في الأجواء... رائحة ارتبطت في ذهن هذا الجيل من حاشيته بالخوف والبطش والتعذيب...

لم يكن مسموحًا بركوب أحد معه في نفس السيارة، وإنما يتواصل مع سيارات حاشيته عبر الهاتف فقط...

يرجع مقعد سيارته الخلفي إلى وضعية تسمح له بالاسترخاء ويرفع قدميه...

لم يكن متعبًا، لكنه إحساس زائف بالاسترخاء يتملكه كما تتملكه رغبة

زائفة في شرب النبيذ...

فتح الثلاجة الصغيرة فوجد زجاجة نبيذ هنري جاير تبادله النظرات الصامتة...

يملأ كأسه بلا ثلج ويجرع بلا إحساس بأية نكهة...

يبتسم ويغمغم بلكنه أمريكية عتيقة تناسب قِدم أبيات دوروثي باركر:

- Three things I've never attained: envy, content, and sufficient Champagne!

أزيز بسيط من هاتفه المتصل بالأقمار الصناعية... يرد في برود...

- Sir... I want to..

قاطعة السيد في غضب محدود وهو ينظر إلى سقف السيارة...

- في مصر تتكلم مصري يا حيوان...
- أمرك يا باشا... قصدي يا فندم...
- عايز إيه؟
- ماحدش يا فندم عارف البلد رايحة فين... بس كلام سعادتك واضح ومحدد... يعني نتصرف على أساسه؟
- أنا قلتلكم تتصرفوا؟ من إمتى بتتصرفوا من غير أوامر محددة؟ أنا عارف إيه اللي هايحصل وإمتى... اقفل.

وأغلق الخط ممتعضًا...

لم يجد بعد العبد المطيع الذي لا يسأل...

يلعن البشر الحمقى، خصيصًا قصيري الأعمار منهم... ما خُلِق البشر في نظره إلا لخدمة سيد واحد... لا يجب أن يكون لهم طموحات خاصة بهم، فأعمارهم القصيرة تؤهلهم فقط لتمهيد الطريق عبر الزمن لحكم السيد...

لن يفهم البشر ولن يتعلموا أبدًا...

* * *

فشل كلوي هو ما أودى بأم خالد إلى حجرة الرعاية المركزة...

يرمقها نائمة منتفخة كقربة ماء من خلف الزجاج... تنبض رأسه من الصداع وتتدنى قدراته على التركيز والاستيعاب إلى أدنى معدلاتها...

يرى رقية في انعكاس الصورة على الزجاج... تقترب منه وتحذو حذوه في الارتكان على انعكاسها...

- حبيبي ما تشيلش هم كده... إن شاء الله الفلوس محلولة... المهم هي تتحسن...

- ماتشيليش هم إنت... أنا هتصرف...

- تتصرف إنت أتصرف أنا... واحد يا حبيبي... من بكرة إن شاء الله هيكون عندك مبلغ تسد بيه سلفة الدكتور إمام بتاعة الحجز... وربنا يكرم في باقي المصاريف...

- ....

- ماقولتليش... إيه اللي عمل فيك كده؟

- خناقة قدام الصيدلية... شاب مد إيده على بنت... عادي يا رقية...

- طب هتسيب إيدك كده؟!

- مش مهم...

ابتعد متثاقلًا إلى نهاية الممر، ثم خرج إلى مدخل المستشفى... تحسس جيبه فلم يجد سجائر...

شعر بضيق وركل الحصى في الأرض...

استند برأسه على الحائط وشرع يضربه فيه... ليت الضوضاء تصمت... ليت أنين المرضى يتوقف...

ليته يكف عن سماع أمه تهمس بآيات من سورة ياسين في غيبوبتها!

- أستاذ خالد...

- أيوة يا دكتور...

مازال إمام بالترينينج فقد أغلق باب شقته والمفتاح بالداخل... لولا معرفة الأطباء به في المستشفى الحكومي لصار من المستحيل إدخال أم خالد دون دفع مبلغ تحت الحساب... اقترض المبلغ من طبيب صديق...

- لا... قولي يا إمام... ده احنا عشرة سنين حتى لو من بعيد لبعيد...

- وبلاش أستاذ خالد...

- ياريت! خالدماينفعش نفضل هنا أكتر من كده... الحاجّة مش في أوضة خاصة يعني مفيش مُرافق... ممكن تنادي الأستاذة أختك ونوصلها... واسمحلي بقا أبات عندك لحد ما أجيب نجار الصبح يكسرلي الباب!

يبتسم خالد رغمًا عنه... تراوده رغبة في البكاء على كتف الرجل الطيب، رغبة يخجل منها... يشعر بهوان وتخبط...

يود لو حكى له عن هلاوسه الغريبة... يود لو يريه ما رآه على جسده...

أوصلوا رقية إلى بيتها حيث تنتظرها ضحى وحماتها في قلق شديد، بينما عاد الشابان إلى البيت الكئيب الموحش...

وفي انتظارهما ليلة أطول مما تصوروا...

* * *

«خالد تحية...

التحول المصري...

في كتاب أوفيد، ميتامورفوزيس أو كما ترجموه «مسخ الكائنات»... يتغير سكان الأرض بين الأزمان... يتبدلون ويأتي بدلًا منهم أقوام أدنى في الخلقة والخُلُق...

تعاقب الألهة القديمة البشر وأنصاف الآلهة، فيمسخونهم من خلق إلى خلق أقرب للحيوانات...

أرى خالد المسالم السائر دومًا في حمى حائط حتى وإن مال الحائط مهددًا بهرسه تحته...

أرى الخوف في عينيه من منظر لم ير مثله ولم يسمع عن قريب له في تاريخ مصر...

وأرى تغيره المفاجئ حين مس الأمر شرف ابنة أرضه...

أرى مسخ الكائنات المصري معكوسًا...

يغضب الألهة، فيمسخ المصريون طواغيتهم إلى كائنات دنيا، ويغدون هم الأعلون...

يتغير سكان الأرض الطيبة عبر الأيام القليلة القادمة من قوم أدنى في الخلق إلى كائنات أرقى...

نعم... أرى الآن مسخ الطغاة وعلو الشعب على أنقاضهم...

شعب كتب عليه أن يخونه حكامه عبر العصور... أن يكمموه بوطأة أقدامهم، فتنسى الأجيال القادمة أن لها صوتًا يعلو، ولسانًا يحق الحق...

من مسخ الكائنات إلى مسخ الطغاة...

انقلبت الآية، وانقلب السحر على الساحر!»

تراجعت في مقعدها ونظرت إلى المقال بعين متشككة تفتقد الثقة...

عاودت ذكرى خالد مخيلتها... شعرت برغبة في كتابة المزيد عنه... لكن حينها سيفرغ المقال من محتواه ومن حديثه العام...

رنين الهاتف يقطع تفكيرها...

- آلو... دودي... عاملة إيه؟

- إزيك يا هدير... أنا بخير الحمد لله... ماما طلّعت عيني...!

- هههههه... معلش يا دودي... بس مبسوطة إني أخيرًا شفتك النهاردة... اليوم قلب غم آه... بس كان يوم جميل... الحمد لله إني أخدت رقم البيت منك الصبح...

- الحمد لله...

- مش الخناقة اتصورت!

- ما كان كل واحد معاه كاميرا صور... بس إيه؟ أنا طالعة فيها؟؟

- لا لا... اللي شفتهم كلهم مبينين الخناقة والمرتبة! ههههههه فكرة مين دي وجابوها منين أصلًا!

- أحسن علشان ما حدش يقول إن كان في بيننا حد معاه سلاح... أدينا

بتتخانق بالمراتب واللّحفة أهو!

- بس طالع إشاعة غريبة... بيقولك الواد المجدع ده كان بينور في الضلمة... ههههه!

- بينور إزاي؟؟

- طالع في كل الفيديوهات نور مصفر كده من فتحات قميصه المقطوعة... تلاقيها انعكاس النور عليه ولا حاجة... ماهو كان سايح في دمه...

- تصدقي اتهيألي حاجة زي كده... بس هو فعلًا انعكاس اللمبات...

استمرت المكالمة حتى انتصف الليل... سألت هدير أن تريها الفيديو عند لقاءهم غدًا... تمنت لو تراه مرة ثانية...

تحسست الكروت التي كانت في جيب معطفه، كروت عليها اسم قناة ستوكس وعلى ظهرها اسم خالد بخط اليد ووظيفته...

ورقم موبايل...

* * *

لم يجرؤ خالد على النظر إلى ظهره مرة أخرى... جلس مفكك الأوصال يكافح كي لا يحك ظهره في ظهر الأريكة...

ذراعه في الجبس الذي صمم إمام على دفع تكاليفه قبل رحيلهم من المستشفى...

تبرع إمام بصنع الشاي بعد إلحاح خالد عليه بأن يعتبر البيت بيته...

- الشاي... مش بيتظبط أوي معايا بس أهي حاجة سخنة في السقعة دي...

صمتا قليلًا ثم ذبح خالد الصمت بسكين تساؤلاته...

- هو ممكن البني آدم يطلعله كلام على جسمه؟ حروف مثلًا؟

- إنت عندك كلام على جسمك؟

- أنا بسأل يعني...

دفن خالد وجهه في كوب الشاي ندمًا على زلّته، بينما استعر فضول إمام في صدره، فقد لمح تقريبًا ما يتكلم عنه خالد...

- ديرماتوجرافيك ارتيكاريا... بالبلدي كده حساسية في الجلد تجاه أي ضربة أو خدش... مرض عادي يعني... بس مش بيكتب حروف... هو بس بياخد شكل الضربة أو الخدش والجلد بيورم في المكان ده...

- طب لو في حروف وكلمات فعلًا؟

- كده هاندخل في متاهات ومشاكل نفسية... كان في طفل من فترة مش فاكر فين، قالوا مكتوب على جسمه قرآن... والناس راحت تحج حوالين بيت الولد! اكتشفوا بعدها إن أم الطفل عرفت إن ابنها عنده الحساسية دي واستغلت الموضوع بإنها تكتب بأداة مدببة على جسمه وهو جلده هايتنفخ في المكان ده ويبان إن الكتابة طبيعية! مجرد استغلال للدين في دجل... ومجرد ما تقول أي حاجة فيها دين، تقدر تكفر أي حد يتكلم بالمنطق أو العقل...

تنهد خالد ووضع كوب الشاي على المنضدة... ثم خلع ملابسه فعرى جذعه كاملًا وأدار ظهره لإمام...

- ده اللي إنت بتقول عليه؟

قام إمام عاقدًا حاجبيه في فضول... انحنى يتحسس الكلمات المزخرفة بشدة والمنحوتة في جسد خالد...

تضافرت الحروف مع الجروح في لوحة فنية بديعة، يستحيل أن يكون خالد هو من كتبها لنفسه...

- إحم... مقدرش أديك إجابة دلوقتي... لازم نعمل تحاليل دم بكرة ضروري... وأشوف جلدك كويس في العيادة... و... ونشوف...

كان يود لو طلب استشارة طبيب نفسي... فلربما جلب خالد شخص آخر لكتابة تلك الكلمات على جسده...

((.. والجروح؟ إزاي بقت منحنية وملفوفة كده حوالين النقوش؟؟.))

اكتشف اليوم ضيق الحالة المادية لخالد، فربما دفعه مرض أمه إلى صنع ذلك بغرض الشهرة وجمع المال مثلًا...

لا تزال حالة الطفل وأمه أمام عينيه...

- شكلك عايز تقول حاجة... إيه؟ عايز تقول إني مجنون ولا نصاب؟ هه؟

بدت العصبية على خالد واحمرت عيناه... عقله لا يكف عن الهلوسة والهمس... الضغط العصبي يدفعه إلى الهاوية...

- لا أبدًا... هو كده بس... تحاليل وكده... هنزل أجيبلك أنبوبة ديرموفيت أو أي حقنة...

- محدش فاتح دلوقتي...

تراجع إمام مذعورًا وجلس على كرسي منفصل بعيدًا عن أريكة خالد...

- فعلًا... فعلًا... طب ممكن لو في كلامينا بقا... أو... مية بنشا... أو... تلج...!

تهاوى خالد على أريكته وأمسك رأسه بين كفيه... خرج صوته مختنقا متحشرجًا...

- أم خالد بتموت يا إمام... أم خالد خلاص...

تنهد إمام وجلس بجانبه يربت على ظهره العاري برفق... لا تبتعد عيناه عن تلك الكلمات المتشابكة المتراصة بخط عربي منمق...

- ياخالد ماتقولش كده بالله عليك... يعني حتى الفشل الكلوي له ألف حل... الله! خليك جدع أمال...

((.. حرية... مصر.. الشعب بريد......))

-... وبعدين عندك الديلزة... نتايجها كويسة في ٩٥٪ من الحالات... لو الدنيا تعبانة أوي في زرع الكلى... آه... سيبك من التكاليف... سيب الموضوع على ربنا ثم عليا...

((... عدالة.. أنا بحبك يا بلادي.....))

- وال... ال... خالد... ممكن تيجي في النور ثانية واحدة!

قطب خالد جبينه لتحول مسار الحديث المفاجئ... انصاع لجذب إمام ظهره ناحية الضوء...

- متهيألي الكلام ده... بيتغير! اكيد أنا ما خدتش بالي... الدنيا مش منورة كويس برضو وأنت كنت مش واقف على بعضك...

- بيتغير؟؟ إيه المكتوب أصلًا؟! أرجوك قولي...

- مكتوب كلام زي اللي بيقولوه في المظاهرات في التحرير... بس متفرق... مفيش جملة على بعضها...

التفت له خالد وعيناه متسعتان في وجهه الأسمر...

- أول ما شفته قبل مانزل مكانش كلام... كانت حروف بس...

هرع خالد إلى الحمام وأحضر الفوطة المطبوعة بدماءه...

- أهه... ده اللي كان على ضهري بس معكوس!

أمسك إمام الفوطة وقارنها بالكتابة... لا تشبه أي تركيب فيها... تصارعت التساؤلات في ذهن إمام ودارت كإعصار مدمر...

((.. دي نصبة بقا... محضَّر كل حاجة علشان يقنعني..))

((إنت شفت الكتابة بتتغير من غير ما يقولك..))

((.. تلاقيه محتاج شهادة دكتور علشان يسبُك النصبة... فاكرني أهبل!))

((... هو لحق يدبر كل ده إمتى؟ ووالدته العيانة... لا لا... أكيد مش مدبرها..))

((لا والله اتصدق خسارة فيك العلام... بقا الدكتور يصدق؟ ... أمال ساب إيه للجهلة! الله يرحمك يا أسيوطي! كان عندك حق!))

((بكرة هاتأكد... وديني لو طلع نصاب لأوريه مقامه..))

لحظات وعاد إمام إلى تفاعله الطبيعي... لازالت عيني خالد مثبتة فوق وجهه...

- إنت قلت الله يرحمك يا أسيوطي؟مين الأسيوطي؟!
- أنا قلت أسيوطي؟؟؟ طلعت مني؟؟؟
- مش عارف... سمعتها...
- لا ماقلتش... مافتحتش بُقي... إنت عرفت منين؟؟

- بقولك سمعتها... الله!

تراجع إمام محطمًا في تراجعه كل تفكير علمي منطقي...

هناك شيء غريب يحدث لخالد..! استنتاج متأخر جدًّا!

- خالد... معاك موبايل؟ كاميرا... أي حاجة؟؟؟
- معايا موبايل... ليه؟؟ مش شغال...
- عايز الكاميرا...

مرت الساعات تباعًا... يصور إمام ظهر خالد كل نصف ساعة، ثم قبيل الفجر بدقائق، نقل إمام الصور إلى الكمبيوتر في حجرة خالد وجلسا يشاهدان في فضول وعلى ظهر خالد قطعة قماش مبللة بالماء المثلج...

- مش هايجيلي التهاب رئوي كده؟؟
- مش هاجيلك أكتر من اللي عندك دلوقتي... بص!

تتابعت الصور أمامهم... تتغير أوضاع الكتابة على ظهر خالد ببطء لكنه غير ملحوظ لا يدحض... تكون الأحرف المتناثرة كلمات...

- إيه ده؟ يعني إيه؟
- معرفش... ما أنا زيك أهو... مشفتش حاجة زي دي قبل كده!
- طب هانعمل إيه؟
- تعمل التحاليل وتجيبلي الإزازة اللي هناك دي...
- لا... كلامنا لأ يا إمام... البتاع البمبي بتاع العيال الصغيرة ده... على آخر الزمن أحط سأمأة!!

- ده اللي موجود... تعالى أحطلك ونخش ننام خلي الليلة تعدي... إياكش نصبح الصبح نلاقي كل ده كابوس... وألاقي نفسي نايم في شقتي!

بظهر مطلي باللون الشاحب المميز للكلامينا، نام خالد مرتجفًا مفتوح العينين... يرمق الخطوط المضيئة على الحائط من تسلل ضوء الفجر عبر الخصاص، بينما نام إمام على الأريكة أمام التليفزيون... متابعًا القوم يصرخون في الميدان مطالبين بالفكاك من فخ الثلاثين عامًا...

* * *

- الكلمات الثانية -

كانت موسيقى فيفالدي خاصة وموسيقى عصر الباروك عامة من أكثر أنواع الموسيقى قربًا لنفسه...

تعني لفظة باروك «اللؤلؤة المشوهة»، يرى الموسيقيون أن موسيقيي هذه الفترة قد شوهوا الموسيقى مقارنة بإسهامات أسلافهم في العصور الوسطى، بينما يرى «السيد» أن التشوه هو قمة الجمال والإعجاز... لا يؤمن بالكمال المطلق ولا بإمكانية وجوده...

لكنه اليوم يرغب في سماع «من أجل إليزه» مرة تلو الأخرى دون توقف...

كتب بيتهوفن تلك المقطوعة من وحي اللحظة من أجل طفلة صغيرة طلبت منه ذلك.

تُذكره المقطوعة بطفلة شقراء يعجز عن تذكر شكلها وهي شابة، يعجز إلا عن تذكر آخر مرة رآها فيها مبقورة البطن، تحيطها العملات الفضية الدامية...

رغم أن جو مصر دافئ إلا أن فيلته الضخمة أعلى المقطم، تكاد تتجمد من شدة البرد على الدوام...

لا يتأثر هو بشدة البرد، فقد اعتاد على برودة أعنف في طفولته، لكنه صمم على بناء مدفأة قديمة الطراز محمولة على كتفين هما تمثالان لكائنين بشعي الخلقة مماثلين لتمثالين على واجهة كنيسة نوتردام في فرنسا.

تصدح موسيقى بيتهوفن في سماعات مدفونة في الحوائط، وفوق المدفأة ستة أوعية محكمة الغلق من الذهب الخالص، متماثلة في الحجم، متشابهة في المحتوى، مختلفة في الأسماء المزخرفة المنقوشة عليها... تسافر معه الأوعية أينما ذهب ويتولى هو شخصيًا وضعها في مكانها في كل منزل ينتقل إليه.

جوار المدفأة حصان كامل محنط مغطى بدروع من الفضة الخالص يثير ذعر كل من تقع عيناه عليه..

تطل الواجهة الزجاجية الضخمة على القاهرة، منذ زمن طويل وهو يعشق الإطلالة من فوق المقطم... تذكره بخطواته الأولى إلى عالم الرجال.

لا يدخل عليه في خلواته مختلفة الأسباب سوى السيد فخر الدين، رجل يبدو في الخمسينات من عمره، هو خليط نفسي يقف على الحد الفاصل بين الضباع وأحط ما في البشر...

تربى فخر الدين كما تربى جميع أفراد الحاشية تربية صارمة عسكرية، لا يعصون أمرًا ولا يجادلون... لا يناقشون ولا يتناقشون حتى في خلواتهم إلى أنفسهم...

يعلمون أن السيد قادر على معرفة ما يخفون، ويعلمون عذابه الشديد لمن يعصى، ولمن لم يعصَ على سبيل التَّذكِرة...

في المقابل تعيش سلالة الحاشية في أعلى مستويات المعيشة، تتنقل حول العالم مع السيد وتنال شرف العمل في أهم وأدق الأعمال...

يحمل أفراد الحاشية جنسيات مختلفة وبعضهم مزدوج الجنسية رغم أن

أصلهم جميعًا كان واحدًا...

مُحَرَّمٌ على أفراد الحاشية الزواج من خارج العائلة... محرم عليهم الزواج من داخلها دون إذن السيد...

يذكر فخر الدين دومًا ما آل إليه المتمردين والخارجين على قوانين السيد، فقد أشرف بنفسه على إزالة ما تبقى من أجسادهم في الأحوال القليلة التي تبقى منهم شيئًا...

يعرف أن عمره على المحك، وأن أي بادرة خداع أو خيانة أو استقلال منه، فلن ينتظر السيد أي توضيح... السيد لا يمزح ولا يناقش ولا يعطي فرصًا ثانية...

- مساء الخير جنابك...

بلهجة خفيضة تصحبها انحناءة وابتسامة ضبع شهواني...

- تعالى يا فخر الدين... وطي الموسيقى...

أخفض فخر الدين صوت الموسيقى ووقف ينظر إلى ظهر سيده الواقف يشاهد القاهرة من أعلى، شعره الطويل المربوط بشريط أبيض من الحرير الطبيعي يعكس أنوار الثريا الضخمة المصنوعة من الفضة الخالصة على نمط فاطمي عتيق...

- الوقت جه يا فخر الدين... تسجيلات القناة عندك؟

- كله تمام زي ما أمرت... سنين من الشغل خلت للقناة أكبر مصداقية في الشرق الأوسط، محدش يقدر يكذب اللي بنذيعه... محدش يجرؤ...

- محدش قدر يحكم البلد دي... كله بيقعد وبيقوم زي ما قعد... اللي بييجي بعده بيبدأ من الأول... ويموت قبل ما يكمل اللي كان عايزه... عارف إيه مشكلتكم يا فخر الدين؟

- إيه جنابك؟

- عمركم قصير... محدش فهم اللعبة إلا اتنين... بلد زي أمريكا قوتها في حكامها اللي ما بيموتوش أبدًا... روح واحدة بتحل من حاكم لحاكم... تناسخ سياسي رائع! مخطط طويل اللي بييجي بينفذه في سكوت ويسلم الراية للي وراه... وكأنهم حاكم واحد أبدي...

- ده واحد يا فندم... والتاني؟

صمت السيد لثوان، ثم التفت في بطء إلى فخر الدين... يعلم الأخير معنى تلك النظرة في عيني السيد... لقد سأل فخر الدين... ولا يسأل أحد السيد عن مبتغاه أو مقصده...

- أ... أ.. كنت عايز أفرّج جنابك على فيديو ماشي مع الشباب من كام ساعة... صوروه في التحرير وملحقناش ندخله مع الفيديوهات التانية...

يثير فضول السيد كل ما يدور بين الشباب... اهتماماتهم... مخاوفهم...

يجلس فريق تحت إمرته أمام شبكات التواصل الاجتماعي ومختلف القنوات... يكتبون التقارير اليومية مرفقة بأيه تسجيلات يرونها ملفتة أو مثيرة للجدل...

من وسائل حصوله على تلك المعلومات هي القناة الإخبارية الشهيرة والتي يمتلكها اسمًا فقط أحد أفراد الحاشية يحمل جنسية دولة من دول شبه الجزيرة العربية...

انعكست أضواء الفيديو على عينيه وتقاسيم وجهه الحادة... كعادته أخذ يعبث في لحيته المنمقة القصيرة ويعقد حاجبيه الكثيفين...

أوقف فخر الدين الفيديو عند لقطة بعينها واستخدم خاصية التكبير

الفائق وتنقية الصورة فظهر وجه أسمر مجعد الشعر، ينزف صاحبه من عدة مواضع تحت قميصه الممزق...

وضوء ذهبي باهت ينبعث من فتحات ملابسه المهلهلة...

- انعكاس ضوء؟

- ممكن... مفيش تفسير تاني...

- الشباب بيعلقوا بإيه؟

- أكترهم عقلاني وبيقول انعكاس ضوء... في منهم بيقولوا إنه... إحم... يعني... قوة علوية...

ابتسم السيد في سخرية وأردف بالكلمة التي يتحاشون ذكرها هي وشبيهاتها أمامه...

- ملاك؟ معونة إلهية! ربهم باعتلهم مساعدة على هيئة شاب على قده بيتضرب وهدومه تتقطع... بس إيه... بينور! اللي بينور موضته خلصت من التسعينات!

ضحك السيد في افتعال فتراجع فخر الدين في كرسيه مغلقًا شاشة الكمبيوتر المحمول وقد غزاه الخوف من انفعالات سيده غير المستقرة دومًا...

ظل يضحك بينما تراقصت الأنوار لحظات... ظلام غير مرئي حل مكانها رغم استمرار سطوعها...

يحدث ذلك كثيرًا...

ومن بعيد دوت تواشيح الفجر...

انقطعت ضحكة السيد تدريجيًا ثم بلا مبالاة، أعاد صوت الموسيقى ليصدح في الأرجاء... مد يده لفخر الدين دون تعبير...

- هات ده واتفضل إنت...

ارتاح فخر الدين لدى إعفاءه من مجالسة سيده أكثر خصيصًا في تلك الحالة... يميل السيد إلى العنف في تلك الأحوال...

خرج وأغلق باب الجناح خلفه... وقف يلصق ظهره بالباب ويلهث... ثقلًا عظيمًا يجثم على صدره... علم من آباءه عن فترات متشابهة مروا بها وأودت إلى انتحار بعض منهم تحت وطأة الاكتئاب...

يعلم منذ وصولهم إلى مصر أن تلك الفترات المظلمة المقبضة قادمة لا محالة... يتحسس موضع قلبه ثم يهرول في الطرقات باحثًا عن أقرب مقعد ويتهاوى فوقه...

يخضعون جميعًا لفحص طبي دقيق دوريًا ولا يسمح السيد بمرض أحدهم...

السيد طبيب غير معلن، يمتلك تحت إمرته آخر ما توصل إليه العلم من علاجات سواء تجريبية أو معروفة.. أو مازالت في علم غيب البشر...

السيد مغرم بالحياة غرامه بالموت...

لايزال منظم ضربات قلب فخر الدين يعمل بدقة متناهية... سينجو اليوم كما نجا مما رآه من قبل...

لكنه لا يعلم حقًا مدى كفاءة أي علاج مع الظلام المتسلل إلى الأنفس، الهابط من أعلى بقعة في القاهرة إلى سكانها الغافلين...

* * *

لم يجد خالد مفرًّا من الذهاب إلى عمله في اليوم التالي...

متأففًا متغضبًا يجلس تحت سحابة الدخان دائمة الانعقاد في سماء الغرفة...

لأول مرة يشعر فعلًا بتفاهة ما يقوم بعمله...

لولا احتياجه للمال لاغتصب باب حجرة السيد مؤيد وركله في وجهه دون كلمة أخرى...

رجل بغيض يظن أن الحياة ستتوقف إن تأخر خالد عن كتابة فوازيره يومًا واحدًا...

يومًا واحدًا من الانقطاع عن التفاهات يساوي خمسين جنيهًا!

ثلاثة أيام تعني فصلًا نهائيًا من العمل!

لاتزال أصوات القوم في الميدان تحتل خلفية عقله... لاتزال الكتابات على ظهره تنتهك حرمة تعقله وتدفعه للانتحار عارًا وخزيًا...

شهادة مرضية موقعة من إمام هي ما أنقذت وظيفته، لكنها لم تنقذ احتقاره المتزايد لما تحويه تلك القناة الشائهة المشوَّهة...

ولا تزال أم خالد رهن إشارة للعبور إلى عالم آخر لن يعود منه أحد...

((غسيل كلوي... هي بالضبط بديل أهبل لكلمة النهاية الصريحة عند الناس اللي زينا... الفشل الكلوي عند الغلابة يعني وفر فلوسك للكفن والحق اسلف للخرجة...))

تدحرجت كرة صوفية من فوق المنحدر وجمعت في طريقها إلى الهاوية كافة أشكال الأشواك... ما الذي حدث لبدء ذلك التفاعل المتسلسل الأليم من الأحداث المؤسفة في يوم واحد؟

يرن جرس الهاتف الداخلي فيرفع السماعة وهو لا يكف عن حك جسده رغم حقنة الكينولاج التي أعطاها له إمام مع أول صيدلية تفتح عينيها المعدنيتين صباحًا...

- خالد... إنت كويس؟

- كويس يا ماري... حادثة صغيرة...

- طيب مستر مؤيد عايزك في مكتبه

- ليه؟ لو شفته قدامي ها....

- ياخالد الصبر... هم كلمتين خدهم في جنابك واسكت... هي أول مرة يعني؟

- مش أول مرة... بس شكلها هتكون آخر مرة...

أغلق الساعة وارتدى حذاءه منحنيًا الخف المريح إلى ما تحت المكتب... أقسم أن يهدم المعبد فوق رأسه هو نفسه لو تمادى الرجل في تقريعه وليكن ما يكون...

طرق الباب فسمع صوت السيد مؤيد الأجش من فرط المشروبات الروحية والسجائر يأمره بالدخول...

يهدر جهاز التكييف رغم برودة الجو... يخطر في ذهنه صورة مضحكة لتشابه مؤيد بالفيل في سُمك الجلد والملامح فيعض خده من الداخل مانعًا ضحكة عصبية متولدة من توتر مكبوت...

- خالد... أهلًا أهلًا... تعالى... أقعد...

لا يبدو أثر للسخرية في ترحيبه... إذن فماذا يريد...

يتقدم خالد حتى يصل إلى الكرسي أمام مكتب مؤيد الأبيض المزخرف...

- ما تقعد يا خالد أمال... هاتتكلم وإنت واقف؟

لم يحدث ان جلس أحد العاملين في القناة على تلك الكراسي الناصعة الكلاسيكية من قبل...

- أولًا... سلامتك... إيدك عاملة إيه النهاردة؟

- أحسن الحمد لله...

- كويس... اعتبر النهاردة أجازة من الشغل... والمرتب ماشي... ماتقلقش...

اتسعت عينا خالد في شك...

- ليه يا فندم؟

- إنت فاكر إننا ماتعرفش إيدك اتكسرت ليه؟ ده إنت بطل يا خالد... الفيديو مكسر الدنيا...

- فيديو؟

بدا اهتمام مؤيد متصنعًا إلى حد كبير، أثار ذلك ريبة خالد لكن تشتت أفكاره حال دون تركيزه فيما يجب أن يتكلم أو يسأل عنه...

- أنا إديت رقم تليفونك لمعدة برنامج «الحدث» في قناة المرحلة الفضائية... كانوا محتاجين يستضيفوك هناك علشان تتكلم عن تجربتك في الميدان...

- مفيش تجربة ولا حاجة... كل الحكاية...

- كل الحكاية أنا هحكيهالك وانت هاتحفظها وهاتقولها في البرنامج... دي فرصة يا خالد إن صوت الميدان يوصل من خلالك... مش دايمًا القصص الحقيقية بتكون مثيرة أو تصلح للكلام عنها في البرامج... ممكن توصل من شوية تغييرات في حكايتك رسالة قوية ومهمة... أهم من الحكاية الأصلية...

- هاكذب يعني؟

- ليه تكذب؟ إنت هتقول الحقيقة بس هنضيف شوية رسايل كده تقوي موقفك... ومش هاتقول حاجة غصب عنك ولا ضد مبادئك يا خالد... إنت مش دارس إعلام يا أخي!

قام مؤيد وربت على كتف خالد ثم اقتاده إلى باب الحجرة منهيًا أية مناقشات غير مجدية...

- إنت بطل يا خالد... اتصرف زي الأبطال...

ثم ابتسم وفتح الباب مشيرًا بكفه إلى الخارج...

- مع السلامة يا بطل!

* * *

- شركة داث Daath!... شركة ضخمة... تايكون يعني... ميزانيتها أكثر من ميزانية دولتين تلاتة... وحش شركات الادوية!

قلب خالد علبة الدالوكساسين بين يديه وكأنه يراها لأول مرة...

- طب والدوا ده... إيه ظروفه يعني؟ وحش؟

- معرفش عنه حاجة... بس أخشى إنه يكون دواء ممنوع من اللي بينزلوه في دول العالم الثالث من غير ما يدققوا في مضاره... مادة النورفلوكساسين بتستخدم في أضيق الحدود...

- إيه ده! هي سايبه ولا إيه؟؟

- تقريبًا! يعني لما أدوية تتمنع بأمر من منظمة الأغذية والأدوية وتفضل تنزل برضو في دول العالم الثالث... ده تسميه إيه؟

- هايستفيدوا إيه؟

- مصالح يا خالد... مصالح... إنت فاكرهم ملائكة رحمة بجد... دول حيتان بيتاجروا في أرواح الناس... القانون الوحيد اللي بيحكم رأس المال عندهم هو الكسب...

رشف إمام من القهوة الموضوعة أمامه على المنضدة المعدنية غير المستقرة في قهوة محمود بالقرب من جامعة القاهرة...

- بالنسبالي إنك تمسك بندقية آلي وتقتل في الناس أرحم من إنك توهمهم إنك بتعالجهم وإنت بتموتهم ببطء...

- طب... طب نثبت ده إزاي؟ ولا نعرف إن كلامك صح إزاي؟ بتقول دول حيتان...

سعل إمام وحرك كفه أمام وجهه لإبعاد دخان سجائر خالد ثم أردف...

- مبدئيًا، الحاجّة مش هتاخد الدوا ده تاني... وربنا يستر... ومبدئيًا برضو... أنا رجل صحتي على قدي وصدري بيشخلل لو ولعت شمعة حتى... فبلاش الورق المحروق ده في وشي..!

ابتسم خالد ووأد سيجارته تحت حذاءه... رشف ثمالة الشاي ثم شرد بعينيه إلى آخر الشارع...

- رحت فين؟ محمود بيحط نشارة خشب في الشاي بس مش لدرجة إنك تروح مني كده...

- إبدًا يا إمام... مش عارف أفكر... يعني بعد كل اللي حكيتهولك ده شايف إني لازم أبقا رايق...

- طب الحاجّة وإن شاء الله خير وهاتتحسن بإذن الله... موضوع جلدك ده فإحنا اتأكدنا من صورة الدم وتحاليل الحساسية إنها أرتيكاريا... ناخد بس عينة من ضهرك بليل كده نشوف آلية الطفح الجلدي

وأكتبلك دوا مناسب... موضوع الكلمات دي اللي معرفش لها تفسير الحقيقة... الضغط النفسي اللي عليك ممكن... إحم... أعرف طبيب نفسي ممتاز ممكن تحكي معاه شوية...

- ليه؟ إنت فاكرني زي الست اللي حكيتلي عنها؟ إنت شفت الكتابة بتتحرك قدامك يا إمام...

- مقصدش يا خالد والله... قصدي تتكلم معاه فالضغط النفسي عندك يقل...

((.. وتبطل تحفر على جسمك كلام... رغم إني شفت بعيني بس مش هخيب أمل الأسيوطي فيا... هخليني مع المنطق لحد الآخر..))

- .. أما مسألة البرنامج، أنا بقول تروح وتشوف عايزينك تقول إيه... هو مش قالك محدش هايجبرك على حاجة؟

نظر له خالد مبتسمًا في سخرية...

- لا يا شيخ؟ تفتكر؟ ما هو ده اللي بيقولوه ولاد الجزمة في السينما... مش هانجبرك على حاجة وهم حاطين السيف على رقابينا...

- مش للدرجادي... روح بس وشوف هايقولولك إيه...

رن هاتف خالد المحمول فأخرجه ونظر فيه بتعمق...

- تلاقيها معدة البرامج... آلو...

- آلو... أستاذ خالد تحية؟

- أيوة أنا... أهلًا بيكي...

هز خالد رأسه ناظرًا لإمام فرفع إمام سبابته مشجعًا...

- كنت عايزة أشكرك جدًا على اللي حصل في الميدان...

- على إيه؟ دي صدفة يعني...

- لا بجد... إنت أنقذتني...

- أنا؟! كنتم محتاجيني أوي كده!

سمع صوت ضحكة متوترة ثم ساد الصمت...

- طيب... حضرتك مش هاتحددي ميعاد نتقابل؟

- نتقابل؟؟

- أمال هانتكلم في التليفون بس؟ مش هانتقابل؟

- لا ما ينفعش... إنت فهمت غلط... أنا بس عايزة أشكرك... بس...

- مش فاهم حاجة؟ شكرًا يا ستي... وبعدين؟!

قلب خالد كفيه في عدم فهم فهمس إمام «بتقول إيه؟»

- طيب يا آنسة... واضح إنكم بتشتغلوني... أنا قلت كده برضو...

- بنشتغلك إيه بس؟ إنت بتكلمني كده ليه؟

- إقفلي يا بت إنتي... مش فايقلكم...

وأغلق الخط في عصبية...

- ولاد الكلب هايتسلوا عليا... وديني لابلعه الجزمة إبن...

- استنى بس... إيه؟

رن الهاتف مرة أخرى برقم مختلف...

- هطلع عينها لو هي تاني... آلو!

- أستاذ خالد تحية؟

- لسه ماالحقتش أغيّر اسمي... أفندم...

- أفندم؟ معاك علا الزيني من قناة المرحلة الفضائية...

تنبه خالد لاختلاف الصوت... اعتذر واستكمل المكالمة سريعًا على وعد باللقاء في اليوم التالي...

- أمال مين اللي اتصلت الأول؟؟؟

- هي قالتلك إيه بالضبط؟!

- قالتلي... إمام... ناولني بالكوباية على نافوخي... دي البنت بتاعة الميدان!

- طب إلحق كلمها بقا اعتذر لها!

ابتسم خالد في مرارة... أعاد النظر إلى رقمها من جديد ثم استدعى وجهها الممتلئ البريء من ذاكرته القريبة...

شعور منعش لا يدري كنهه يتسرب إلى الجحيم المستعر فيه...

هز إمام رأسه مبتسمًا... ربت على كتفه فأفاق خالد من أفكاره...

- كلمها يا خالد... في الأيام الضلمة امسك في أي خيط نور وماتستقلش بيه...

* * *

لم يكن ذلك هو التسجيل الوحيد الذي رآه السيد يومها... فقط هو جاء متأخرًا...

ظل جالسًا في مكتبه في الظلام، يلف مسبحته العجيبة ذات العشرة أحجار

بين أنامله الطويلة المنمقة وشرد في اللقطة المكبّرة للشاب الأسمر...

ما رآه في حياته الطويلة يسمح له بتقبل أغرب الأشياء... ما حدث له شخصيًا هو أغرب شيء رآه أو سمع عنه في تاريخ البشر...

لكن الشاب رغم عدم وضوح الصورة، جذب انتباهه بشكل خاص...

لا يعلم السبب فهو أول بشري يجذب انتباه السيد...

ومع أول ضوء للصباح كانت جميع المعلومات عن الشاب على مكتبه...

في عالم القرية الصغيرة، لم يكن من الصعب معرفة من يكون...

رغم انقطاع خدمة الإنترنت إلا أن بعض الشباب وجد حلولًا فردية للتواصل... ومع تلك الحلول سيجدون خيطًا لمعرفة كل شيء عن الشاب في الفيديو...

والباقي شديد السهولة على من هم في قوة الحاشية ونفوذها...

لكن طلب السيد بخصوصه كان محددًا...

وهو طلب قيد التنفيذ...

* * *

ذات الطيف يزوره مرة أخرى...

وفي كل مرة لا يعلم حقًّا أكان زائره حقيقيًّا أم حلمًا... أكانت الأفكار التي زرعها في رأسه هي فعلًا مزروعة أم حديث نفس وطموح خاص...

وعده الطيف الوسيم طويل الشعر - بملك مصر... وعده بكرسي المتحكم في كل شيء...

وعده بخلافة قديمة تداعب أحلامه هو وأتباعه...

وعده بدرع لا يستطيع المصريون تخطيه مهما صدر من حامله...

وعده بدرع الدين... وخلافة المسلمين...

لم تكن فكرة بعيدة عن خياله، فقد تربى الرجل على السمع والطاعة وعلى فكرة الخلافة التي لم تكن فكرة بعيدة عن ثقافته... تربى على رؤى مماثلة تكلم عنها إمامهم...

لا وجود للحدود ولا للانتماءات ولا للأوطان... وعده كان بأن يركع العالم عند أقدام الخليفة في بابه العالي...

وحين رحل الطيف... فرك الرجل عينيه ومرر يده عدة مرات على لحيته البيضاء في محاولة منه لاستعادة توازنه...

الفرصة قد سنحت لهم الآن...

ففي زيارات الطيف المتكررة له ولغيره ممن تاقت أنفسهم للكرسي، وافقت أهواءهم أحاديثه الغامضة عن إنهاك الدولة داخليًا وخارجيًا كي يسهل إسقاطها لقمة سائغة للآكلين المسمين باسم الله أوله وآخره!

على جانب آخر، لم يترك الطيف المهيب مخيلات الرجال حليقي الوجوه خلف مكاتبهم ومكتباتهم...

أطل من بين الأسطر يلوي أعناق الحقائق ويزخرف الكلمات ببهاء الحكم...

بثّ كل منهم النية الخالصة لوجه الحرية وباسم الشعب، أن يفتتوا أحزابًا هشة مسلحة بسيوف السياسة والدهاء، بعضهم ضد بعض...

حرب من كلمات تعلو فيها أصوات الدين تارة وأصوات الدنيا تارة... مجرد كلمات فارغة تدوي وتصم... بلا أدنى تأثير أو نصر حقيقي...

يقوم الطيف برحلاته كلها في آن واحد... ثم يعود إلى مكمنه...

رغم قوته يشعر بمحدودية قدراته...

رغم نفاذه، فلا سيطرة له إلا على بذرة السلطة في النفوس والحيوان الشره الكامن فيها... يرويها بكلماته وزخرفها... تنبت فتحتل ظلال الحيادية والعقل بأشواكها...

يرى معاول الهدم يتم شحذها...

وقريبًا سيثأر من تلك الأرض خائنة ملوكها وأسيادها...

* * *

صدمة غير متوقعة لازالت تؤلم قلب خلود... لا تعرف ما الذي قالته في المكالمة وتسبب في ردة فعل خالد الغريبة...

هل ظن مكالمتها إعلانًا رخيصًا عن نفسها؟ ولم ظن ذلك؟

ظلت تعيد مشاهدة الفيديو الذي سجلته لدى إذاعته على قناة إخبارية شهيرة مرات ومرات، شاردة...

تتحاشى النظر إلى انعكاس جسدها على الشاشة... تحاول أن تستبعد سمعتها من قائمة المشبوهين في قضية قتل كرامتها هاتفيًا...

لا يزال المعطف معلق على الشماعة العمودية الخشبية في ركن حجرتها... ولا زالت تتعجب وجود طبق من الميلامين المكسور في جيبه... إحساس غريب دافئ برودادها كلما فكرت في الطبق المكسور...

تصاعدت موسيقى ريميسكي كورزاكوف «شهرزاد» من هاتفها المحمول...

رقم خالد يضيء الشاشة...

لوهلة قررت ألا ترد... لكن وهنها النفسي دفعها دفعًا للرد ولو لمرة أخيرة على سبيل الفضول...

((.. يمكن كان مش قصده.. يمكن هايعتذر...))

((... يمكن يزودها ويطلب يقابلك برضو... شايفك واقعة ومحدش بيعبرك أكيد وهيستغلك...))

- آلو...

- أنا آسف... كنت... كنت فاكرك حد تاني والله... حقك عليا...

((... اعتذر.. اعتذررر.. اعتذررررررر..!!!!!))

- و لا يهمك...

((.. كان فاكرني واحدة تانية وعايز ياخد منها ميعاد... شكله زي بقيتهم... كل الرجالة واحد...))

- آسف يا آنسة... حضرتك اسمك إيه؟

- مفيش أسف ولا حاجة... حصل خير، كنت عايزة أشكرك بس و... وهبعتلك خالي بالجاكيت بتاعك إن شاء الله... أبعتهولك الشغل؟

- ما تتعبوش نفسكم... أنا آجي لأقرب مكان لك وآخده...

((.. خالها؟ أيه اللي دخل خالها في الموضوع؟... مش هشوفها تاني ولا إيه؟..))

((.. هرفض مرة كمان ولو صمم... هاقابله اديله الجاكيت وأمشي على طول!..))

- حضرتك بس قولي أبعتلك الجاكيت في أي عنوان... على العنوان اللي في الكارت؟

- لا... أنا ممكن آخد أجازة كم يوم من الشغل... طيب... إنت ساكنة فين وأنا هاجي أقرب مكان لك...

((.. أقابله في الشغل عندي وخلاص.. آه... مكان عام وعادي أهو..))

- أنا ممكن أقابلك في المجلة بكرة، مجلة إمباور وومن... في شارع الأنتيكخانة...

- طيب لما أوصل أسأل على مين؟

- لما توصل كلمني وهنزلك!

((.. هو اسمها مش قد كده ولا إيه؟ ليه مش راضية تقولي اسمها؟؟))

اتفقا على الساعة الثانية ظهرًا وأغلقا الخط، كل منهما في محاول منه لقطع حبل الود من ناحيته... كل منهما يخشى رفض الآخر...

ثوان ورن هاتف خالد مرة أخرى...

- خالد... تجيلي ولا أجيلك؟

- يا إمام إحنا مش كنا سوا ساعة ما أخدت العينة من ضهري؟ وأنا لسه راجع حالًا من المستشفى، مش قادر أنزل... تعالى إنت بس ساعة كده... تمام؟

- تمام...

جاءت رقية بطبق هائل من الشطائر وكوبي شاي ثم تربعت جالسة جوار خالد تداعب شعرها المجعد الطويل...

لازال الراديو هو المفضل عندها... صوت التشويش الاستاتيكي يبعث في نفسها الحنين للإفطار الذي تعده أمها...

يذكرها برائحة الطعمية بالسمسم والكزبرة...

يذكرها بدفء لن يعود...

- وشك منور... كلمتها؟

- وشي منور... والله أنا كلي بنور دلوقتي...

((.. يادوب إمام بيحط المشرط على ضهري واتعمى من النور.. الرجل ده بطل إنه ما رقعش بالصوت الحياني!..))

- نعم؟

- لا أبدًا... آه كلمتها... وفهمتها اللخبطة اللي حصلت وهاقبلها بكره تديني الجاكيت...

- شكلها إيه يا خوليو هه؟

- و الله إنت رايقة... قومي نشفي الأوضة اللي بتمسحيها دي والبسي إمام جايلي...

تنظيف غرفة أم خالد كان من أثقل المهام عليها اليوم... تركتها للنهاية، هي فقط لم ترد أن تنظفها وهي خالية... لم ترد أن تدخلها دون صوت أم خالد، تتابعها من فوق سريرها...

((.. الله يسامح قله العافية... مكنتش بقعد بابنتي زمان... تعبتك معايا هتلاحقي على بيتك ولا على هنا...))

- الله يسامح قلة العافية، وقلة الفلوس...

ركعت على ركبتيها تحاول أن تصل إلى ما تحت خزانة الملابس العتيقة رباعية القوائم...

تعلم أن القوائم تتأرجح منذ زمن لكنها لم تسقط أبدًا...

سوى الآن...

فردت رقية ظهرها قبل أن تخرج بالكامل من تحت الخزانة فارتطمت بقاعها... تأرجحت الخزانة للأمام ببطء شديد ثم هوت فوق رقية...

* * *

لم تكن شركة «داات» للأدوية هي الشركة الوحيدة التي تقوم باستغلال الدول الفقيرة من خلال إجراء تجارب على مواطني هذه الدول قبل طرح أي دواء جديد في الأسواق، لأنها تجد هناك مرضى يمكن أن يقبلوا الاختبار أو يقوموا بالاختبار دون وعي أو إدراك، ففي جنوب إفريقيا، تطل مختبرات بوريخر اينغلهايم المتوهجة... وفي الهند في مبنى نوفارتيس الناصع الذي يجري بناؤه بجوار أحياء بومباي الفقيرة يقوم باحثون باختبار وتطوير أدوية جديدة... كما أنشأت شركات فايزر وجلاكسو سميث كلاين وأسترازينيكا مراكز مهمة للأبحاث الطبية في الهند.

أدار خالد كلمات إمام في ذهنه وهو يحدق في مبلغ الخمسين ألف جنيه الموضوعة أمامهم بجوار الشطائر التي لم يأكلها خالد...

سقطت الخزانة الهشة فوق رقية إلا أنها لم تصبها بأذى... منع السرير الخزانة من إكمال سقوطها فحمى رقية، إلا أن سيل الملابس والأوراق المالية المنهمر فوقها أصابها بأكثر من مجرد إصابة جسدية...

- بس إنتم متأكدين إن الحاجّة مكانش عندها دهب باعته مثلًا ولا حتة أرض...

- دي أمنا يا دكتور إمام... أبونا الله يرحمه مات وهو مهندس زراعي صغير منعوا ترقيته وزيادة مرتبة لإنه أكتر من مرة رفض رشوة المفتشين من مخزون المبيدات والمقويات اللي عنده... الرجل كان ماشي في السليم

وعلشان كده عاش على قده ومات على قده... مفيش إلا معاشه المبكر وده ملاليم...

أمسك خالد علبة الدالوكساسين وحدق فيها صامتًا لعدة دقائق ثم ضرب بها الحائط أمامه غاضبًا...

- أنا خلاص... مش قادر أفكر... كفاية بقا... يعني عايز تقولي إن أمي أخدت المبلغ ده علشان قبلت يجربوا عليها دوا؟

- هي يمكن أخدت المبلغ علشان تمضيلهم على إقرار بالموافقة على التجربة... بس في حاجة مش راكبة... لو دوا تجريبي مكانش هايبقاله علبة ولا كنت هتلاقيه في صيدلية... بس أرجع وأقول إن شركة دااث سمعتها سابقاها في موضوع التجارب ده... ده اللي شككني.. لازم تدور أكتر في أدويتها...

- علشان كده ماكانتش راضية تاخد الدوا آخر مرة... كنت فاكرها عايزة توفر تمنه... كانت التجربة خلصت والتمن اتقبض...

- اصبر بس يا خالد... موضوع الدوا التجريبي ده مش راكب أصلًا... فكر في طريقة تانية تكون جابت منها الفلوس...

أجهشت رقية بالبكاء الصامت... لم يجرؤ خالد على الاقتراب منها... هو لم يحمها ويحمي أم خالد كالرجال... هو رجل ناقص باعت أمه كلاها كي تطعمه، كي تنزل من على كاهليه عبء مسؤوليته...

((.. شاور إنت بس يابني وماتشيلش هم... الشقة أهه وأنا عايشة النهاردة والله أعلم بكره فين... ومصاريف الجواز ماتقلقش... تتدبر... يابني هتفضل قاعد جنبي على طول...))

- أم خالد باعت اللي فضل من صحتها علشان تجوزني؟؟!!

- إهدا يا خالد... ما إحنا برضو مش متأكدين من الموضوع ده... كل اللي قدرت أعرفه إن تركيب الدوا ده داخل فيه نورفلوكساسين زي ما هو مكتوب على العلبة مع مركبات تانية... الحاجّة عندها حساسية منه... مش حساسية قوية لإن التعب مابانش عليها من الأول... زي ما عرفت من التحاليل إن الموضوع بدأ معاها بالتهاب مسالك بولية معقد... وانتهى بفشل كلوي مزمن والتهاب المفاصل... كان سهل للدكتور اللي بيعالجها يغير لأي نوع مضاد حيوي تاني... المركب ده بيستخدموه تحت قيد شديد في معظم دول الغرب... في ناس بتموت منه... احمد ربنا إننا لحقناها...

- بس ليه؟؟ ليه يعملوا فينا كده يا دكتور؟ ذنبنا إيه؟؟

خفض إمام رأسه ومسح على ماتبقى من شعره... صمت لأن الصمت خير من حقيقة مؤلمة هم في غنى عن سماعها...

نحن أقل مرتبة من بشر العالم الأول... نحن قردة تجارب تبيع أجسادها مقابل المال والطعام...

في أغلب مجالات الممارسة الطبية والبحث يبقى غياب القوانين أمرًا فاضحًا فلا الطب ولا التعليم يمكن لهما أن يتفاخرا بأدبيات المهنة.

ففي السبعينيات جرى توزيع دواء غير مرخص لمعالجة الحمى «الكيناكرين» في الهند على مئات الآلاف من النساء الأميات وقد أصبن جميعًا بالعقم... وفي منتصف الثمانينيات جرى تجريب دواء لمنع الحمل يحقن في الدم وسحب من السوق بعد اكتشاف أنه يسبب ظهور أورام عند الفئران ـ على ريفيات صرحن فيما بعد بعدم معرفتهن بمشاركتهن في الاختبار. وفي نهاية السبعينيات أوقف بعض الباحثين في القطاع العام ـ من تلقاء أنفسهم ـ العلاج الذي كانت تستفيد منه نساء أميات مصابات بندبات تنبئ بالسرطان على

مستوى الفقرات العنقية، بهدف دراسة تطور المرض، وبدا فيما بعد - على نحو بديهي - أن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا على علم ولم يقدموا أي موافقة على هذا الاختبار، الذي يُذكر بدراسة «توسكيجي» الشهيرة. وفي عام ٢٠٠١ في ولاية كيرلا تم العثور على أحد الباحثين من جامعة جونز هوبكنز وهو يقوم بتجريب دواء اختباري مضاد للسرطان على مرضى مصابين بالسرطان قبل أن يُعلن أن هذا الدواء لا يؤذي الحيوانات... وفي عام ٢٠٠٣ تم إعطاء دواء تجريبي مضاد للسرطان لأكثر من ٤٠٠ امرأة كن يسعين لتحسين خصوبتهن وكان الدواء سامًّا للجنين... ومع أن الصحافة تناقلت هذه الفضائح إلا أن أيًّا منها لم تؤد إلى إجراء قضائي حماية للأشخاص المعنيين... فهم مجرد قردة من العالم الثالث مخلوقون لخدمة صحة الأسياد...

- رد علينا يا دكتور... يعني الناس دي مفيش حد يقفلها؟ خلاص بقينا رخاص للدرجادي؟؟

- المصنعين للأدوية دي مش ملزمين للأسف بالتصريح عن التجارب اللي بيعملوها في بلادنا... الحاجة الوحيدة المفروضة عليهم هو الالتزام بإعلان هلسنكي والقوانين المحلية... في الغالب التجارب دي بتفشل وبيختفوا من غير ما يسيبوا أي أثر وراهم... ممكن يسيبوا كبش فدا من الدكاترة المحليين وبرضو بيطلعوه منها مع كم مليون في حسابه...

- طب وقوانين البلد؟ مفيش حد بيسأل؟

- بلد إيه بقا وقوانين إيه... ما بيقا واصلهم نصيبهم من التورتة أول ناس...

دون أيه مقدمات، ركل خالد المنضدة فتناثرت النقود والشطائر على الأرض...

- اخرسوا بقا... كفاية... ملعون أبو الفلوس لأبو الأكل لأبو أسيادنا اللي فوق... قومي روَّحي يا رقية... سيبوني لوحدي...

تركت رقية فقام إمام محني الرأس يتحسس طريقه للخارج...

لم يغضب من طرد خالد لهما، فقد كان يشعر ويقدر تمامًا ما يمر به...

يشعر بظلام يجثو على الأنفاس... يشعر بيأس غريب ليس من طبعه...

يمشي في الشارع الصغير الهادئ متوجهًا إلى بيته... يرى النور المتراقص الباهت فوق لافتة تحمل اسمه...

دكتور إمام أبو زهرة...

لم يكن مثاليًا... لم يكن سوى شخص أخطأ دون قصد فظل يكفر عن ذنبه السابق وذنوبه القادمة دون راحة...

ماتت صفية زوجته الريفية الحسناء بين يديه ولم يستطع علمه ولا منطقه أن يحميها...

ماتت صفية الشابة بكبد متليف أثر تركيبات الأعشاب التي ظنت أنها كانت تداويها من التهاب المرارة وحصواتها...

كانت تأخذها سرًّا بينما تعيد شرائط الأدوية التي كان يحضرها لها إلى الصيدلية مرة أخرى وتشتري بثمنها وجبات فقيرات تسد جوع الزوجين الشابين وطفلتها الصغيرة...

لم تصدق صفية أن الوصفات «من السنة النبوية» هي ما أطاحت بكبدها..

((... *مش السنة يا حبيبتي اللي غلط... لا إله إلا الله محمد رسول الله... لا ينطق عن الهوى... إنما الحمير تجار الدين هم اللي بيكنسوا أرضية العطار ويعبوها في أكياس ويكتبوا عليها علاج من السنة...*))

تجار الدين وتجار الأدوية اجتمعا اليوم في عقله عازمين على وأد النوم والراحة...

يصممون على فصل العقل عن الدين.. وفصل الرحمة عن المداولة..

بالصفية المسكينة...

بالرفعة البائسة...

يستلقي على الأريكة ويغمض عينيه... يخرجه خالد رويدًا رويدًا من قوقعته المغلقة... حبس اختياري دام خمس سنوات وسط صناديق الكتب المتربة المتراصة قبالة الحوائط...

شعور بالذنب لعجزه، لفقره...

شعور بالذنب تجاه دين لم يستطع الدفاع عنه... تجاه علم لم يمثله كعالم محترم...

تجاه زوجة لم يقدر على الوفاء بعهده تجاهها...

تجاه طفلة يخشى عليها من نفسه... من سلبيته وضعفه...

يرفع سماعة الهاتف ويطلب رقم والدي زوجته الراحلة في المنصورة...

- آلو... إزيك يا إمام يا بني... خير... الساعة عدت اتناشر...؟؟

- أبدًا يا عمي... جيتوا على بالي...

- فيك الخير يا ابني...

- جنة صاحية؟

- لا يابني... في عز النوم...

تنهد إمام واعتصر السماعة...

- ممكن تصحيهالي يا عمي؟ أسمع صوتها بس...

صوت ملائكي صغير هو ما يحتاجه... هو الدفعة الصغيرة اللازمة لإدارة تروس حياته الصدئة...

- بابا... إزيك... ليه مش نمت؟

- جنة حبيبتي... وحشتيني...

- وإنت كمان... جاي إمتى؟

- قريب يا حبيبتي... جنة...

- نعم...

- بتحبيني؟

- بحبك أد الدنيا وأد الشوكولاتة اللي في المحل واللبان والبيبسي والحاجات كلها!... بابا عايزة بالونة صفرا!

براءة أدمت مقلتيه دمعًا ساخنًا... حبًا أصيلًا يحتاج للعطاء احتياجه للتلقي...

يسمع تروس حياته تئن...

يهتز ضحكًا وبكاءً في آن واحد...

ستدور الحياة... وستكسر الحوائط والجدران...

لكنه لن يكون وحيدًا في الظلام...

* * *

- الكلمات الثالثة -

- أهلًا بكم مرة أخرى مشاهدي برنامج الحدث... ضيفي دلوقتي شاب... زيكم كده... وإحنا القناة الوحيدة اللي بتستضيف الشباب من ميدان التحرير على فكرة.. كلكم سمعتم إن ما كنتوش شفتم الفيديو بتاعه في ميدان التحرير... ناس قالوا عليه ملاك... ناس قالوا عليه بشر... أنا بقول لا... هو الحقيقة «بطل»... معنا في الاستوديو خالد تحية...

يعمي الكشاف الضخم عيني خالد... تتسارع دقات قلبه وهو جالس بجوار الكاتب الصحفي والإعلامي الكبير محمد النابلسي... قصير القامة ثاقب النظرات من خلف نظارته الطبية المستطيلة...

سليط اللسان متهكم دون رادع... هو أول من يتم القبض عليه والتحقيق معه من الإعلاميين على مر العشر سنوات السابقة... أيضًا هو أول المفرجين عنهم من الإعلاميين سابقي الذكر...

توقف المشاهدين عن التساؤل عن أسباب اعتقاله وأسباب خروجه... فقد مصداقيته على مر الأعوام، لكن أسلوبه الساخر البسيط وتفاعل ملامحه

مع الأحداث بشكل شبه كوميدي ثبت له جمهورًا متابعًا له لا متابعًا لما يذيع...

- خالد... ماتخافش... عارف الكشاف ده عامل زي بتاع التحقيقات اللي بيحطوه في وش المجرم علشان يعترف... بس إنت هنا في بيتك وسط إخواتك وأهلك اللي بيتفرجوا عليك... هه؟

يبتسم خالد ولا يعلق...

طوفان من الكلمات يجتاح عقله بشدة...

ما بين مد لكلمات وجذرها، لاحظ وتيرة معينة لهجوم الكلمات... كلما زاد ضغطه النفسي... كلما زادت حكة جسده وظهور الكلمات عليه... وكلما اخترق وعيه أحاديث نفس من حوله...

((.. اخلص بقا... أمال لو مكانش حافظ اللي هايقوله..))

((أستاذ محمد... اسأله أي سؤال خليه يجاوب...))

((.. ماهو من أول الثورة وأنا بستضيف في عيال... وكلهم بيتلخبطوا كده... إيه الجديد..))

- خالد... احكيلنا بقا إيه اللي حصل في اليوم ده...

- أبدًا... كنت... نزلت التحرير وكده بعد ما شفت الدعوات على فيس بوك... مكنتش أعرف حد معين بشكل شخصي... كلنا عرفنا بعض من على الفيس...

((.. كنت خايف أوي.. كنت هموت وأنا ما بين إني أكمل علشان أجيب الدوا ولا أهرب من أصوات المظاهرات وأطلع عيل...))

- مكناش خايفين... كنا نازلين نطالب بحق مصر علينا بعد ما سكتنا كل الوقت ده وسيبناها بتقع...

((.. كل الوقت ده وأنا سايبها بتقع وأقول بكره تخف... هجيبلها الدوا وتخف... مكانتش بتخف لإن الدوا... هاهاهاها... الدواء فيه سم قاتل... هاهاهاها))

- كانت في طاقة غريبة جوانا... كأننا إحنا مش إحنا... كنا بنهتف وصوتنا بيرج الأرض... مانكرش إن الموقف خرج أحسن ما فينا...

((.. وكانت بتستغيث بيا... كنت ههرب... مكانش لازم أسيب رجلي تيجي في الفخ... بس لقيت مكان وشها، وش أختي... وحسيت فعلًا إني مش أنا... كنت خايف... بس اندفعت في اتجاه واحد وانا بحاول ما أفكرش مرتين... لو كنت فكرت كنت هربت...

أصوات الناس اللي كانت بتدخل في دماغي شتتتني ومنعتني إني أفكر في الهرب...))

- بصيت لقيت واحد بيتحرش ببنت... كلنا كنا واخدين بالنا من البنات اللي معانا علشان الزحمة... كلهم كانوا اخواتنا.. لقيت الشاب ده بيزودها وبيشدها من هدومها وشعرها فوقعت على الأرض...

- كان شكله إيه الشاب ده؟

- شكله مش مصري...

- إزاي يعني؟ أشقر مثلًا؟

- لا... بس مكانش مصري...

((كان مصري... وكلامه ولهجته مصرية... كان كلب وكنت جبان... وكان في مليون جدع غيرنا...))

- آه... ممكن يكون إسرائيلي مثلًا...

- معرفش...

((.. لما بقولوا إن كل اللي في الميدان ملايكة... أي حد هتبان حقيقته بعد كده من اللي كانوا هناك هيقدروا يقولوا كل اللي في الميدان كده... كلمة «كل» كبيرة أوي.......))

صمت خالد للحظات... يريد الهرب مرة أخرى... يهدمون الحائط فلن يجد بعد ذلك ما يحتمي بالسير جواره...

- طاردت المتحرش ده واتضربت وإيدي إنكسرت... لما دخلنا الميدان كلنا اتعاونا نضربه...

وكأن سيوفًا غير مرئية تطعن وتشق جلد ظهر خالد... تساقط العرق الغزير يغمر وجهه وهو يقاوم حك ظهره في المقعد الذي يجلس عليه...

توتر محمد النابلسي فلم يظهر ذلك على وجه الإعلامي المحنك...

ابتسم وربت على كتف خالد...

- موقف صعب فعلًا... الله يكون في عونكم الحقيقة... دي من المرات القليلة اللي بيثور فيها الشعب المصري بالشكل ده...

((.. أيوة... خاف واترعش يا خالد وخليك خايف قدامهم.. خليهم يعرفوا إن اللي هاينزل هايتضرب... واللي هاتنزل هاترجع بيتها بفضيحة...))

تداخلت أحاديث النفس من حول خالد فتزايد إحساسه بالألم... صمته بعث رسالة واضحة كي يطلب النابلسي فاصلًا...

- هانطلع فاصل أعزائي المشاهدين... والله مش عارف أقول إيه... كان الله في عون شبابنا وبناتنا... دقايق ونرجعلكم...

تململ العاملين خلف الكاميرات مستغلين الوقت المستقطع في الهمسات

الجانبية والتحديق في الضيف غريب الأطوار...

- أنا... مش قادر أكمل يا أستاذ محمد...

قطب محمد النابلسي وأشار للمعدة في غضب متهكم...

- ماتيجي يا أستاذة تشوفي الضيف... هاتوله ينسون ولا حاجة.. أجيبلك سندوتش؟!!

هرولت المعدة تجاه خالد وهمست من بين أسنانها...

- أستاذ خالد... كمل وقول اللي أستاذ مؤيد طلبه منك وخلاص... كلها عشر دقايق كمان والفقرة تخلص...

- بس اللي بقوله ده... كدب...

- لا والله؟؟ مكنتش عارف غير دلوقتي! وبعدين هو انت بتضر حد؟ إنت بتبين بطولة الشباب في الميدان...

- بس أنا مش بطل... اللي أنا عملته كان من غير تفكير...

- مفيش وقت للكلام ده... دي كدبة بيضا... قول الكلمتين وخلاص أرجوك... ياللا...

ابتسمت مشجعة ثم هرولت خلف الكاميرا مرة أخرى...

محمد النابلسي يرمقه في حنق من فوق إطار نظارته... التظاهر والازدواج مجسم ثلاثي الأبعاد يجلس على مقعد الإعلامي المحايد...

لحظات مرت ثم عاد البث مرة أخرى...

- رجعنالكم تاني مع البطل الشاب المصري... ابن الميدان... خالد تحية...

قولي يا خالد... كان في تحرش كتير في الميدان صح؟

- لا والله... ماشفتش غير الحالة دي...

- لا في... وصلنا أكتر من بلاغ... إنت شايف يا خالد إن الثورة دي عملت فوضى في البلد...

- ممكن أقول حاجة؟

- اتفضل... وما تخافش من أي حد... محدش يقدر يسكتنا تاني أبدًا...

((.. قول... لو اتمسكت هايخافوا ويسكتوا... لو سابوك كله هايتكلم والمحدش هياخد باله مين بيقول إيه... محدش هايسمع...))

- اللي حصل في الميدان مكانش ليا يد فيه... أنا كنت رايح الصيدلية صدفة وكنت...

- أيوة أيوة... كان في مصابين فعلًا والصيدلية دي الوحيدة اللي كانت فاتحة... نشوف كده الفيديو مع بعض...

يعرض التسجيل على شاشة العرض بينما يشير محمد النابلسي أثناء كلامه للمعدة كي تأتي سريعًا...

((.. زي ما إحنا شايفين خالد أهو... والمتحرش بيضربه بالسلاح الأبيض..))

- خالد... مكنتش عايزة أقولك كده... بس خليك فاكر الألف جنيه اللي إداهوملك أستاذ مؤيد... خليك فاكر شغلك عنده... وخليك فاكر كمان إنك مش لوحدك اللي هاتيجي وتتكلم هنا... لو سكت فإنت الخسران...

((.. ألف جنيه... من كلمتين كدب مش هايضروا حد... خمسين ألف

جنيه من قرصين دوا علشان أتجوز.. كفاية هبل بقا يا خالد وماتخسرش كل حاجة وتقعد تستنى أمك ولا أختك يصرفوا عليك...))

((.. كنت جبان... لا عمرك كنت زي اللي نزلوا الميدان ولا عمرك حسيت بيهم... طول عمرك مستني حد يجيبلك حقك... يقا إسكت وما تبوظش تعبهم بكلمتين وألف جنيه..))

((.. هم اللي مش حاسين بيا... أنا مش جبان... أنا كنت بس عايز أعيش... وكلامي مش هايأثر في اللي بيعملوه... أقولك... يستاهلوا... بتهورهم ده هنجوع ونموت في الشوارع ويرضو مبارك هايفضل قاعد...))

((.. هايروح مبارك وييجي مبارك... الحاكم مش هايتغير طول ما احنا مابنتغيرش... عايز حالك يتغير يا خالد؟؟ عايز أم خالد تقوم؟ عايز تبقا راجل... قول الحق ورزقك على اللي خلقك..))

- أستاذ محمد... الحكاية اللي قلتها أنا دي كدب... لو صدقتوها يمكن ما تضركوش... لكن كدبة مني على كدبة من غيري هتولع البلد بينا... مش أنا لوحدي اللي هاجي على الكرسي ده وأكدب... ومش مبارك بس اللي قعد على الكرسي الكبير وكدب... اللي جاي ألعن لو ما فوقناش لنفسنا!

تم قطع الإرسال مع بداية الجملة الثانية لخالد... قام محمد النابلسي وضرب الأوراق أمامه بيده...

- خرجوا البغل ده بره... جتكم الغم في خلقكم العكرة... امشي بره... وإنت... اطفي الكاميرا دي!

ارتبك المصور للحظات ثم أطفأ الكاميرا وشرع يرمقها في ذهول...

- فاكر نفسك بطل ياله بجد ولا إيه؟ فاكر مبارك ده بيلعب معاك في

الحارة؟ أمال لو مكنتش قابض وقابض إيه... ملاليم يا معفن... بتبيع ذمتك في الضلمة وجاي تتفرد علينا هنا...

التف العاملين حول النابلسي يهدئونه بينما تحلق رجلا أمن حول خالد يخرجونه من الاستوديو...

في الممر المظلم المؤدي للخارج... سقط خالد يتصبب عرقًا في الشتاء... ركع أحد رجلي الأمن على ركبتيه بجواره يحاول أن يفك عنه أزرار قميصه...

- مالك يا أستاذ... حاسس بإيه... صلي ع النبي... إيه بس اللي خلاك تترفز كده...

- أنا... أنا قلت إيه؟؟

- لا حول ولا قوة إلا بالله... تعالى يا أخي أوقفلك تاكسي...

- لا... مو... موبايلي أهو... اط.. اطلبلي... إم.......

وتهاوى خالد فاقد الوعي بين ذراعي رجل الأمن المذعور...

* * *

تعاون سائق التاكسي وإمام على وضع خالد على سرير الكشف في الحجرة... وما أن خرج السائق من باب الشقة حتى هرول إمام يفك ملابس خالد الملتصقة بالعرق على جسده...

مابين الوعي واليقظة... كان خالد يهلوس ويتحدث بأكثر من لهجة وطريقة وكأن مجموعة أشخاص يتحدثون في داخلة بصوته هو...

نقاشات وخلافات حول الشاب الذي أثار الإعلامي ذو الأعصاب الباردة محمد النابلسي...

اتسعت عينا إمام لدى مرئى جسد خالد الملتهب المزدحم بالكلمات

المزخرفة المتحركة ببطء كأنها أفاعٍ دقيقة ملتوية...

كلمات هي بالضبط ما يتمتم به خالد في هلوساته...

- خالد... خالد... سامعني... قوم معايا...

تحامل إمام على نفسه وحمل خالد المترنح إلى الحمام، وضعه في حوض الاستحمام وفتح صنبور المياه الباردة...

شهق خالد والماء الفاتر ينساب فوق جسده الملتهب المحمر... ضجة عالية في عقل خالد... ينبض صدغاه بالألم وتحتقن عيناه...

همسات عالية كالفحيح تصدر من الماء نفسه وصور متضاربة مختلطة لأناس لا يعرفهم يفعلون أشياء لم يميزها...

خرج خالد زاحفًا مذعورًا من حوض الاستحمام... أمسك في بنطال إمام متحاشيًا الانزلاق...

- اقفل المية... اقفل المية...

- استنى بس... حرارتك عالية وجسمك ملتهب... ثواني وهتهدا...

اتسعت عينا خالد المحمرتين وبصوت وحشي لم يصدر عنه إلا مرة واحدة من قبل منذ أيام...

- اقفل المية!

مد يده يغلق الصنبور حتى خلع مقبضه فألقاه بعيدًا ثم خطا خارجًا من الحوض، ثوان تبدلت فيها ملامحه إلى الملامح المستكينة المريضة لخالد... استند إلى كتف إمام الحائر وعلا صوت نشيجه...

- إمام... إيه اللي بيحصلي... أنا اتجننت صح؟ طب لو اتجننت... إيه اللي على جسمي ده؟ إيه ده؟؟

وقف إمام حائرًا مبتل الملابس لا يعي أي تشخيص منطقي لما رآه بعينيه... الهلاوس التي تنتاب خالد هي آخر ما يهمه الآن... لها عدة تفسيرات بناء على الظروف القاسية المفاجئة التي يمر بها الشاب وحقن الكينولاج ذاتها، ما أهمه هو تلك النقوش المتحركة...

فضوله العلمي لا يهدأ، لكن الذوق والآداب العامة تمنعه من طلب حجز خالد في حجرته وإجراء فحوصات أكثر تدقيقًا... على الأقل يريد أن يتأكد من وجود رابط بين الانفعال وظهور الكلمات... بين ظهور كلمات معينة ومواقف معينة...

كيف إن خدش الجلد نفسه يولد نورًا لم ير له مثيل من قبل...

وقوف التحاليل مكتوفة اليدين لا يعطي إلا تفسيرًا غير مقنع... أرتيكاريا عصبية!

((.. جابت التايهة!!..))

ظروف خالد وحالته النفسية لا تسمح بأكثر من التعاطف والحيرة...

ليلة طويلة قضاها خالد نائمًا في وضع جنيني على فراش إمام... يفحص إمام حرارته التي بدأت في الانخفاض مع الوقت، ويشاهد التلفاز...

حالة من الإنكار تصيب الجميع...

لا توجد ثورة... مبارك لن ينزل عن عرشه...

تضارب فيما تذيعه القنوات الحكومية والخاصة والأجنبية...

شيء أشبه بسقوط العجل وكثرة ذابحيه...

((.. بس مين العجل؟ مصر ولا مبارك؟؟.. ولا الشعب..))

شيء يجذب الجميع لأسفل رغم إرادته القوية للصعود...

خاطر جال بباله فابتسم... خالد مصاب بتسمم كلمات!

طفح جلدي وارتفاع في درجة الحرارة وهلاوس... سيكون أول من يصف حالة تسمم الكلمات في التاريخ...

ويرن هاتف خالد مرة أخرى...

* * *

لم يأت خالد لمقابلة خلود... ولم يتصل...

بعد إذاعة حلقة الحدث لم تجد خلود مبررًا أكبر لاتصالها بخالد... لم كذب ولم تراجع؟ المرض البادي على وجهه وجسده هو خير مبرر لعدم وفاءه بموعده...

((.. مفيش مبرر... الولد ده بيلعب بيكي... كفاية كده يا خلود...))

تمسك الهاتف بلا تفكير وتطلب الرقم عازمة على إنهاء الموقف تمامًا بلا عودة...

- آلو...
- آلو... أنا دكتور إمام صديق خالد... أنا آسف إني برد... بس هو تعبان شوية...
- آه... تعبان؟ كان باين عليه أوي في الحلقة... طيب هو كويس؟
- بيتحسن... دور برد بس تقيل شوية... هقوله إنك اتصلتي...

قامت وتحسست معطفه على المشجب...

خالد مريض... تقلت نبضات من قلبها البكر... هل هو الحب؟؟

تجلس إلى مكتبها وترمق عشاءها... تتقلص معدتها كلما رأت انعكاس صورتها...

تبعد الطعام وتبدأ في كتابة مقالتها اليومية بعد انقطاع دام عدة أيام عن مدونتها...

تكتب عن الجسد والروح... عن اغتصاب الروح وذبح الجسد بنظرات أو كلمات... أو بمجرد أفكار عبر الأثير...

تكتب وتمزج آلامها برؤية سياسية بسيطة...

دقائق لم تجد فيها وحيًا مناسبًا أو كلمات مطواعة لما تريد...

تمضي ما تبقى من ليلتها أمام شاشة الكومبيوتر... تشاهد تسجيل الحلقة على يوتيوب...

وقرب انتهاء الفيديو، ينحني خالد في غضبه فتظهر بشكل غير منطقي بلا سبب، بقعة مضيئة خافتة تطل من ياقة قميص خالد للمرة الثانية!

* * *

سرداب تحت قصر السيد مبطن بمادة عازلة للصوت... التكييف القوي يعمل بكل طاقته... ينقي الهواء من الروائح، إلا أن رائحة الدم تظل مألوفة طاغية لأنف السيد...

رائحة الدماء وأصوات المعذبين المنحبسة بين الجدران العازلة...

هيدز... مملكة الموت الإغريقية تحت الأرض...

مر وقت طويل منذ استخدم السرداب لآخر مرة... لا يحتاج لضحايا الآن...

كل فرد من الشعب أسفل المقطم هو مخطط لضحية في انتظار التنفيذ...

لم يعد يحتاج لضحايا إلا على سبيل العادة القديمة المحببة إلى نفسه، رغم تقدم الطب وجراحات التجميل، إلا أن طريقته القديمة الوحشية هي ما ترضي غروره وذاته الشيطانية...

تزول كل الندبات التي أصيب بها في حياته من على جسده، لتغوص أعمق في جذور نفسه...

في رحلاته حول العالم قديمًا، جمع شيئين فقط... النفائس النادرة، وأدوات التعذيب الأثرية...

يدور بمحاذاة حوائط السرداب الضخم، يذكر كل ألم مر على كل شخص جاء هنا... ويذكر مثواهم الأخير جيدًا...

ساحقة الرؤس... المخلعة... العذراء الحديدية... مهد يهوذا... الثور النحاسي... كرسي المهرطقين...

والخوازيق...

تلك الأخيرة تذكره برحلة قديمة إلى العراق... الخازوق ابتكار عراقي وحشي سرقه العثمانيون كغيره مما سرقوا، وعذبوا به العراقيين أنفسهم، حتى صارت أداة تعذيب عثمانية باسم الفتوحات الإسلامية...

لم تسيطر الأديان على البشر قدر سيطرة المتكلمين باسمها...

ولم يكفر البشر بالأديان إلا بسبب بشر ظنوا أنهم الموكلون بالحديث باسم الرب... وبالتعذيب بدلًا منه...

يدين لمحاكم التفتيش وتعذيبهم لليهود والمسلمين بالكثير... يدين لهم بحياته الثانية وبانتمائه للأرض الجديدة...

هو يعذب لكنه لا يعذب باسم الرب... هو فقط يعذب باسم نفسه...

ينزل «العميان» من الحاشية حاملين تابوتًا خشبيًّا من العاج والخشب، يوجهون بتوجيهات فخر الدين... يضعون التابوت في مكانه المرتفع في صدر السرداب...

«العميان» هم أفراد من الحاشية قام السيد باقتلاع أعينهم في الصغر بغرض خدمته في السرداب... يتحركون بشكل سلس للغاية فقد تعودوا على تلك الأعمال منذ زمن...

- تمام جنابك... أصرفهم؟

- اصرفهم... وامشي معاهم...

ينصرف الجمع ويتركون السيد مع التابوت...

((.. سيكون مكانك وسط انتقامي ممن تتلوك... سأنتقم منهم في كل من مبانيهم القذرة المتلونة... السرداب لتابعيهم والكلمات لهم... فليعم الظلام ليثير قبرك...))

* * *

يتجاذب خالد أطراف ثلاثة...

طرف يريد كشف الحقيقة...

طرف يريد استغلال الحقيقة...

وطرف يريد صنع زيف من الحقيقة...

أكثر من قناة تطلب لقاءً معه بشروطهم... يرفض... يعتذر... يتعلل ثم يغلق هاتفه تمامًا...

- الناس دي عايزة مني إيه؟ اشمعنى أنا؟؟

- ياخالد القنوات مليانة شباب زيك... بس أنا عمري ما كنت أتصور إنهم بالقذارة دي... اللي اسمه النابلسي ده كان مكشوف من قبل الثورة... بس الباقي؟ دي حتى القنوات اللي الواحد ماشكّش في مصداقيتها لحظة بانت على أصلها...

تفرغ إمام تمامًا منذ صباح اليوم لفحص خالد عن كثب وبكافة الوسائل المتاحة في عيادته... اعتذر عن حالة ولادة وحالة كسر في الساق وهي المرة الأولى منذ انتقاله إلى بين السرايات التي يعتذر فيها عن حالة لأهل الشارع...

- ساعات بحس إنك فرع للقصر العيني...
- أنا اللي ساعات بنسى إيه هو تخصصي أصلًا... الناس غلابة يا خالد... طالما حاجات بسيطة يبقا مش هايفرق التخصص...

تأمل خالد الصور التي يظهر فيها وشمه الغريب في الظلام يضيء بنور خافت غامض...

- إمام... عارف إنك مش هاتطاوعني... بس مش ممكن يكون بسم الله الرحمن الرحيم... جن راكبني ولا حاجة؟ ولا جنيه بتحبني...
- اللي في موقفنا ممكن يقبل أي تفسير يا خالد... هعذرك... بس لو فرضنا إنه مس... برضو إيه الغرض من الكتابات اللي على جسمك دي؟ انت بتقول إن المكتوب على ضهرك في الصورة دي هو اللي انت سمعته في عقول الناس في الاستوديو...

مع رشفات الشاي بالقرنفل في الشرفة متآكلة السور، سلّم الشابّان بفرضية أن خالد يتمتع بنوع من الإدراك فائق الحواس، وظهرت له تحت الضغوط النفسية موهبة قراءة الأفكار... الأمر غير مثبت علميًّا لكن حالات كثيرة مسجلة في أكثر من بلد تشير إلى وجود شيء كهذا حتى لو لم يخضع للعلوم القاصرة الآن...

- مفيش غير الحل التاني... إننا نفكر بشكل فلسفي... مبروك يا خالد... إنت أول شخص يصاب بتسمم الكلمات! فيربافينيفيتّي!!
- كمان اخترعتله اسم... بس الفلسفة عمرها ما حلت مشكلة...
- بس قدمت حلول كلامية لمشاكل مالهاش حل!
- طب وأنا أعمل إيه دلوقتي؟ مفيش علاج؟ طب والوجع والسخونة والهلاوس... هعيش كده إزاي؟؟
- مضطر أعالج الأعراض كل واحد لوحده... مفيش صورة كاملة قدامي... خافض حرارة ومضاد التهاب... هديك كورتيزون أقراص كمان... المرهم زي ماهو... هانشوف هاترتاح على إيه ويبقا هو ده العلاج...

رن جرس هاتف منزل إمام فقام ليرد... دقيقة ثم سمع خالد صوته...

- خالد... مدام رقية على التليفون...

أثارت غيبة خالد عن المستشفى اليوم وغلقه لهاتفه قلق رقية فاتصلت بالرقم الذي يعرفه الشارع كله... رقم دكتور إمام...

- واحد ماعرفش جاب رقمي منين كلمني وقالي إنه جالك البيت ومالاقاكش... اسمه مؤيد باين... قلتله إنك عند الدكتور بتاعك...
- مستر مؤيد؟؟ جالي البيت؟ طبعًا جاي يخرب بيتي...
- ماعرفش... هو له عندك حاجة؟ مش ده صاحب الشغل؟
- أبوة... أم خالد عاملة إيه النهاردة؟
- زي ماهي يا خالد... الدكاترة مش عارفين مابتفوقش ليه من الغيبوبة... ماعرفش غسيل «بريوني» ولا اسمه إيه كده هايعملوهولها بكرة...

- طيب... هسأل إمام ماتقلقيش إنت... سلام...

مالبث أن وضع سماعة الهاتف حتى رن جرس الباب... فتح خالد بالجلباب المنزلي الصوفي الخاص بإمام... كان وجه مؤيد المحمر من الصحة وعلى وجهه ابتسامة متصنعة لزجة...

- كده تدوخنا عليك...! مش هتقولي اتفضل...
- اتفضل يا فندم...

دار مؤيد بعينيه في المكان ثم توقف عند الخف الأخضر البلاستيكي الذي يرتديه خالد... شرد لثانية ثم عادت الابتسامة إلى وجهه...

- مين بس اللي زعلك في البرنامج إمبارح؟
- أنا آسف إني أخليت بالاتفاق... بعد ما قلت الكلام اللي حضرتك حفظتهولي حسيت إني كداب وإن في حاجات ممكن تترتب على كلامي ده... حاجات كبيرة مش حملها...
- ولا يهمك... الحلقة سمّعت أوي... المصور اللي صورك نزل الفيديو اللي ما اتذاعش على يوتيوب...
- زمانه اتقطع عيشه...
- إحنا اللي قلناله يذيعه...
- إنتم؟
- أيوة... تقدر تقول إن أصحاب القنوات دي مصالحهم واحدة ولازم يعرفوا يستغلوا أي موقف للصالح العام... المهم يا خالد... والدتك في عينينا وإقامتها في المستشفى علينا...
- إشمعنى يعني؟ مقابل إيه؟؟

تسمر إمام خلف باب المطبخ يستمع للحوار الدائر... هناك شيء ما يحاك حول خالد... شيء أكبر من مجرد استغلال شاب في حلقة تليفزيونية...

- مقابل شغل يا خالد... إنت بقيت مشهور يا أخي...
- شغل إيه؟ كدب برضو في التليفزيون؟
- إنت مش خريج إعلام؟ إيه اللي يشغلك شغلة زي اللي بتشتغلها؟ ليه ما تعدّش برنامج أكبر... وليه ماتذيعوش إنت!
- أنا؟ برنامج إيه ده؟؟
- الكلام ده سابق لأوانه... النهاردة كام في الشهر؟
- واحد فبراير...
- عشر أيام كده ونتكلم... ولا خلينا في الفلانتاين...

ضحك ضحكة جوفاء مظلمة ثم قام... لم يصافح خالد، فقط فتح الباب وخرج وهو يكرر

- عشر أيام... أسبوعين بالكتير... سلام...

* * *

تنتظره أسفل مقر المجلة... تتمتم لحن كورسكوف الشهير «شهرزاد» في انتظار أن تسمعه فعليًا من هاتفها عندما يتصل خالد...

لم تستطع الانتظار أكثر... تدخل الحمام كل عشر دقائق وتتأكد من ملبسها ومكياجها الرقيق... تضحك وتقطب جبينها أمام المرآة سيئة الإضاءة... تختبر ملامحها وتختار أجمل تعبيراتها من أجله...

تقف لحظات تتساءل عن جدوى ما تفعله... لم تصمم على أن تحيا حياتها

مجرد انعكاس في أعين الآخرين؟ لم تشعر دومًا بحاجتها لرجل يلقي برتوشه الأخيرة على لوحة رسمتها هي؟

وجدته أمامها يعبر الطريق وهو يحاول الاتصال بها... أربكها قربه فقد خططت للاختباء في المدخل عند اتصاله...

ينظر أمامه فتلتقي العينان... يتمنى لو استطاع قراءة ما يدور في عقلها...

- اتأخرت عليكي؟

- لا أبدًا... أنا نزلت أجيب حاجة فقلت أستنى بالمرة بدل ما يعني... أنزل تاني...

ترتبك فتعتصر المعطف في يدها... تتشبث به...

- ممكن أعزمك على حاجة يا آنسة... مش هاتقوليلي اسمك؟

ابتسامته بيضاء في وجهه الأسمر... نقاء غريب وهدوء في صوته...

((وضوء يتسلل من جسده إلى جنبات من نفسي لم أعهدها قبله..))

- أي اسم... سميني أي اسم!

- زي إيه؟ طب ليه مش اسمك الحقيقي؟

- أنا بكتب في المدونة باسم مستعار... بكتب باسم الشارع ده...

- الأنتيكخانة؟؟ يعني أقولك يا أنتيكخانة؟؟

هزت رأسها في طفولة فاهتزت خصلات شعرها معها... مع لمسات شعرها لوجنتيها عادت ذكرى المتحرش للحظات... لحظة أن جذبها من شعرها فانفك... تنسحب الأصوات منها لثوان ثم تعود لهيئتها...

تضمر ابتسامتها...

لا تنمحي ذكريات كتلك من ذهن أية أنثى... يذكّرها بها مرأى الرجال، وهفهفات شعرها... ودقات قلبها خوفًا وفرحًا...

- طيب يا آنسة أنتيكخانة... ممكن أعزمك على حاجة؟

- ممكن كادبوري بندق من عند سهام...

وأشارت بيدها لبائعة في كشك صغير...

دقائق وهو يتفحصها، تأكل الشيكولاتة وتشرب العصير... ترفع عينيها نحوه فيتظاهر بمشاهدة المارة...

تجذبها ابتسامته البيضاء وسمرته... الحزن والخوف في عينيه... التردد وقلة الخبرة...

تبادلا كلمات بسيطة عن عملها وعمله... لكن سؤالًا واحدًا ظل يتردد في ذهنها... ما سر تلك الإضاءة العجيبة؟

- ما بتدخلش على النت؟

- لا والله... ماعندناش... ليه؟

- الفيديو بتاع البرنامج اللي ظهرت فيه... فيه حاجة غريبة بتتكرر معاك كتير مش لاقيالها تفسير...

- إيه هي؟

- دايمًا بيبقا في انعكاس ضوء عليك بيبان كأنك منور...

- دا... صدفة... يعني لو دورتي في كل الفيديوهات هتلاقي حاجات أغرب لناس تانية...

أثار حفيظتها ارتباكه في الرد... ردٌّ مقنع لكن ارتباكه زلزل قواعد الإقناع...

كانت الشمس تنعكس على عينيها السوداوين... نظرة طويلة تحاشى كلاهما إكمالها...

ـ شكرًا يا أنتيكخانة... مش عارف الاسم ده مبوظ الكلام!

ـ لو ربنا قدر واتقابلنا تاني هقولك اسمي...

ـ شكرًا على... الجاكيت...

مد يده كي يأخذ معطفه، ترددت هي... تعلق نفسي بهذا المعطف يجعل إعطاءه له دربًا من التعذيب... ها هو سيأخذ كل ما تركه معها ولن يكون هناك سبب للقاء آخر... أو أمل آخر...

ـ سلام...

ـ سلام...

يمضي خالد في طريقه... يلتفت خلفه بعد بضع خطوات فلا يجدها... كانت قد دلفت إلى مدخل البناية، تخفي خلف جدرانه دمعة حارة... يأسٌ يسري في عروقها لا تدري سببه... لن تراه مرة أخرى... ولن يتصل بها مرة أخرى... ولِمَ يتصل وقد أخذ معطفه؟ لِمَ يتصل وهي بالنسبة له لا أحد...

شعرت أن ما بينهما كان كشرارة اشتعال بين عود ثقاب ومشط الكبريت، لن يلتقيا ثانية أبدًا...

لكن اشتعال لماذا؟ لحب؟ لأمل؟ أم مجرد ضوء في الحلكة ترى فيه طريقًا جديدًا مقسومًا لها؟

وقف خالد في آخر الشارع لا يقدر على العبور، يسمع صوت الاحتكاك الغريب القادم من جيب المعطف... يفتح الجيب فيرى الطبق «الميلامين» المهشم...

يمسك شظية منه يديرها بين أصابعه... لشد ما تحمل شظية من طبق رخيص ما تحمله حياة مثقلة بالهموم والذكريات...

كان هذا طبق أم خالد... وقد انكسر...

* * *

ـ الكلمات الرابعة ـ

ـ الناس زمان كانت بتبص لملوكها على إنها آلهتها... لكن من ساعة ما دخَّلنا في دماغ الناس فكرة حق المواطن، بقا بيبص للملوك والحكام على إنهم مساويين له... الفكرة إن الحكام ينزلوا من فوق عروشهم... لكن المحكومين يفضلوا برضو عبيد... مفيش إله من غير عبيد...

ويتنحى محمد حسني مبارك...

يذكر السيد مواقفًا مماثلة عبر زمن بعيد... في بعض الأحيان، يكتشف الحاكم بشريته وعجزها... فيخلع عن نفسه قدسيته وينزل على ركبتيه في انتظار سيف الجلاد...

تنحى الرجل تاركًا الكرسي فارغًا... وهو فراغ شيطاني مهيب...

لم يتفاجأ السيد بما حدث، لكن شعورًا مُرًّا تحرك في جسده البارد...

تلك الأرض ناكرة الجميل، تلك الأرض قاتلة ملوكها وأسيادها...

ذات الموقف يتكرر بلا هوادة عبر تاريخها الكئيب، لكنه لن يسمح لها بالبقاء أكثر ولا بالعبث مع سيدها المرتقب...

ظل أعوامًا يحلل ويفكر... يتحين لحظة اقتناصها وحبسها للأبد... ستركع له ولن تقوم مرة أخرى...

((.. أنا إن قدر الإله مماتي ... لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي..))

تلخيص عبقري لموقف تلك الأرض وسرها...

فوق جبله المشرف على القاهرة، يأتون بعد عشرة أيام من فك سجنهم على يد سيدهم المحرر...

أرسل إليهم السيد إخوانهم في الشرق وذراعهم الأيمن ليفكوا أسرهم من سجن فرعون، يعلمون أن الوقت قد أتى، وأن السيد قد أوفى بوعده...

يجلس خليفة إمامهم في كرسيه المهيب، جبهته عريضة لامعة ولحيته بيضاء تشع في أعينهم نورًا قدسيًا...

بضع وثلاثون منهم يتحلقون حوله يطوِّف بهم سيد آخر لا يرونه، يرى بذوره في أنفسهم قد نمت وقد حان وقت الحصاد...

ليلتها جاء السيد لخليفة إمامهم في رؤيا اعتقدها الأخير سماوية، وقصدها السيد شيطانية أرضية، رأى الرجل نفسه جالسًا على عرش مصر يأتيه خراجها... يسجد القوم له ويقبلون يده، إلا إنهم لا يرونه... هو نفسه لا يرى ملامحه... يرى فقط شخصًا يشبهه، جامد الملامح بارد الأعصاب... مظلم الروح...

يطل من فوق عرشه على مجرى مائي جاف ليلًا... يحمل المصريون أجولة الرمال ويلقونها تحت قدميه... هذا هو خراج مصر يا سيدنا...

بغباء احترف قصر النظر والتبرير، صحا الرجل وقلبه ينازع عقله الحقيقة الواضحة...

تلك رؤيا خراب، مُلك على مملكة من الرمال...

تلك رؤيا خير، مُلك كملك يوسف الصديق بعد سنين عجاف...

جاءه كبار تلامذته فقص عليهم رؤياه، قرؤوا في عينيه تفسيرها فأسمعوه ما يحب، فغاص في كرسيه راضٍ عن نفسه...

أما السيد فقد تركهم في أوهام الرؤى والنبوة يعمهون، وانسحب يقف على كورنيش المقطم، لا يخشى شيئًا...

رص لبناته منذ ما يقرب على المائة عام إلا قليلًا انتقامًا من ثأر له خمسمائة عام...

تتابعت الأجيال من قصار العمر، لا ينظر أحدهم وراءه فيبصر الفتيل، ولا أمامه فيرى القنبلة الموقوتة فوق الرؤوس...

* * *

- ياه يا إمام... لأول مرة بنزل الشارع الصبح أحس إن البلد بلدي... محدش مالكها غيري... بخاف على كل نقطة مية وبوطي ألم الزبالة م الشوارع مع إني عمري ما فكرت فيها قبل كده... إيه اللي اتغير؟؟

- اللي اتغير الأمل يا خالد... طول عمرنا بنقول جملة واحدة «هي كانت بلد أبونا»! الحقيقة إنها بلد أبونا فعلًا بس إحنا كنا بنسلمها لحكامها كأنها بلد أبوهم هم لوحدهم... يمكن ما اتعودناش إن حاكمها يكون منا من أيام نهاية حكم الفراعنة لحد الملك فاروق... لسة ما صدقناش... بس لما نختار اللي يحكمنا، ساعتها هتبقا فعلًا بلد أبونا واللي جاي مش جاي يحكمنا، جاي يشتغل معانا مقابل أجر بس...

وقف الشابّان يرمقان الأعلام المرفرفة المحلقة فوقهم بين أسوار الشرفات... بُعث في قلبيهما النذير المصري طارد الفرحة... «اللهم اجعله

خير»... كأنما لا يستحق هذا الشعب الفرح ولا الضحك... نذيرٌ مشؤومٌ لا يزال يخدش طلاء فرحتهم الجديدة بمفتاح صلب كطفل عابث...

- عارف يا خالد... النهاية السعيدة دي مش مريحاني... في حاجة قابضة قلبي...

- يا أخي فال الله ولا فالك...

- لا بجد... تفتكر مصر استثناء يعني؟ تفتكر هايسيبونا نختار؟ إشمعنى دلوقتي؟ فجاة كده هيتسجن كل المتآمرين والطمعانين ونبقا زي الفل وتوتة توتة خلصت حدوتة آلاف السنين من الاستبداد والطمع والاستحمار؟

نفس الشعور الغامض المقبض شَعَرَه كل مصري ولم يصرح... فضل أن يعيش السعادة ولو مؤقتًا... تخلى عن تشاؤمه الأزلي وانطلق في المروج يجمع فراشات الأمل المراوغة...

ودع خالد إمام لحياته الخاصة وانطلق في رحلته اليومية إلى قصر العيني، لا زالت أم خالد في غيبوبة مستقرة أثارت حيرة الأطباء...

توقف تدهور الحالة، لكنها لا تتحسن... فقط تعطي مؤشراتها أملًا بمعجزة بعيدة لا يعرفون ماهيتها...

يركع خالد بجوار السرير ويقبل يدها...

- أم خالد... ادعيلي... عارف إنك سامعة وحاسة... ادعيلي، عندي شغل النهاردة، شغل بجد مش فوازير... فيه فلوس حلوة وهخرجك من هنا لبرة على طول... ومش هسيب محرم ثابت الكلب باللي عمله... إمام مستني الدنيا تهدا بس ويبلغ وزارة الصحة... البلد ما بقتش خرابة زي ما كانت... ادعيلي يا أم خالد...

كان موعده مع السيد مؤيد في الثانية ظهرًا... ليلة عاصفة مرت به أول أمس... التنحي أثار موجة عارمة من الهلاوس والحمى والكتابات النارية...

ورؤى غريبة لرجل أسود الشعر طويله، لحيته السوداء القصيرة تتناغم مع حاجبيه الكثيفين في قوسين من الظلام يحدان عينين منيرتين غريبتين... وكان يقف فوق الجبل يلطم الريح شريط حريري أبيض يجمع به شعره...

شعور الانقباض يتكرر كلما استرجع هلوساته في تلك الليلة...

إلا أن كتابات ظهره قد تغيرت بشكل محير...

انقسمت الكلمات لقسمين، قسم يضيء بضوء ذهبي خفيف، وآخر يستعر كالجمر من تحت الدماء المتجلطة من الشقوق التي تسبب بها...

تلتف الكلمات حول بعضها البعض فيصعب أن تفرق بينها...

ملأ كيسًا أسود بالماء البارد وقطع الثلج ووضعه على السرير ثم ألقى بنفسه فوقه... لم يجرؤ على تجربة الماء الجاري مرة أخرى في تلك الحالة...

صحا بسعال يمزق رئتيه ويطرد كتلًا من البلغم المسود بالنيكوتين والقطران من صدره...

عرج على إمام وحكى له ليلته، ابتاعا دواءً مهدئًا للسعال ثم افترقا على وعد باللقاء ليلًا مرة أخرى...

العنوان الذي أعطاه له مؤيد هو عنوان فيلته الخاصة بالمقطم... ركب تاكسيًا حفظًا لرونق البذلة السوداء من عمر زفاف رقية...

الشوارع الراقية تتراجع وراء ظهره في تقدمه نحو العنوان... شارع صاعد تقبع الفيللا البيضاء قبيل نهايته... يترجل خالد وينقد التاكسي أجرته... يمسح الحذاء في البنطال من الخلف في حركة لم يفكر في عواقبها...

غابة من أشجار لها زهرات ثلاثية الأوراق تطل من فوق السور الضخم... رجل أمن ضخم يتقدم منه في بطء وثقة...

من خلف رجل الأمن، لفت نظر خالد فيللا عملاقة مزخرفة بشكل غير مألوف، مطلية بلون رمادي يقترب في ثقة من الأسود... لا يشبه قصر البارون إمبان بمصر الجديدة، لكن له طابعًا مخيفًا يتناغم مع عمارة المنطقة القديمة المحيطة بسفح المقطم...

- أيوة... بطاقة حضرتك...

- أنا خالد... خالد تحية عندي ميعاد مع مستر مؤيد في الفيللا دي...

- بطاقة حضرتك...

غاب رجل الأمن دقيقة اقترب فيها خالد بضع خطوات من الفيللا الرمادية...

هل تعرف مساجد مصر القديمة؟ تلك المتخمة بالمقرنصات والنقوش الإسلامية مع لمسات من حضارات بعيدة غامضة؟ لا... لا تشبهها!

عندما عاد رجل الأمن، وجد شابة حسناء ترتدي تايورًا قصيرًا أسود اللون تقدمته عبر الحديقة أندلسية الطابع...

يبعد خالد عينيه قسرًا عن الحسناء السائرة في جلال أمامه... جمال مثالي يليق بالضواري فقط.

هل تعرف الرخام الأخضر المميز لمساجد الشرق الأدنى ورائحة البخور الشرقية الفائتة تتصاعد متلوية ككوبرا هندية من بين شقوق المبخرة الفضية العملاقة في وسطها؟ كانت قاعة الاستقبال أبعد ما يكون عن هذا الحلم... كانت حقيقية كالكوابيس... متصنعة كفيلم أمريكي يصف الشرق وأنهار العسل والخمر فيه...

تأخر السيد مؤيد في الظهور وهو تأثير متعمد... ترك خالد لينتقع في جو مبستر خال من ميكروبيات الواقع... جو ألف ليلة وليلة حين تمتزج بأوديسا الفضاء!

ديكور يوحي بالقدم يحركه كالدمية تكنولوجيا فائقة لم يسمع عن معظمها أو يتخيل وجوده من الأساس...

هل تعرف الفيل الشيطاني بيموك عندما يرتدي البرادا صباحًا ويخطو نحوك في حذاء إيطالي باهظ الثمن يدخن السيجار الكوبي متعاليًا مبتسمًا قاصدًا أن يبصق عليك فجاء بصاقه سلامًا من أطراف الأصابع؟ حسنا... هذا هو السيد مؤيد!

- خالد... اتفضل... جابولك حاجة تشربها؟
- شكرًا يا فندم... بيعملولي قهوة...
- قهوة إيطالي... ماتحبش القهوة التركي هنا...

بنصف عين سدد مؤيد نظرة إلى البنطال المتسخ والحذاء المفارق لنعله بلا رجعة وابتسم...

توتر خالد وحاول أن يداري ما استطاع إخفاءه في المقعد، يرى بوضوح من النافذة العريضة المجاورة الفيلا الرمادية تتبدى كحسناء غامضة من خلف الأرابيسك المتقن...

- إحم... هي الفيلا دي بتاعة مين؟
- في هنا صفوة المجتمع... ماتشغلش بالك...

بدا مؤيد متعجلًا يريد الخلاص من الأمر في أسرع وقت... زاد من تقززه حك خالد المستمر لظهره في ظهر كرسيه...

- أولًا مبروك على التنحي... فرصة بقا نبيّن أهمية اللي عملتوه في التحرير...
- اللي عملوه يا فندم... أنا ما عملتش حاجة...
- ووالدتك عاملة إيه النهاردة؟
- بخير... زي ما هي...
- بكرة تنقلها مستشفى دار الرعاية... كلمتلك الناس هناك ومستنيينها...
- فين؟ دار ال... ليه؟؟؟ دي غالية أوي!
- ماتغلاش عليك... لازم تتطمن عليها بقا علشان دماغك تفضالنا...

جاءت القهوة الإيطالية معها قطع صغيرة من الكيك البني تعلوها الحسناء المبتسمة الشهية...

((.. دي شغالة يعني ولا سكرتيرة ولا إيه؟ ...))

- اتفضل... مبدئيًا اعتبر نفسك مستقيل من ستوكس وشغال في يو مي بي...
- يو مي بي؟
- قناة لسه هاتفتح ملك واحد قريبي... بنجهزها إعلاميًا على أعلى مستوى... وإنت في الفريق...
- ليه... يعني إشمعنى أنا؟ في معدين كتير أحسن مني...
- مش معد... مذيع يا خالد... مذيع مصري أسمر، الناس بتتكلم عنك وعايزة تعرف إنت سكت ليه واختفيت فين بعد مفاجأة برنامج النابلسي...

- وبعدين؟

- هتفضل مختفي برضو كم شهر... وعلينا إحنا نفكر الناس بيك كل ما ينسوك... سيبهم يتفاعلوا مع تفسيراتهم للضوء الغريب اللي في فيديوهاتك... سيبنا نعطشهم...

صمت خالد وحل الغم مكان الفضول... الضوء الغريب... لن يصل أكثرهم جموحًا لتفسير قريب من الحقيقة... وياليت أحدهم يصل إلى تفسير...

- الفترة الجاية الأحداث هاتبقا زي الشلال... لو لفتت نظرك نقطة في شلال ممكن تعرف تمسكها؟

- لا...

- بالضبط... الأخبار والمعلومات هتزق بعض واللي هايروح محدش هايلاقي وقت يدور عليه ولا يلاقيه... دورنا إننا نطلع نقطة المية كل فترة على السطح ونخلي الناس تغطس وراها... زي الجزرة المربوطة في ضهر السلحفة كده... لا عمر السلحفة هاتوصل ولا عمرها هاتاكلها...

- مش فاهم برضو... أنا هكون فين في الفترة اللي هختفي فيها؟

- هتكون هنا... بتاخد دورة تدريبية محدش خد زيها... التفاصيل مع آنسة نورين...

تحمل نورين جمالًا عتيقًا لابد وأنه قد أطل من وجه هيلين طروادة أو امرأة العزيز... كما تحمل بصمة خفية تربطها بوجه مؤيد، كأنه قريب بعيد لها...

تتعمد نورين تحديد عينيها في طابع شرقي مفتعل... عطرها شرقي خشبي، شعرها أسود منسدل في موجات مخملية، تذكره بالجارية الحسناء على غلاف

ألف ليلة وليلة النسخة الأصلية... تحوي بين دفتيها ما حواه الإصدار الأول من ليالٍ نام عنها الرقيب عمدًا...

ترك مؤيد خالدًا يرشف نورين مع قهوته... يرى الحياء يمنعه تارة، ويرى الجمال يجذبه مكبًا على وجهه تارة...

رائحة عشبية مكتومة تتصاعد مع البخور الهندي... تمتزج في خليط لابد من تحريمه دوليًا مع عطر نورين والقهوة السوداء الأصلية بلا إضافات...

يتصاعد من عقله موسيقى تصويرية ملائمة نتيجة تراكم سنوات من الأفلام السينمائية... حيلة عقلية يمارسها لاشعوريًا إمعانًا في الاستمتاع بجو ما...

- اتفضل أستاذ خالد معايا المكتب هفهمك كل حاجة...

يؤمي بيموك برأسه مبتسمًا كقواد متمرس..

دعاه كي يتأرجح هوًا بين الحلال والحرام... بين الغنى والفقر... بين الجمال والعفاف...

* * *

«امتدادًا لدورها المشهود في تطوير الإعلام العربي فكرًا وأداءً، أطلقت شبكة «واحة» مشروعها (مركز واحة الإعلامي للتدريب والتطوير) للمساهمة العلمية والعملية في التطوير الإعلامي بمختلف مجالاته ومستوياته، عن طريق تدريب الكوادر الإعلامية وتطوير مهاراتها ورفع كفاءتها، ليس لدى شبكة واحة فحسب وإنما لمنتسبي الحقل الإعلامي عمومًا ممن يعملون في مؤسسات إعلامية أو غير إعلامية ذات صلة بالمجال، عربيًا وإقليميًا ودوليًا، تأصيلًا للمعرفة وتعميقًا للفهم وتطويرًا للخبرة وارتقاءً بمستوى الأداء وتحقيقًا للتواصل ومواكبة للمستجدات»

قرأ خالد الديباجة السابقة في المطوية الإعلانية التي وضعتها أمامه نورين، شبكة واحة الإخبارية من أول الشبكات الإخبارية العربية ظهورًا وأقواها تغطية... إلا أن الحديث عن تقييم مصداقيتها ازداد بشكل ملفت في الأيام الأخيرة...

- دي شبكة مش مصرية...

- عربية يا أستاذ خالد... وعندنا رد على كل الاتهامات اللي اتوجهت ليها الفترة اللي فاتت... على العموم الشبكة هاتتولى مسؤولية تدريبك لمدة ١٢ شهر مدفوعة التكاليف وهنا في مصر... وبعدين تشتغل في اليو سي بي...

- ده على أساس إني وافقت خلاص؟

مالت تسند رأسها على كفيها خلف المكتب وابتسمت...

- وترفض ليه طيب؟ زعلناك في حاجة؟

- مش مسألة زعل بس...

- ليه قلقان؟ اسمحلي أقولك يا خالد من غير ألقاب طالما هانشتغل مع بعض؟

تصمم على توريطه أكثر في كل كلمة ومع كل إيماءة... جعلها يحرق أحشاءه ويزيد من توتره فتنسال الحمم على ظهره ويتعرق أكثر...

- خالد... قلقان ليه؟ كل المشاهير ابتدوا كده... حد اكتشف فيهم حاجة مش شايفينها... من كتر عشرتنا مع نفسنا بقينا عُمي عن الحاجات المميزة أو الحلوة فينا...

- العرض ده أصله كبير أوي... يعني تدريب وعلاج لأمي ومرتب...

تضمنوا منين إني أكون قد ثقتكم دي؟

- من الناحية دي اتطمن... ضامنينك... أنا ضامناك!

- إنت؟

- عينيك فيها ثقة كبيرة وقدرة على الاستيعاب... التدريب ممكن يعمل منك اللي إحنا محتاجينه... أنا واثقة فيك...

تزيد من توثيق حبائلها... يذوب منطقه وتساؤلاته كقطعة ثلج بين أناملها الساخنة...

- التدريب يوميًا ما عدا السبت والأحد... من الساعة تسعة للساعة ثلاثة...

- السبت والأحد أجازة...؟

- أجازة من التدريب الإعلامي... بس مستر مؤيد هايعوزك فيهم...

- ممكن أرفض؟

- أكيد!

ابتسمت مرة أخرى وقامت تنفي بقوامها القياسي كل أسطورة عن الإرادة الحرة... أغمض خالد عينيه وأطرق برأسه يتأمل نسيج البساط الإيراني تحت قدميه... يزن الأمر بميزان ذي كفة واحدة..

((.. ارفض يا خالد وارفض النعمة وخلي أختك تصرف عليك وعلى أمك... ولا أقولك... خلي أمك مرمية في القصر العيني لحد ما فلوسكم تخلص وتلاقي نفسكم في الشارع... روح اشتريلها كفن سلف من إمام وادفنها في مقابر الصدقة... ولحد ما تلاقي شغل تاني ممكن تاكل من تمن كلاوي أم خالد برضو مافيهاش حاجة..))

ميزان ذو كفة واحدة ويد مكسورة، يتهاوى تحت ثقل المنطق وضروريات الحياة...

- ممكن بس يومين أدبر أموري؟

- كلمني أي وقت...

ومدت يدها بكارت أسود ذي زخارف ذهبية يحمل اسمها ورقم الهاتف دون أية معلومات أخرى...

فأخذه...

* * *

اختفى خالد في غياهب جُبه الخاص تاركًا خلود أمام هاتفها المحمول تنتظر وعدًا غير منطوق أطل من عينيه لحظة لقائهما...

لازالت الحوارات عن لقاءه مع النابلسي تطفو وتغوص في بحار مواقع التواصل الاجتماعي اللزجة سابقًا شديدة الميوعة حاليًا...

تشتت أفكارها بحثًا عن جديد تكتبه... تغطيات غير هامة لأحداث سطحية للمجلة التي تعمل بها...

المدونة مهجورة كقصر مسكون...

الخواء يدفعها دفعًا لمزيد من الطعام... آخر قطعة شيكولاتة وآخر كوب مياه غازية قبل البدء في نظام غذائي يؤجل يوميًا...

يروادها في أحلامها كملاك مضيء... غموضه يزيد من فضولها الأنثوي الطبيعي...

تمد يدها وتتصل برقم القناة على الكارت الشخصي...

- قناة ستوكس مساء الخير...

- مساء النور... ممكن أكلم أستاذ خالد تحية...

- خالد أجازة...

ترد ماري بانقباض قلب لسؤال كرهت الإجابة عنه... تدعو الله ألا تزيد المتصلة في أسئلتها...

- أجازة النهاردة؟

- لا... أجازة مفتوحة...

- ممكن أسألك بس... هو... في حاجة؟ والدته كويسة؟

- آسفة والله بس معرفش عنه حاجة... أتشرف باسمك؟

- لا خلاص... متشكرة...

فأر حقول غليظ يلهو في قلب ماري... هو ذات الفأر يطارد أحلام خلود بملاكها...

اختفى خالد من القناة دون وداع... دون كلمة واحدة... لا يرد على هاتفه ولا هاتف المنزل... اعتمد السيد مؤيد إجازة مفتوحة له دون أي أسباب...

اختفى تاركًا خلفه تساؤلات بلا إجابة...

* * *

- تصدق يا إمام... إحنا ما كناش بندرس حاجة يا أخي في الكلية... عالم تاني خالص...

- الحمد لله... المهم إنك مرتاح... مرتاح يا خالد؟

- مرتاح إزاي يعني؟

- الحاجّة انتقلت الصبح النهاردة من المستشفى... أنا كده مش هقدر أتابعها كدكتور... عارف إن عندها الأحسن مني... بس كنت محتاج أبقا معاها علشان موضوع بلاغ وزارة الصحة ده...

- بلاغ إيه؟ آه... تصدق نسيت! إنت لسه معاك من الدوا ده؟

- معايا باقي العلبة اللي إنت اشتريتها... بس رقية اكتشفت حاجة تانية وكلمتني إمبارح...

- إمام... هقفل معاك دلوقتي... نتقابل قريب، يمكن بليل، همدي عليك... لازم ألحق أصلي قبل ما البريك يخلص... سلام...

أغلق خالد هاتفه والتفت ليجد نورين تأتي من داخل الفيلا حاملة كوب القهوة الإيطالية الطويل... جارية تحمل ماء الزهر لسيدها...

- اتفضل... كمل تليفونك أنا ماشية...

- لا خلاص... قفلت... نورين هو فين القبلة من هنا؟

- نعم؟ آه... القبلة...

تلفتت بعينيها حولها ثم سارت أمامه تدعوه لاتباعها... تتلفت حولها في محاوله لإيجاد إجابة لسؤاله...

- تعالى... مش هاتصلي في الجنينة يعني... القبلة من... هنا كده...

وقفت في حجرة المكتب المفتوحة تولي وجهها شطر القصر الرمادي... ابتسمت ثم جلست واضعة ساقًا بيضاء فوق مثيلتها ومالت برأسها على كتفها...

- طب اشرب القهوة وبعدين صلي...

- آه... شكرًا... نورين... هو مستر مؤيد مش ساكن هنا؟

- لا... ساعات بيبات هنا بس الفيلا دي للشغل أكتر...

- آه... إنت قريبته؟

- يعني... من بعيد... قولي يا خالد... متجوز؟

- لا والله لسه... ليه عندك عروسة؟

((.. أنتيكخانة.. راجعلك لما أستاهلك... مش هتجوزك بفلوس أمي..))

- العرايس كتير... مستر مؤيد سابلك ده معايا...

ظرف أنيق فتحه خالد ليجد عشرين ورقة من فئة المائتي جنيه...

- ليه دول؟

- مرتبك يا خالد... أمال هاتصرف منين؟ أسيبك أنا بقا وأكمل شغلي...

دائمًا ما تختفي نورين قبل الأسئلة الصعبة... دائمًا ما تتركه مع شيء يشتت تساؤلاته... تتركه مع ذيل عطرها الشرقي الممزوج بالبخور...

لم يشعر براحة تجاه قبلتها المزعومة... القصر بأبراجه العشرة، لم تكن أبراجًا كأبراج القلاع... إنما هي مآذن فعلية لكنها لا تحمل على جباهها الهلال...

مبنى معلق بين المسجد والقلعة... طراز لم يره من قبل، يبدو كخليط من عدة طرز مختلفة...

خرج يسأل رجل الأمن عن القبلة فأشار له وهو يضيق عينيه...

- تدي ضهرك للقصر وتيجي يمين سِنة صغيرة... سِنة هه؟

القبلة في الاتجاه العكسي إذًا... دخل يصلي ثم وجد دقائق تفصله عن بدء درسه التالي فجلس يشاهد الحيوانات المنقوشة على البساط ويدعو...

- ربنا ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا... يارب... مابقيتش شايف

قدامي... نورلي... أنا تعبت...

* * *

من الاثنين إلى الجمعة، يتلقى خالد تدريباته الإعلامية، يتخللها فاصل للقهوة، يشربها متبادلًا كلمات قليلة مع نورين...

الأسبوع الاول...

((.. جميلة صورة مامتك... مش شبهك... أكيد باباك أسمر... أنا متأكده إنها هتبقا كويسة ما تخافش..))

- مهم تعرف يا مستر خالد الفروق بين الكلمات... مظاهرة... مسيرة... احتجاج... تجمع... إضراب... اعتصام... هاتعرف تستخدم أي واحدة أول ما تعرف القناة اللي بتشتغل فيها في أي صف... لو مظاهرة مش في صف القناة... خليها تجمع... مسيرة... إمتى تستخدم لفظ مفرد وإمتى جمع... إمتى تستخدم أدوات التعريف والتنكير... المشاهد مش بيقرا... المشاهد بيتبرمج مباشرة من كلمة واحدة...

الأسبوع الثاني...

((... نورين... إنت بتشتغلي إيه بالضبط؟

هي دراعك اليمين بتشتغل إيه؟ كل حاجة... بس ممكن تستغنى عنها برضو... تقدر تقول أنا الدراع اليمين لأخطبوط!..))

- ابتسامتك القلقة وابتسامتك المرحة وابتسامتك الجذابة... خلي درجك مليان ابتسامات... المشاهد بيشوف وش مقدم البرامج قبل ما يسمع بيقول إيه... عينيك وابتسامتك هم اللي بيظبطوا حالة المشاهد النفسية قبل صوتك وكلامك...

الأسبوع الخامس...

((.. مين أنتيكخانة اللي على الموبايل ده؟

... ده.. البنت اللي اتخانقت علشانها في التحرير...))

- غير نبرة صوتك مع الكلام... عليها لو عايز اللي قدامك يغضب... وطيها باستهتار لو عايز المشاهد يسخر معاك بدون قصد... خلي عندك لزمة حركية بسيطة تهيء المشاهد لكل كلمة بتقولها قبل ما تقولها...

يصلي سرًا في اتجاه قبلته هو...

((.. كلمتك إمبارح بليل ماردتيش ليه؟

.. كنت نايمة يا خالد..!))

- البس زي مشاهدينك... اتكلم بلغتهم... اتوحد معاهم على الشاشة لحد ما كلمتك بس هي اللي تفضل... ولما تفتح أي موقع تواصل اجتماعي بعد الحلقة وما تلاقيش غير كلامك انت بس... تعرف إنك وصلت أعمق نقطة في لا وعيهم...

لأول مرة يكتشف وسامته، السبت والأحد يقضيه ما بين جولد جيم وركوب الخيل...

((.. إحنا بنعمل بطل يا خالد... التحول من شاب ماشي جنب الحيطة، الحيطة نفسها اللي بيمشي في ضلها الشباب...))

- في حالات اليأس والخوف... لازم يكون في بطل أسطوري يحرر الناس من مسؤولياتها ويحسوا إن آمالهم في إيد أمينهم... خليك بطل وشيل عن الناس ذنوبها... وجبنها... وخوفها... اتفرج على القصص المصورة ادرس كويس ظروف ظهورهم وآلية إيمان الناس بيهم...

مافيش بطل خارق مالوش قوة فوق قوة البشر العادية... مفيش بطل خارق مش وسيم... مش نصف إله...

السباحة في مسبح فيللا مؤيد... نورين تأتي له في هدوء حاملة صحفة عليها القهوة الإيطالية..

((.. اتفضل..

تسلميلي.....

حد يعوم بالتيشيرت؟

... معلش.. عندي حساسية من الشمس...))

- معظم القنوات بتتبادل مصالح واحدة وعمرك ما هتلاقي قناة تتفرد بخبر كامل لوحدها... دور وهاتلاقي قطع البازل مرمية في كذا قناة... المشاهد يلف بالريموت في إيده ويجمعها، ويجمع معاها كل الأفكار المتضاربة اللي هاتزعزع إيمانه بكل شيء... هايتعب وهايدور على أي حد يوضحله الصورة كاملة بكل خفاياها بدون تعب... هايلاقيك إنت يا مستر خالد...

مرآة ضخمة في حجرة المكتب يشاهد فيها جسده المصقول... قميصه الأسود الضيق يشارك بمهارة في المنحوتة الماثلة أمام عينيه...

((.. خالد... إنت ما بقيتش بتروّح أصلًا... بتبات فين يا بني؟

ماتقلقيش يا رقية... مش لازم تتعبي نفسك وتيجي تنضفي... كلها كم شهر وأخلص الكورس...

أيوة بتبات فين يعني؟

في الشغل يا رقية... مأجرينلي شقة جنب الكورس...))

- شوف الناس من فوق... إوعى تنغمس وسطهم بجد... مش هاتشوف كل شيء إلا من فوق وبس...

تم تركيب ثلاثة قوائم إضافية لإنجليزيته الكسيحة ضحية التعليم الحكومي، لكنتاه البريطانية والأمريكية متقنتان بشكل لا يصدق...

الفرنسية أصابتها انتعاشة مفاجئة لم يتوقعها... يكتشف ميل فطري لتعلم اللغات، فينهل من الإسبانية ما تيسر...

((.. الحاجّة كويسة يا خالد... ما تقلقش... بس برضو مافاقتش من الغيبوبة... طلبت يعملولها مقطعية على المخ...

شكرًا يا إمام... أول ما أرجع هعوضك عن كل التعب ده...

ماتقولش كده... أنا بس عايز أتكلم معاك ضروري...

بعدين يا إمام... هنقعد ونتكلم لما نشبع..))

- مستر خالد... ماتثقش في أي ترجمة لأي خبر... اسمعه بنفسك وشوف إيه الترجمة المفيدة للقناة وخليها هي الترجمة المعتمدة... خلي كلمتك هي الكلمة الأولى... والأخيرة...

يرن جرس هاتفه المحمول بذات الرقم للمرة العاشرة خلال العشرة أشهر الماضية... اتصال واحد لكل شهر يحمل اسم «أنتيكخانة»...

((.. ياه.. لسه فاكرة... طب أرد عليها أقولها إيه بس... أخلص الكورس وأبقا أشوف...))

يتابع أحداثًا دامية بلا مبالاة... يدفن مع مرأى كل قطرة دماء فطرته وتعاطفه ويكتسب سمتًا إعلاميًّا باردًا... يشاهد فقط من أعلى... يشعر بقوة كبيرة وأمان بلا حدود... هو فقط فوق الجميع... الثوار الذين مشى وسطهم يومًا ومنهم اكتسب ظاهرته الجسدية الفريدة، يراهم بشكل أحادي وبمنظار

باهت لا يتعاطف ولا يفكر، فقط يحترف التبرير لمن يمتلك الزمام...

في الليل يعجز عن النوم، مشاهد خاطفة من حياته قبل التدريب تمر أمام عينيه فيقوم مدخنًا السيجارة تلو الأخرى في الشرفة الأنيقة... يطفئ مع الأعقاب كل ذكرى من حياة بائسة تذكرة بإنسان ضعيف جبان كانه في يوم من الأيام..

آلام ظهره وكتاباته تتلاشى... يسيطر الآن على حياته كما لم يسيطر من قبل... يستغل كل حيلة علموه إياها في ذبح خالد القديم المهترئ...

يبحث في الأدراج عن علبة سجائر إضافية... يمد يده إلى الزوايا المظلمة في حنق... تصدم أنامله بشيء حاد الطرف فيخرج يده مكللة بقطرات بسيطة من الدماء...

صورة فوتوغرافية لأم خالد ورقية في ركن مهجور تأبى أن تتطاير مع غبار الذكريات...

يديرها بين أصابعه ويعلم أنه لن ينسى... فقط سيتظاهر بالنسيان...

يظهر السيد مؤيد من حين لآخر يرقب تغيرات خالد المتوالية... ينتظر النتيجة النهائية بفارغ الصبر... يتأكد يومًا بعد يوم أن الشاب هو المطلوب فعلًا...

((.. بس شايف إن موضوع الكلام على ضهرك خف كتير؟ لسه بتاخد الأدوية؟

لما بفتكرها باخدها... بس مابقاش مؤلم ولا بحس بيه طول ما أنا في الكورس... أنا بقالي سنة معزول يا إمام! يمكن الجو عليه عامل... ولا النضافة!

الحمد لله.. ياريت أشوفك السبت بقا زي ما وعدتني...

وحشتني يا إمام!))

* * *

سيارة فولكس فاجن كحلية موديل السنة تعبر شوارع بين السرايات... تجذب الأنظار للحظات ثم يعود الجميع لمشاغله...

مات مصباح النيون مخلفًا جثة مسودة الأطراف مدفونة تحت الغبار فوق لافتة تحمل اسم إمام أبو زهرة...

ينزل خالد من السيارة ويرفع رأسه لأعلى...

رائحة البلطي المقلي في زيت التموين تتسلل من مدخل العمارة...

همسات تحملها نسمات الربيع القادم على استحياء...

((.. المهم عمر سليمان ما يدخلش فيها..))

((.. الإسلاميين فرصهم مش كبيرة بعد أدائهم في البرلمان..))

((.. راحت على قناة واحة خلاص... بيقولك يو سي بي جاية من الآخر...))

((.. بيقولك فلول..))

((.. بيقولك إسلاميين...))

((.. بيقولك موزعين عليهم كنتاكي..))

((.. بيقولك ....))

لا يزال «بيقولك» لم يصمت بعد!

توقف لحظات عاودته فيها لسعات ظهره والكلمات في ذهنه تعكر صفو رفاهيته...

أخرج سيجارة مور بنية ممشوقة أشعلها... تمشى رائحًا غاديًا أمام المدخل يتأمل المنازل في سكون العشاء...

يجلس مرة أخرى في سيارته، يحتمي في درقته كسلحفاة...

أغمض عينيه وارتكن على المقود لحظات... موسيقى عمرو إسماعيل لازالت المفضلة لديه بغض النظر كونها مصاحبة لغناء أو لا...

((.. كان واحد من الناس... زي كل الناس... ناس عايشة بتجري وشقيانة وأهي عايشة وخلاص....))

يضغط زر الأغنية التالية دون أن يرفع عينيه... مقطوعة رحيل المميزة... لا يزال يحتفظ بالأعمال الكاملة لعمرو إسماعيل منذ أن كان...

((.. كان واحد من الناس...............))

..... طالبًا في الجامعة... منذ أن كانت شرائط الكاسيت هي الوسيط الرسمي لنقل الأغنيات...

- خالد!

رفع خالد عينيه فوجد إمام على الناحية الأخرى من زجاج السيارة الأمامي...

نزل من السيارة وبثلاث خطوات كان دافنًا رأسه في صدره كثور إسباني...

- خالد... إزيك... يا راجل سيِّبت ركبي... شايف العربية تحت البيت ومش عارف عربية مين... اليومين دول لبش إنت عارف والمنطقة معروفة محدش عنده عربية زي دي... ما شاء الله لا قوة إلا بالله...

مبروكة عليك... الله! إنت بتعيط!

دمعتان دقيقتان سالتا من نهر جاف فمسحها خالد بكفيه، ربت على كتفي إمام فاقتاده الأخير صاعدًا إلى شقته...

- مكنتش عارف إنك واحشني كده إلا دلوقتي...

- بس دي مش دموع وَحشة يا خالد... تعالى بس... عاملك سمك مقلي كُل وبِزَّقلي... ادخل... وعندي لك مفاجأة بقا...

- إوعى تكون نزلت وسِبت المفتاح جوه زي عوايدك...

اكتشف خالد ذكريات مشتركة بينهما بدت قديمة وموجعة... حياة كاملة بتفاصيلها عادت إليه في دقائق...

ما أن انفتح الباب حتى أطلت الطفلة الصغيرة منكوشة الشعر فاقدة السنتين الأماميتين..

- بابا... رحت فين يا أخي جننتني!

- بنتي جنة... عمك خالد... اللي عاملينله السمك...

انحنى خالد مبتسمًا يمد يده لجنة... احمرت وجنتا الطفلة خجلًا، خبطت بكفها على كفه ثم جرت تتربع فوق الأريكة تشاهد التلفاز...

- ماشي يا جنة... لينا قعدة... ده سلام برضو...

- آه... سلام بناتيتي!

أخرج إمام كرسيين خشبيين يحملان وجه كليوباترا على قاعدتيهما في الشرفة، جلس إمام على كرسيه المقلوب ممطيًا صهوته مستندًا على ظهره المقوس...

- إزيك يا خالد... لك وحشة... إيه رأيك في جنة؟

- ماشاء الله عليها... ربنا يحميها... بس إشمعنى خدتها دلوقتي؟

- حسيت فجأة إني محتاج أشيل مسؤوليتها بقا... بصيت حواليا لقيت الناس كلهم خرجوا من قواقعهم... مابقوش يخافوا... في حاجة حسستني إني ناقص أوي لما يبقا كل مسؤوليتي تجاه بنتي مكالمة تليفون وكام جنيه أبعتهوملها في البوسطة... البنت دي بتديني أكتر ما بتاخد مني...

- ربنا مايحرمكوش من بعض...

- احكيلي من ساعة ما نزلت من هنا لحد ما قابلتك في الشارع...

- أحكيلك سنة؟

- أقل واجب... تعالى بس لقمة كده بسم الله واحكيلي...

* * *

تسير نورين ليلًا في الحديقة شاردة، أول ليلة لها وحدها منذ عام... بلا خالد...

فتيات الحاشية لا يحببن... لا يكرهن...

هن قطع فنية تغري فقط بمزاد مشتعل... طُعم للصيد...

لسن فتيات ليل، ولسن حرائر...

جواري القرن الواحد والعشرين...

تذكر نورين إنها من القلائل اللاتي رأين السيد في ثوراته فلم تخف... دخلت السرداب مع جدها فخر الدين طفلة، رأت سيدها يثأر ويعذب...

رأت القوة المطلقة تص من عينيه، تعكس شبقها المراهق وشوقها للمس شعره... للمس جسده...

نظراته تقول إنه يعرف ما يعتمل في نفسها... قسماته تعكس لا مبالاة تثيرها أكثر...

تتبادل بنات الحاشية الأحاديث الهامسة ليلًا عن وسامة السيد ورجولته وغموضه... واكتماله...

كلمات لم تتأكد منها إحداهن قط...

يقولون أن السيد تزوج مرة واحدة فقط وأقسم ألا يتزوج ثانية...

يقولون أنه تزوج مرتين...

تتمنى كل فتاة في الحاشية أن تكون الزوجة أو العشيقة، إلا أن نورين هي الوحيدة في جيلها التي رأت حقيقته بعينيها، ولا زالت تعشقه...

لا زالت أول المؤمنين بجنته وجحيمه طمعًا لا خوفًا...

توقن بوجود أكبر من وجود السيد يستحق أن تخشاه...

لا زالت عذراء كباقي فتيات الحاشية... لن تتزوج إلا من يختاره السيد...

شيء في خالد أثارها، جذب انتباهها لمدة عام كامل. قصدت منذ البداية تنفيذ أوامر السيد بشأنه، لكنها انجرفت بشكل لا يليق بفرد من الحاشية...

السيد يعلم بانجرافها ولا يعلق...

تركت هاتفها مغلقًا في غرفتها وابتعدت عنه كي تنساه... الأوامر أن يعود خالد في إجازة لحياته السابقة بشكله الجديد...

أن يقارن... ويختار بإرادته ...

ترفع عينيها نحو القمر وتتساءل... ماذا يفعل خالد في عالمه الآن؟

* * *

يغسل خالد يديه بينما يتكئ إمام بكوعه على حلق الباب محاذرًا تلويث خشبه بيديه المغطاتين بالزيت...

- بس قناة واحدة دي عربية وحكومية آه... بس بيجيلها تمويل من فرنسا وإنجلترا...
- العدوان الثلاثي خلص من زمان يا إمام... مفيش بيننا وبين فرنسا وإنجلترا تار... الصابون ده وحش أوي... شوفلك نوع نضيف شوية...
- بس مفيش مصلحة... مفيش تعاون... في السياسة اللي مش صاحبك عدوك... حتى لو عداء غير معلن... وكله صابون يا خالد ماتدقش...
- ياعم وإحنا صحاب مين؟ الخلايجة بيتعالوا علينا، والأفارقة بنتعالى عليهم... تعالى اغسل إيدك... معندكش قهوة؟
- بن يمني محوج... هايعجبك...
- مابقيتش بحبه... مشيها نسكافيه تقبل سكر خفيف...
- ماشي... بس لسة قلقان من جهة القناة دي... ياعم بلدهم فيها قاعدة أمريكية...
- إمام... ماتعكننش عليا... أنا مش هاشتغل أصلًا في القناة دي... ده مجرد تدريب إعلامي... معلمونيش أكتب بالحبر السري ولا أصور المواقع العسكرية... ومؤيد مش أبو جودة...

جفف إمام فمه ولحيته ثم وضع البراد العتيق المسود على النار...

- أضربهونك؟ نسكافيه يا جدع مش مؤيد... ماشي... مش هايعمل وش أوي عشان السكر قليل... بص يا خالد... الميكروفيلم وإيلات ورأفت الهجان راحت عليه خلاص... التجسس بقا أسهل كتير... وبدل ما يتعبوا نفسهم ويتجسسوا... بيخلونا نعمل اللي هم عايزينه أسهل...
- هو برنامج هطلع أقول فيه كلمتين أضحك الناس... سخرية سياسية يعني وشكرًا على كده... لا هبقا عميل ولا من بتوع توفيق عكاشة وجو المؤامرات الرخيص ده...
- أنا بقولك على إحساسي وإنت حر طبعًا... أنا ما بفهمش في شغلك... بمناسبة شغلي أنا بقا... دكتور محرم فص ملح وداب... بس مش دي المشكلة الأصلية، علبة الدالوكساسين اللي إنت جبتها من الصيدلية... فاكرها؟
- أيوة... مالها؟
- رقية من كم شهر طلبت منها تدور كويس في أدوية الحاجّة لا تكون حاجة مدفوسة هنا ولا هناك... لقت علبة دالوكساسين، علبة الدوا دي فيها نص قرص من دوا لونه أصفر غير شكل أقراص الدالوكساسين اللي إنت جبتها...
- يعني إيه؟
- كلمتك بس ماكنتش فاضي إنت... نص القرص مكتوب عليه رقم مش اسم... بعته يتحلل... كله مواد غير معروفة...
- يعني الدوا التجريبي مكانش الدالوكساسين؟
- لا... النورفلوكساسين مركب عليه كلام، بس مش تجريبي... اسم

المضاد الحيوي نفسه كان غريب عليا... أقصى حاجة ممكن نعملها، أولًا نثبت إن النورفلوكساسين هو اللي سببلها الفشل الكلوي، ثانيًا نلاقي روشتة فيها البرنسكربشن باسم محرم ثابت، ونبلغ فيه بتهمة الإهمال... كان لازم يتأكد من أن والدتك عندها حساسية منه ولا لأ...

- بس أم خالد كان عندها حساسية ضعيفة زي ماقلت... ممكن مايكونش الدالوكساسين هو اللي عمل فيها كده...

- ممكن أوي... بس هاتثبت إزاي؟ آخر نص قرص راح خلاص... حتى لو معانا أقراص تاني، الدوا مالوش علبة وواضح إن الحاجّة كانت بتحطه في علبة الدالوكساسين الفاضية علشان شبه البرطمان مش شرايط زي الأدوية التانية بتخلص وتترمي... كل الحكاية إنه مضاد حيوي مش متداول في مصر بالاسم التجاري ده... مستورد وإحنا غالبًا بنوصف المضادات المصرية أرخص.. غالبًا المواد الفعالة فيها أقل بس أرخص وبيغطيها التأمين الصحي... ده اللي خلا شكوكي توجهك في الاتجاه الغلط إنه دوا تجريبي، بس شكوكنا كانت في محلها... سبحان الله... ربك بينور للواحد طرق عمره ما كانت هاتيجي على باله...

في شرود تمتم خالد كأنه لم يسمع باقي كلمات إمام...

- كانت ما بتشتريش الدوا... تاخد مني الفلوس تأكلني بيها... وتاخد من محرم الأقراص تقتل نفسها بيها... عمرها ما خلت حد فينا ييجي معاها عنده...

أشعل خالد سيجارًا بنيًّا آخر وصب النسكافيه في حلقه دفعة واحدة... ينفث الدخان من طاقتي أنفه...

- ما تجلدش نفسك أكتر من كده... اللي حصل حصل...

- أمي هاتتعالج أحسن علاج دلوقتي... هسفرها بره طالما مش عارفين ليه مابنفوقش... ماكناش هناخد حق ولا باطل منهم... أنا مش عارف أفكر يا إمام... كل ما أفتكر إني كنت بسيبها تروح للدكتور لوحدها... تجيب الدوا لوحدها... تعاني وتقتل نفسها علشاني وأنا ما بحسش... عايش مش دريان باللي حواليا..

- وحد الله أمال... المهم بقا تركز في موضوع الغيبوبة دي لأن ماليش صفة كل شوية أنطلهم وأسألهم على نتايج فحوصاتهم... ما قلتليش... ماكلمتش البنت بتاعة التحرير تاني؟

- هه؟ لا... كنت في إيه ولا في إيه أنا... آه...

جلس خالد على المقعد ممسكًا معدته...

- مالك يا خالد؟

- معدتي.. ياه يا أخي... مش تنضف شوية من زيت العربيات اللي بتقلي بيه ده...

يفهم إمام الدعابة حين تلقى أمامه... ولم يكن خالد يداعبه... شيء في نظرته للشقة وللطعام قد تغيرت... أنَفَة واضحة في التعامل مع كل ما كان حبًا ومريحًا له في حياة إمام...

- زيت العربيات ده هو اللي عملنا رجاله يا خالد... ولّا سنة في المقطم نسيتك؟

- يوه بقا... أهو أنا كنت مستني الكلمتين دول من ساعة ما نزلت من العربية... اتغيرت يا خالد... نضفت يا خالد... عيشتنا مابقتش عاجباك يا خالد... ياسيدي هي عيشتنا دي كانت تعجب حد أصلًا؟

ولا هو تقطيم وخلاص... مستخسرين فيا الفرحة وشم النَّفس...

قام خالد ممسكًا بمعدته متجهًا نحو الباب... فتحه ووقف لحظة يلتفت إلى إمام الصامت وسط الصالة وخلفه جنة الغافية في سلام...

أغلق الباب خلفه ونزل يضرب ظهره في الحوائط الخشنة للسلم...

معدته والصداع يفجران جسده من الداخل ويجيلان ظهره أخاديد ملتهبة...

عَبَر الشارع يبحث في جيبه عن مفتاح شقته... الظلال أكثر مما كان يذكر... الهمس أعلى من أي وقت مضى...

الخوف والقلق والتشاؤم يعس في الطرقات، يطلق النيران على البشر ويطارد الأمل...

شيء تغير لا يدري ما هو...

رائحة مطهر الفنيك المكتومة في شقته المغلقة... الشقة نظيفة مرتبة تشي بيد رقية في كل ركن فيها...

ترنح في الطرقة القصيرة ودفع باب حجرة والدته...

الدولاب المسنود على صندوق خشبي لا يزال يوارب جفنيه، محشو بالملابس والذكريات المؤرقة تمنعه من النوم...

- ياترى مخبية إيه تاني يا أم خالد... دوا مالوش اسم وفلوس... كنت فاكرني عارفك زي ضهر إيدي... كنت فاكرك مكسورة الجناح... محناسة... ماتعرفش تخبي... يا ما في الجراب يا حاوي...

شرع يفتح الأدراج ويقلب محتوياتها فتتساقط صورًا مصفرة وفواتير كهرباء ومياة... دبابيس شعر ملفوف حولها شعيرات بيضاء مخضبة بالحناء... شرائط

من أدوية بلا علب... رسومات رقية القديمة بخطها الطفولي المتعرج... كروت معايدة... والمزيد من الصور...

عقد إيجار وعقد زواج... شهادة وفاة وإعلام وراثة... أوراق معاش...

حياة كاملة مسكوبة في الأدراج المغبرة القديمة...

مجلات وكتب... مصاحف من مكة... زجاجات عطر خاوية...

وروائح لا حصر لها أجرت العمر كنهر ثائر أمام عينيه...

خلع قميصه ووقف يضغط أسنانه، غاضبًا، حزينًا...

يلكم الوسادات كاتمًا صرخة تأبى الأسر...

تقع عيناه على معطفه مفرودًا فوق ظهر الكرسي... يهرع إليه متفحصًا جيبه... أفرغت رقية الجيب من الشظايا فقلبه يبحث عن شظية واحدة من حياة قديمة قدم الميلامين...

شظية بحجم إبرة طويلة مندسة بين الثنايا...

قبض عليها وانهار يبكي ماضيًا لن يعود...

ظهره مقوس مكسور تتلوى فوقه أفاع من كلمات، كل كلمة بلون مختلف... تنز منها لأول مرة دماء سميكة...

وجروح لم تلتئم قد فتحت من جديد...

* * *

- الكلمات الخامسة -

انتصفت السنة ووفى السيد بوعده...

في زيارة ليلية بَشر خليفة الإمام بالنصر فبشر بدوره أولياءه الذين لم يصبروا واحتفلوا بنصرهم المبين على أعداء مبادئهم...

في ذات الليلة أضرم السيد في قلوب المنهزمين جحيمًا بلبل ألسنتهم فاختلفوا ملعونين بلعنة برج بابل القديمة...

تروى التوراة أن الناس بنوا برجًا ببابل بغرض الوصول إلى الله في عُلاه، فضربهم الله بلعنة فرقت ألسنتهم فلم يفهموا بعضهم البعض ومن هنا جاء اختلاف اللغات...

يروي السيد أن الناس قد بنوا بنيانًا بغرض الوصول للعرش، فضربهم طمعهم بلعنة فرقت ألسنتهم فهم متحدون في الظاهر، أعداء في الباطن... بلبل ألسنتهم طوائف وأحزابًا...

يومها ضحك السيد كثيرًا كما لم يضحك من قبل...

يشاهد تخبط الفئران في المتاهة من أعلى ويضحك على ضلالهم...

تقول القصة الخيالية أن «إيلا» وهبتها جنية هبة يوم مولدها وهي هبة الطاعة... تحولت الموهبة إلى لعنة حين تجاذبت طاعة «إيلا» مهالك الحياة ومفاسدها فخرجت في رحلتها للبحث عن الإرادة الحرة...

وكانت قصة Ella enchanted!

تقول القصة الحقيقية أن أتباع خليفة الإمام وهبهم قائدهم هبة الطاعة، ستتحول الهبة إلى مضحكة علنية حين يتخبط أولو الأمر منهم في انتظار أوامر علوية وتلقينات متأخرة، فخرج الأتباع على الناس في رحلة لتعزيز إيمانهم وتكفير الآخرين...

حيثما يلتقون، خليفة الإمام، والتابعون... يكن السيد ثالثهم!

وحيثما يختلفون، المرشحون والمستبعدون، يكن السيد هو وحي الخلاف ورسول الشتات...

ينتشر الظلام فوق مصر... ببطء لا يُرى، لكنه يحس...

فقدت الأيام حتى مرارة طعمها... وما بين الانتفاضة والأخرى، يتهامس المصريون...

«رايحة على فين يا مصر؟؟»

* * *

«على اختلاف الأحزاب السياسية وتنوعها، لم يجد المصري من يتكلم عنه بصدق... من يقدم مصلحته أولًا فيهدأ ويطمئن ويترك من وكله للكلام عنه...

ننتظر أن يتكلموا... فيتهامسوا فيما بينهم ويسددون لنا النظرات (من تحت لتحت) وكأنه تآمر واضح مكشوف علينا...

كان لابد وأن ننزل الشوارع ونصرخ... الحي لا يموت...

كاد أن يكون لكل خمسة أشخاص حزب وحدهم... يأبى الجميع الاتحاد.. تكلموا كلهم دفعة واحدة فداست كلماتهم كلمات بعض...

ولا يزال العرش عاليًا... بعيدًا عن ضوضائنا...

لم يبق إلا الإعلام إذن... وسيط سحري يصل لكل مكان وإن ارتفع أو دنا...

وهنا تكمن الخطورة...

يقول المستشار الإعلامي جوزيف جوبلز «اعطني إعلامًا بلا ضمير، أعطك شعبًا بلا وعي...»

يقول البروتوكول الثالث عشر من بروتوكولات حكماء صهيون المزعومة التالي «علينا أن نلهي الجماهير بشتى الوسائل، وحينها يفقد الشعب تدريجيًا نعمة التفكير المستقل بنفسه، سيهتف الجميع معنا لسبب واحد هو أننا سنكون أعضاء المجتمع الوحيدين الذين يكونون أهلًا لتقديم خطوط تفكير جديدة»

يقول المحلل الروسي إيغور باناريين (إن موقع ويكليكس وغيره كان بمثابة بداية للحرب الإعلامية العالمية الثانية التي تقودها أمريكا وبريطانيا وإسرائيل... فالأولى كانت لتقسيم الاتحاد السوفيتي في الحرب الباردة والآن تجري الحرب الإعلامية الثانية لتقسيم الشرق الأوسط كافة)...

أكتب هذا وأنا أرقب الإعداد لأولى حلقات «تحية للمصريين» لمقدمه الشاب خالد تحية...

لمن لا يعرف، خالد تحية هو الشاب الذي ظهر في فيديو ميدان التحرير وأنا... خلود سامي... تلك الفتاة التي ثارت لأول مرة فتعرضت لانتهاك جسدها... خالد تحية هو الذي رفض الكذب في برامج مغرضة عميلة مثل

برنامج محمد النابلسي ورفض الإتجار في موقف نبيل أنقذني فيه وأظهر المعدن الطيب للشباب المصري...

خالد تحية كان سائرًا بجانب الحائط مع جموع الشعب يومًا... ثم ثار في ثورته... ثم رفض الإتجار بثورته كما رفضنا...

ثم ها هو يغيب ثم يعود بقوة ليقدم تحية خاصة لأهله وإخوانه المصريين...

لا... لا تشبه تجربة خالد تجربة الدكتور باسم يوسف، باسم يوسف يقدم نقدًا على الطراز الأمريكي، لاذعًا، يتجاوز خطوطًا حمراء يرفضها البعض من المتحفظين...

أما خالد، فهو شاب مثلي ومثلك، تأمنه على بيتك في غيابك... يتحدث كما تتحدث، ويشعر بما تشعر به... هو صوتك بلا أي تحيزات أو تلاعب...

أنتظر في شغف الحلقة الأولى وأتمنى أن تظهر بشكل يليق بالمجهود المبذول فيها...

تحية، لخالد تحية!

خلود سامي

جريدة حرية»

لم تصدق خلود ظهور مقالاتها في جريدة واسعة الانتشار مثل حرية، بل لم تصدق المكالمة الهاتفية من السيد إسماعيل القاضي صاحب دار نشر ورئيس تحرير الحرية، مكالمة قصيرة مقتضبة مفادها أن عرضهم مزدوج، كتاب يجمع مقالاتها التي نشرتها في مدونتها الصغيرة، وعامود أسبوعي في الجريدة تحت عنوان «تحت العدسة»...

طُلب منها أن تغطي في أولى مقالاتها برنامج تحية للمصريين بصفتها المحرك

الأول لموقف خالد في التحرير وسبب غير مباشر في وضعه «تحت العدسة»... هي أقدر على توصيل انطباع قريب ذي مصداقية عن الشاب البطل خالد تحية صاحب الفيديو المثير!

في جولتها في الاستوديو الضخم الذي سيتم فيه التصوير، غاص قلبها في صدرها... هل تراه؟ هل يذكرها؟

رأت صورته في البوسترات الدعائية في الشوارع... كلما تضخم البوستر كلما زادت ثقة الناس بأن الظاهر فيه معروف محترف قابل للتصديق...

لشد ما تغير مظهره، نظرته صارت أكثر ثقة وثباتًا... إلا أن لمحات الحزن قد زادت سوادًا فيه... هو خالد الميدان يتخفى وراء خالد اليو سي بي...

جالت في الاستوديو واتطلعت على بعض من فقرات البرنامج على الورق، لكن خالد لم يكن هناك...

و أمام امتعاض مها أمها من جراء ذكرها لموقف التحرش الذي تعرضت له في الميدان، تسربت السعادة تدريجيًا من بين فتحات من تقريع صنعتها أمها ببراعة في روحها الهشة...

وحين يحزن المرء، يجد التشاؤم مجالًا للازدهار... تعيد قراءة مقالتها والتي تكاد تكون أُمليت عليها معنى لا نصًّا...

تجيد ميرفت الأنصاري، الصحفية السمينة ذات الشعر الثائر، التلاعب بتفنيدات القراء قبل أن يطرحوها هم...

تعلم أن البرنامج سيقابل بالرفض والتشبيه ببرنامج باسم يوسف...

سيتكلم الكثير عن الإعلام الفاسد المفسد وعن بروتوكولات حكماء صهيون وعن المؤامرة الصهيو ـ أمريكية فتقوم هي بذكر كل التفنيدات ولي عنقها لتقف قسرًا في صف وجهة نظر من تعمل لديهم...

تعلمت خلود ذلك الدرس من أستاذتها في الجريدة ميرفت الأنصاري...

- بصي يا خلود... الناس مش هايعجبهم العجب... اشتري دماغك إنت الأول... حطي في مقالك كل الآراء اللي إنت خايفة منها وخليها في صفك... انفي الاتهامات قبل ما تتقال علشان الناس تسكت...
- بس كده هصادر على رأيهم...
- مش هاتصادري عليه... إنت بس هاتجاوبي قبل ما يسألوا... فاهمة؟
- فاهمة...
- أي حد هايحاول بعدك يتكلم عن إن برنامج تحية للمصريين مضلل أو ماسوني هايبقا سارق منك الفكرة والمقتطفات اللي ذكرتيها وموقفه هايبقا أضعف...

محنكة هي السيدة ميرفت... قريبة هي من إسماعيل القاضي... تأخذ خلود بنصيحة أمها في التقرب منها...

- خليها تاخدك تحت جناحها يا خلود يابنتي... اركبي الموجة قبل ما تروح على الرمل...

لا زالت تخشى لقاء خالد وهو لقاء محتوم...

لا زالت تخشى تكسر الموج على صخور الواقع..

* * *

آلام المعدة غدت لا تطاق... يخفيها خالد خوفًا من أمر بالكشف الطبي... لن يراه أحد عاريًا ويرى وصمة ظهره المخيفة...

لم يتصل به إمام طيلة الشهرين الفائتين من يوم أن خرج خالد غاضبًا من بيته... لم يكن له حق في كل ذلك الغضب...

الطوفان هي الكلمة التي أطلقها خالد على احتراق الكلمات العنيف لعقله في موجات غير محددة المواعيد...

الطوفان كان السبب في شجاره مع إمام... والمكابرة هي السبب في عدم اعتذاره...

- خالد... مش هاتكلم إمام؟ الرجل لسة بيزور ماما كل أسبوع...
- طب هو ماكلمنيش ليه يباركلي على البرنامج الجديد؟ ماشافش الإعلانات؟

((... المكابرة....))

- إنت اللي غلطت فيه يا خالد... زيت إيه بس وبتاع إيه... طب معدتك لسه بتوجعك أهه... يبقا من الزيت برضو..؟ ماتزعلش مني يا خالد... إنت زرت ماما كم مرة السنة اللي فاتت دي؟ وهو زارها كم مرة؟
- يااااه يا رقية... كفاية تقطيم بقا... ما كنت مشغول قدامك أهو... الدكاترة بيطمنوني كل يوم على حالتها.. أعمل إيه تاني؟ أم خالد مش واعية يا رقية... أروح أتعذب جنبها وخلاص؟

((.. يسمعها تقرأ سورة ياسين في غيبوبتها.....))

- مين اللي قالي إنها حاسة وسامعانا هه؟ آه... واحد اسمه خالد... ماتعرفوش؟
- رقية... افصلي... أنا تعبان وتسجيل البرنامج بعد بكرة...
- كلم إمام يا خالد... اشكره على تعبه... الرجل لا قريبنا ولا مفروض عليه التعب ده كله...

- حاضر... افصلي بقا...
- مش هاتيجي تاكل الجلاش اللي باللحمة؟! وإلا والله لأرميه للفراخ... أنا تعبت!

تنهار رقية بسهولة وتمزج في براعة غضبها وسخطها وحبها في كوكتيل كاريبي خاص بجزيرة المنيل!

- هجيلك بليل... إلا الجلاش! ماتزعليش يا برقوقة... سلميلي على ضحى...

يغلق الهاتف ويسترخي في سريره الوثير... اتخذ قرارًا بأن ينقل سكنه للأبد في تلك الشقة بالمقطم والتي أمضى بها العام الفائت أثناء تدريبه...

ترك كل أغراضه القديمة في شقة بين السرايات... فقط أخذ بعض الصور في كيس بلاستيكي،

وشظية طبق الميلامين المكسور...

أخرج صورة لأم خالد ابنة الثلاثينات... جميلة يعلو رأسها جمة عالية كما كانت الموضة وقتها، ترتدي نظارة شمسية ضخمة يعلم أنها كانت خضراء اللون...

أوحشته أم خالد... لكنه لا يزال غاضبًا... كيف تفعل ما فعلته؟ كيف استطاعت إهانة رجولته دون قصد... كيف استطاعت أن تكن معطاءة فوق احتمال البشر...

((.. مقدرش أبص في وشك... مش هسامح نفسي....))

ينظر للهاتف جواره... هل يتصل بإمام؟؟ يعاند الصوت في رأسه والذي يلح عليه في الاتصال...

((.. كلمه واقفل... وبعدين بليل كلمه تاني... والصبح روحله خليه يكشف عليك... كده مش هايبان إنك صالحته علشان محتاجه...))

لن يتصل... طالما أن هناك سبب مادي للاتصال، فلن يسمح لنفسه بذلك...

((.. حجة علشان ما تتصلش... طب اتصل وما تروحلوش..))

رفع سماعة الهاتف ثم وضعها مرة أخرى... قام يتحسس الملابس الجديدة المخصصة للحلقة...

((.. مفيش بدل... هدوم عادية زي اللي بيلبسها أي شاب... بس برضو ماركات عالمية... مش مهم «إنك» تكون... المهم «كأنك»... كأنك لسة واحد منهم... كأن كل واحد فيهم ممكن يبقا زيك... اتوحد معاهم بس برضو، خليك بعيد..))

خلع قميصه وولى ظهره نحو المرآة... لا تزال الكلمات محفورة متشابكة... هادئة... لا تفور وتضطرب إلا حين يغوص في عرق الناس وأحلامهم..

ما يقلقه هو تغير ألوان الكلمات أكثر كل يوم... يحمل ظهره ستة ألوان مختلفة متقاربة للعين غير المدققة... كلها مكتوبة بخط عثماني ملتوي شديد الزخرفة...

أصر على أن تكون أول حلقة مسجلة وداخل الاستوديو، فهو لا يعلم ما يمكن أن يحدث وسط هذا الحشد من الحضور... لابد من باب خلفي للفرار...

تمر الساعات سريعًا... وتتسارع معها دقات قلب خالد نحية...

* * *

رغم انتصارات السيد المتتالية... يشعر بالخطر... يطفو ثم يغرق تحت ركام الحياة، لكن الخطر يصمم على التواجد على السطح مهما غلا الثمن...

يقولون في مصر «الضرب في الميت حرام»... ارتكب النظام السابق ما هو أبشع من الضرب في أناس ظنوهم أمواتًا...

يرى السيد أن المصريين يولدون أمواتًا... يتقلبون بين أيدي حكامهم كما يقلب الميت بين يدي مغسّله... يصبون الدماء والقيح صبًّا على أجساد كفت عن الانتفاض...

وجاء البعث غير متوقع لمنكريه...

اعتاد السيد على هكذا أحداث غير متوقعة تبطئ من سير خطته القديمة... لكن ما حدث في مصر غريب وكأن القوم استبدلوا قومًا آخرين...

أحد أسلحته الحزن والتشاؤم... الظلال الزاحفة على الحوائط والأنفس...

هو سلاح لا يخيب... بطيء... مدمر...

يكتشف المصريون الحقيقة الكابوسية... الثورة لم تستبدل النظام... فقط استبدلت الأشخاص...

يأتون ويرحلون عن مصر...

يضعون التيجان ويرفلون في الذهب...

يتعممون ويرطنون بالتركية...

يرتدون البذلات ويعزفون الجاز...

يؤدون التحية العسكرية ويصفون النجمات على أكتافهم...

يدخنون الغليون الكوبي ويهتفون بحياة التشي جيفارا...

يطيلون اللحى ويتحدثون باسم الإله...

ذات الممثل العبقري يظهر كل ليلة على ذات المسرح يؤدي فصولًا مختلفة من نفس المسرحية الهزلية...

أحرق القوم المسرح واستبدلوا به مسجدًا... ولا يزال الشيخ يؤدي فوق المنبر أداءه القديم...

الدعاء للملك...

استعن بالقط ليطرد الفأر من بيتك... ثم استعن بالكلب ليطرد القط... ثم استعن بالأسد وابحث عن بيت جديد!

حين تنفذ الحيل، سيبحث المصريون عن بيت جديد، يرحلون مترحمين على أيام الفأر الطيبة...

يراهن السيد على التركيبة النفسية لغالبية المصريين... سيحاصرهم ولن يترك خلفهم جدارًا...

سيترك هاوية...

* * *

يضرب رأسه في الحائط خلف الكواليس...

الطوفان السخيف...

يلجأ المصريون للنيل في أزماتهم... في أفراحهم... شيء غريب يربطهم به أكثر مما يربط أي شعب بنهره...

في الخامسة صباحًا أوقف خالد سيارته فوق كوبري الجامعة وأمسك بكلا كفيه في السور المترب... رفع رأسه وتنشق الهواء...

لم يختلف الأمر كثيرًا عما كان يفعله في أسوان رغم اختلاف النيل ولونه ورائحته...

لا يزال يشم نفس رائحة النيل النقية في طفولته وهو يراقب قوس قزح عند السد العالي...

هدير الماء يصفي روحه الغضة البريئة... هدير صاخب، هادئ... يسترجعه كاملًا الآن...

الشارع الخالي خلفه... يرفع رأسه مرة أخرى ويتنشق الهواء...

((.. ولسه بيجري ويعافر...))

ساعات قليلة تفصله عن تسجيل الحلقة... التوتر ووجع معدته يحاصرانه في الركن...

ينحني فوق السور ويرمق الماء الجاري في مساره الأزلي... بقع من الزيت على وجه الماء... تدور حول نفسها في زخارف تشبه أوهام المجانين...

تشبه الكلمات على ظهر خالد تحية...!

يضيق عينيه ويميل أكثر عله يرى بوضوح... هي بالفعل كلمات، بعضها مقروء وبعضها يبدو بلا معنى تقريبًا...

بعضها بحروف لا يعرفها... ربما هي ليست حروف من الأساس...

خرير الماء البعيد وسط الهدوء يشكل كلمات متداخلة بعيدة...

نفس الانطباع الذي يحدثه الماء الجاري فيه حتى اليوم... فقط اعتاد الاستحمام على أنغام عمرو إسماعيل العالية... لا يزال يأمل أن تندرج تلك الهلاوس السمعية في إطار المرض النفسي...

أول شيء سيفعله صباحًا هو اللجوء لطبيب نفسي بالرغم من كونه يعلم

جيدًا أن ما يمر به لا علاقة له بعلم النفس، وإنما بما وراء علم النفس...

ولا يزال يضرب رأسه على الحائط خلف الكواليس...

صوت قرعات كعب نورين يقترب...

- خالد... معايا ضيف بيقول إنه يعرفك...

يلتفت خالد ليجد إمام ممسكًا بكف جنة وقد صفف شعره ولحيته القصيرة بعناية... وكان مبتسمًا...

- إمام... أهلًا... أنا...
- مبروك يا خالد... مبروك يا أخويا...

احتضنه إمام وربت على كتفه بقوة... يهدأ الطوفان وينسال ماءً باردًا في قطرات حتى يتوقف...

- ما كنتش عارف محتاج وقفتك معايا قد إيه... إنت أصيل يا إمام...
- أخبارك إيه...؟ تعال...

لف ذراعه على كتفه وابتعد عن نورين الواقفة تراقبه في تحفز غير معلن... تدور جنة حولها في فضول...

- أخبار الكتابة إيه؟ واجعاك...؟
- مش أوي... بس الهلاوس... كلام الناس وأفكارهم... الصبح وقفتلي شوية على النيل أهدي أعصابي... لقيت نفس الكتابة على وش المية!
- طيب طيب... ماتركزش في الموضوع ده دلوقتي وبكرة إن شاء الله نروح المستشفى ونعمل شوية إجراءات كده نطمن عليك... رقية وجوزها مع الجمهور بره...

- هنخلص ونسهر سوا في أي مكان...
- إن شاء الله... ماتشدش أعصابك بس...

ابتعد إمام وابنته بينما اقتربت نورين تضع خيطًا أحمر اللون في كف خالد...

- إيه ده؟
- علشان الحظ... البسه في إيدك كده زي ما أنا لابساه... بس دخله جوه الكم علشان ستايلك ما يبوظش...
- شكرًا... مع إني مش مؤمن بالحاجات دي بس ماشي... هدية مقبولة...
- مين ده يا خالد؟
- دكتور إمام... حكيتلك عنه قبل كده زمان...

دس خالد السماعة في أذنه... يسمع توجيهات المخرج ومن فتحة قميصه أطل ميكروفون صغير أسود...

خرج خالد وسط الديكور المبهر... يذكره كل شيء فيه بشارع المعز وحفلات التنورة... إتقان شديد في المباني والألوان والإكسسوار...

ممثلون يقدمون أدوارًا لبائعين من عصر قديم... أماكنهم مدروسة كي لا تشتت الانتباه...

تخفت الإضاءة...

* * *

((... هنبدأ... ثري تو... مهند... كاميرا ثلاثة... وان.............))

وقع أقدام خالد في حذاءه ذي النعل الخشبي... (٤٥٠ دولار)... يرفع

رأسه ويبتسم حين تسقط الإضاءة فوقه...

ابتسامة هوليود الساحرة... (٦٠٠ دولار)... في بشرته الداكنة...

- مساء الخير...

((.. كاميرا... اتنين... كلوز..))

-... أنا خالد... خالد تحية... أكيد ركبت معايا ميكروباص أكتوبر مرة... أو كنت بزاحمك في مترو الجامعة... يمكن مشينا سوا جنب الحيطة... ويمكن مشينا في جنازة وكنا شايلين نفس الميت... ويمكن رقصت قدامك في فرح ماتعرفش مين العرسان فيه بس كانوا عاملين بوفية مفتوح فيه لحمة... يمكن شفتني فدخلت قلبك، أو قلت اصطبحت بوش مين النهاردة...

((.. كاميرا ثلاثة... ميلم...))

يلتفت خالد لكاميرا ٣ ... يعدل من وضع ياقة قميصه... (٢٧٠ دولار)... مع رفع كتفيه قليلًا... يميل برأسه يمينًا... حركة اكتسبها من نورين، لكنها ستصير ماركة مسجلة له فيما بعد... لابد من حركات خاصة للنجم... لابد من طريقة كلام خاصة...

- المهم... إنك أكيد شفتني لإني شفتك... وعرفتك... وجابوني هنا علشان أتكلم بالنيابة عنك... جدعان مصر...

((توتال الجمهور..))

الجمهور الملقّن يهتف... «أيوة»!

((.. كاميرا اتنين... أمريكان...))

يمس خالد موضع قلبه بكفه ثم يفرد ذراعه عاليًا تجاه الجمهور...

- جدعان مصر... تحية... للمصريين!

((.. تصفيق...))

((Cut..))

* * *

٢ـ الحاكم

شتاء ١٤٩٨ ميلادية...

جنوب شرق هايستان..

يركع الصبي الصغير على ضفة نهر أوركاس... يتشبث بالعشب الهش المثلج وهو يدلي القربة الجلدية ويرقب اندفاع الماء إلى داخلها...

يغمض عينيه وهو يستشعر الماء شديد البرودة يضرب جلده الخشن حتى سرى إحساس الخدر بكفه... يحب هذا الإحساس بل ويتعمده أحيانًا... في الشتاء الماضي لم تكن لديه قوة تحمل كتلك التي تجري بأوصاله الآن...

اليوم سيبلغ العاشرة، وقد وعدته سيدته بهدية خاصة...

قام وربط قربة المياه بكفين مجمدتين ثم حملها على ظهره... شهق من برودة المياه المتسربة عبر ملابسه الرثة إلى عموده الفقري... مازال الوقت مبكرًا لارتداء الفراء، لا بد وأن يدخر الأثقل للأيام الأبرد...

لم تعتد سيدته أن تهديه شيئًا لأي سبب، بل إنها لم تكن لتغير ما يرتديه لولا حجمه الآخذ في الازدياد بسرعة غريبة...

كان طويلًا، عريض الكتفين شديد بياض الجسد حالك سواد الشعر، انساب من شعره خصلات ناعمة على عينيه مع الحركة... حتى مع كمية

القاذورات المتراكمة عليه والتي تثبته كالغراء إلى الخلف، يصر شعره على الانزلاق وحجب عينه الزرقاء...

لا يحجب الشعر عينه البنية لسبب ما... فقط الزرقاء...

كان ليفوق أقرانه طولًا لو كان له أقران، فقد كان يعيش ـ منذ أن خبر الشهيق والزفير ـ مع سيدته في ذلك المكان المنعزل. يحمل لها الماء من النهر ويسرق ما أمكنه من طعام إن لم يجد ما يأكله مما تجود به الأرض الوعرة من حوله...

لم ير أطفالًا من قبل سوى كوريتشينا طفلة الراعي، وكل من قابل من رجال لم يرهم إلا من مسافة أو وهم نائمون... يسرق من رحالهم ما خف وزنه ويفر هاربًا...

يأتون ويرحلون بألسنتهم مختلفة اللغات، يتصيد المتكرر من الكلمات ويتعلم...

كان دومًا ما يسمع صيحات الرعاة في السهل القريب... يختبئ خلف الصخور ويرقب همساتهم في شغف... يدمج لغتهم المحلية مع صيحات زجرهم للحيوانات في لغة فريدة خاصة به لا يستخدمها أبدًا...

كوريتشينا طفلة الراعي تجلب الطعام يوميًّا لأبيها وتنظر إليه في محبة... دائمًا ما يختبئ ودائمًا ما تنظر إليه... اليوم تترك أباها يأكل مع أخوتها الكبار وتقترب منه ممسكة بكسرات خبز...

تتراجع شفتاه إلى الخلف كاشفة عن صفي أسنان مخضرة من وجبة حشائش سابقة ويلصق ظهره إلى الشجرة الغليظة خلفه ويزمجر...

صوتها رقيق أملس كالحرير رغم خوف خفي يَنسِلُ نسيجه...

ـ مي فاخيت زير...

في شجاعة نادرة تطلب منه ألا يخف...

يعلو زئيره ويهز رأسه في انزعاج بدائي...

تتراجع الطفلة ويسقط الخبز من بين يديها...

يلتفت أبوها لها ويندفع مع أبنائه، يشهر أكبرهم عصًا غليظة بينما يعدو كلبهم سابقًا إياهم... يقف أمام الصبي مرجعًا أذنيه إلى الخلف كاشفًا عن أنياب ناصعة محاطة بالسواد...

يهجم الكلب بينما يحتضن الأب ابنته مبتعدًا بها تاركًا الوليمة للحيوان الوفي...

ـ فوووونش! أبّاي، فونش!

ـ دا ساتانان سيرفير! أُوسبانيل!

لم يلق الراعي بالًا لرجاء ابنته أن يتركوا الصبي... كان أمره لأولاده واضحًا... اقتلوه فهو خادم الشيطان...

اختلطت زمجرة الكلب بزمجرة الصبي بضحكات أولاد الراعي... ثم عم الصمت فجأة...

نظر الأب فاتسعت عيناه ذعرًا راسمًا صليبًا على صدره...

كان فم الصبي غارقًا في الدماء بينما شريان رقبة الكلب يغرق الشجرة خلفه بدفقات قانية...

ـ فلاماجد لورد! تشيجهابال هاياترارفيتس!

تراجع الشباب امتثالًا لأوامر أبيهم بالانسحاب، ممجدين الرب بصلبان على الهواء... كورينشينا تبكي مغمضة العينين...

((.. *تبكي كلبها أم تبكيه؟*..))

لم يرهم مرة أخرى في ذلك المرعى كما خفّت تمامًا وفود الراعين...

سحب يومها الكلب إلى أعلى الجبل وتناول لحمه ... لم تكن تلك هي المرة الأولى لكنه لسبب ما كان يفضل سحق العقارب بقدمه العارية ونزع زبانها ثم امتصاص لحمها شبه السائل من غلافها المحطم...

أطلق زفيرًا طاردًا لتلك الذكرى وأخذ يصعد المنحدر الصخري والبخار يتصاعد من أنفه الدقيق...

((... *جلووش... جلوووش*...))

المياه تتخبط في القربة... القربة تسرب المياة المثلجة بشكل ما...

يسلي نفسه بأغنية قديمة لا يذكر أين سمعها... لكنه يذكرها دومًا منطوقة بصوت أنثوي حنون...

- كونييل مانكيك... كونييل... مونفو، كانك يس خاس سيفو ميام أميلشات!

أغنية مهد صغيرة... لو كان له أم لأحبته أكثر كل يوم كما تعده الأغنية...

لم يكن يتكلم تقريبًا إلا بتلك الكلمات، فقط إن كان وحيدًا... تحبه سيدته لذلك... لن يتكلم عما يراه في بيتها... تعرف أنه لن يتكلم... ومع من يتكلم؟!

يقف أعلى المنحدر أمام البيت الحجري ويخبط بقدميه على الأرض... ينتظر برهة ثم يدخل منحنيًا مثبتًا ناظريه إلى قدميه الحافيتين...

السحب المتكاثرة في السماء تحجب الشمس فتغدو الرؤية شبه مستحيلة في داخل البيت...

((.... *أتيتَ؟*.....))

((........................))

((.... *حسنًا*......))

كان يعلم أن سيدته تقرأ عقله بشكل ما... يشعر بشيء كاللوماس أو الأهداب تتحسس جنبات عقله فيقشعر... تقف الشعيرات الدقيقة على ساعديه... يشعر بعقله كقفر مهجور للحظات... لا يعرف أين تذهب أفكاره حين تتلصص هي عليها...

يفرغ قربة الماء في وعاء حجري هناك... يرى شعر سيدته الفضي الناعم منثورًا على ظهرها، لا شيء يعكس الإضاءة الشحيحة قدر شعرها...

منحنية على منضدة تكتب شيئًا ما... يعرف أنها تكتب رغم أنَّ كلتا يديها باديتان له، تثبتان اهتزاز المنضدة أمامها...

إذن هي تكتب...

يجلس في أبعد ركن عنها ويخرج من ثنايا ملابسه كيسًا قماشيًا يحوي لحمًا مقددًا سرقه من قافلة أمس...

المرأة لا تأكل فلابد له من إطعام نفسه... لا تشرب... لكنها تريد المياه لأغراض أخرى... لابد من مياه متجددة في الوعاء الحجري...

يلوك اللحم متمهلًا كي يحتفي قدر المستطاع بلحظات «الدنو من الشبع» الرهيبة...

يشعر بتكور معدته مطالبة إياه بالإسراع قليلًا في إرسال الغوث...

يحب لحظات التضور جوعًا... يعشق تلوي معدته والأصوات العميقة المنبعثة منها... يؤنس صوتها صمت وحدته أحيانًا...

ليلة أمس ـ بعد أن توقف المطر الحزين أخيرًا عن إغراق الكون بدموعه ـ تسلل هابطًا المنحدر نحو النهر... سار بمحاذاته حتى وجد الشق الضخم تحت سفح الجبل والذي يحلو للمسافرين المبيت فيه...

يقترب في خفة محاذرًا أن توقظ صوت خطواته في برك المياه الصغيرة النائمين...

حارسان من التجار يتهامسان حول النيران الخافتة...

خرير مياه منتظم من انحدار بقايا الأمطار إلى سفح الجبل...

ـ سأصلي أنا أولًا ثم أوقظهم وصَلِّ بهم إمامًا...

ـ كما ترى...

يتكلمون لغة لا يفقهها... وجوههم السمراء وأعينهم المحاطة بسمار كحل حاميًا لهم من عواصف الصحراء التي أتوا منها...

عقرب أسود يتحسس طريقه بين بقع المياه المتفرقة على الأرض...

يختبئ الصبي ريثما ينتهي الرجلان من الاغتسال في المياه المنسابة على الصخور...

ـ الله أكبر...

يقف رجل منهم خاشعًا متمتمًا بكلمات هامسة، تتلألأ قطرات وضوءه على ذقنه حالكة السواد في ضوء القمر، بينما تحسس الآخر المتاع في الظلام وأخرج ما يشبه اليقطينة المجوفة تعلوها طبقة من الطمي الجاف تمتع بوصة تخرج منها بميل من السقوط... وضع كتلًا بنية صغيرة من كيس يحمله في ثيابه... أشعل قمة نارجيلته البدائية وبدأ في سحب الدخان منها ثم نفثه من أنفه شطر الجبل الجاثم في الأفق...

يقترب الصبي من كومة المتاع والمياه وهو محني القامة يتدثر بحلكة الليل...

يسحب برشاقة كيسًا قماشيًّا يحوي بقايا طعام... يدسه في طيات ملابسه... يقترب بحثًا عن المزيد وهو ينقل عينيه بين الكومة والرجل الذي ينفث الدخان، فالرجل الآخر لا ينفك يركع ويسجد ويقف ويقعد في اتجاه واحد...

تلمس يده شيئًا ناعمًا باردًا... يكشفه في فضول... ينعكس ضوء القمر الخجل على قماش أزرق مطوي شديد النعومة... لم ير له مثيلًا من قبل...

((.. إلا في صوت كوريتشينا..))

يغلق عينيه ويمرر يديه الخشنتين فوقه مبهورًا... يقترب منه ويتنشق عبق رائحة عطرية أخاذة تتسلل إليه من بضاعة عَطِرة مجاورة...

يشعر بالعقرب يداعب قدمه الحافية... يرفع قدمه ببساطة ويسحقه!

ـ انتبه يا غلام!

يفتح عينيه مذعورًا فيجد الرجل الذي كان يصلي قد وقف خلفه ينظر إلى قدمه ومن تحتها العقرب في ذهول...

وقبل أن يرفع الرجل عينيه إلى أعلى، كان قد انطلق يعدو في سرعة فهد والمياه تتناثر من حول كاحليه...

وضع الرجل المدخّن يقطينته على الأرض في سرعة ثم جذب سلاحًا ناريًّا وهمَّ بالانطلاق خلفه فأمسك صاحبه بكتفه في قوة ولا تزال عيناه متسعتين ترقب الهارب الصغير...

ـ دعه... لقد كان جائعًا...

ـ سبحان خالق السماوات والأرض! لم تر عينا رأسي في مثل سرعة عدوه ولا ضخامة جسده...

- لم تره يسحق العقرب بقدمه الحافية!

- سآتي به...

وانطلق الرجل يعدو ويتعثر في برك المياه والصخور الحادة حتى اختفى الصبي...

سار التاجر الموصلي إلى زميله بحذر وهو يتهالك ضحكة لا تنفك تدغدغ شفتيه...

- قم يا شيخ صويلح... أتقتل صبيًا مد يده جوعًا إلى رحالنا؟

قام صويلح مترنحًا وأخذ يهز ماسورة سلاحه في حنق...

- ابتل البارود!

- ليتك قدمت قبل هروبه فنظرت إلى عينيه... اليسرى زرقاء كمثل لجة المياه... واليمنى كلون صخر الجبال! عجبًا!

حملق صويلح في اتجاه هروب الصبي ثم التفت إلى صاحبه مبتسمًا في خبث...

- إذن فقد كان لي عذر في ملاحقته!

* * *

انهى كل ما حواه الكيس القماشي من أطعمة ودس الكيس بين حاجياته أسفل جلد الماعز الذي ينام فوقه...

توقفت المنضدة أخيرًا عن الاهتزاز... قامت سيدته والتفتت إليه بعينين رماديتين مائلة إلى الزرقة...

- تجغا!

لم يعرف له اسمًا سوى هذا... تجغا...

كلمة تعني صبي... ترى أيظل الاسم على مقاسه حين يغدو شابًا أم سيتغير؟

لم يكن يعلم كم من الأسماء سيحمل طيله حياته... لم يكن حتى يملك أدنى فكرة عن مدى طول هذه الحياة وغرابتها...

هرول إليها زاحفًا ثم استقام واقفًا أمامها يتحاشى أن تلتقي عيناه ثنائية اللون بناظريها الشفافين...

((... *وعدتك بهدية اليوم....*))

((.................................))

أشارت له بأصبعها أن يدور حول محوره فدار...

غمست إصبعها في مياه الحوض الحجري... بدأ يغلي في هدوء وعلى سطحه طفا ما يشبه بقع الزيت الأسود... يتغير شكلها مع غليان الماء حتى استقرت البقع على شكل كتابات متداخلة...

جذبت السيدة ملابس الصبي فتعرى أمامها... أخذت تغرف الماء بيديها وتسكبه على جسده... تراقب مسارات المياه المتعرجة بين عضلاته المشدودة...

المياه ساخنة... تترك آثارًا حمراء على جلده تشي بسيرها المعوج...

تركع خلفه على ركبتيها وتمسك برقبته بيد وباليد الأخرى تثبت كلتا ركبتيه...

((.... *ستكتب... ستكتب...*))

تصاعد البخار من فم الصبي الجاف المرتجف... يغمض عينيه ويرفع

وجهه إلى أعلى انتظارًا للألم... لابد وأن المنضدة كانت تصرخ ألمًا من كتاباتها وإلا فيم ارتجافها كجسد يحتضر؟

شعر بتلك الأهداب التي كان يحسها في عقله، لكنها الآن تتحسس فقرات أسفل ظهره...

ويبدأ الاهتزاز...

نشوة الألم... دقات دقيقة على أسفل ظهره وكأنها تكتب بالطرق... دقات يهتز معها قلبه داخل جسده كفأر بين مخلبي قط جبلي عابث...

تتهدج أنفاسه وتفرغ رئتاه من أسباب الحياة...

المزيد من النشوة... يطلق آه عميقة مُطالبة بالمزيد...

يزداد تمسك المرأة الراكعة بعنقه وركبتيه... لن يتحرك... تعرف أنه لن يتحرك...

تلصق وجهها في ظهره وتحركه من اليسار إلى اليمين... كتابة تبدو أقرب إلى قراءة...

وحين انتهت أخيرًا... تراجعت على ركبتيها إلى الخلف...

ابتسمت لصنعة يديها ـ أم عينيها؟! ـ في إعجاب...

وشم أحمر اللون يبدو كحرق... جبل مقلوب على شكل مثلث قمته إلى أسفل...

تعرف هي جميع اللغات... لكنها اختارت كتابة بلغة الصبي...

Արարատ
Նոր կյանք

آرارات... نُر كيهانك...

لا يعرف الصبي القراءة ولن يستطع رؤية ما وشمته على ظهره من دون مرآة، لكنه سيقرؤه حين يحتاجه، وحين أوانه...

* * *

يرتجف من الحمى... تحامل على نفسه ونظف البيت من بقايا الرماد المتناثر فيه... لابد من رماد متناثر فوق كتابات السيدة وفوق الأواني المتخمة بمواد مختلفة الألوان والروائح...

كان يلهث فلا تكترث سيدته... يبدو أن ما يشعر به هو عَرَض طبيعي لما فعلته به أمس...

يسعل حين يدخل الرماد رئتيه... لكن ما أحبه حقًّا هو ألم الصداع... نبض جبهته فينتشي... يبتسم...

يأخذ قربة المياه استعدادًا لملئها...

تمسك سيدته بكتفه فيلتفت واقفًا...

((.... اعلم إنك تهمني... ستعود لي وإن تأخرت... سأسمعك وإن همست... ما لك سيظل لك حين تعود... عُد لي ثم ارجع لُملكك... ثم عُد لي وطالِب بمُلكك... من لا يملك سيعطي من لا يستحق... ثم يحكم من لا يستحق ما لا يملك... ثم تأخذ ما ليس لك فتستحقه وتملك!...))

((!.......................))

تركته والتفتت إلى رسم يمثل جسد بشري ملتف بأرقام وحروف، تنظر إلى حوض مياهها وتزيد في كتاباته... تهتز المنضدة مرة أخرى..

اقشعر من كلماتها... لأول مرة تحدثه بجملة في مثل ذلك الطول... أتراها نبوءة ما؟!

هبط المنحدر ووقف عند السفح يرمق الجبل الممتد إلى ما لا نهاية...

يقال أن سفينة قديمة حملت ناجين من طوفان وحطت فوقه...

رأى رسم في كتاب مع سيدته يمثل ذلك الموقف... فقط سمع في ذهنه صوت ضحكتها المشروخة وسمع ((الناجين من الطوفان)) ثم أتبعتها بضحكات رجت أحجار البيت وهرب على إثرها وطواط أو اثنان...

سار إلى النهر تكاد عضلاته تتمزق تعبًا...

الحمى تعطي هلاوسه سمتًا منطقيًا وتسحب المنطق من الواقع...

بالكاد يدرك أنه قد اقترب من التجويف أسفل الجبل... صوت ضئيل يهيب به ألا يقترب من هناك... لا يذكر السبب تحديدًا...

يغني فيعلو صوته قبل أن يدرك حقًا أن صوته قد أطار العصافير فزعًا من فوق الأشجار...

- كونبيل مانكيك... كونبيل... مونفو، كانك يس خاس سيفو ميام أميليشات!!

يتشبث بالعشب الهش المثلج وهو يدلي القربة الجلدية ويرقب اندفاع الماء إلى داخلها.

يغمض عينيه وهو يستشعر الماء شديد البرودة يضرب جلده الخشن حتى سرى إحساس الخدر بكفه... يحب هذا الإحساس بل ويتعمده أحيانًا... في الشتاء الماضي لم تكن لديه قوة تحمل كتلك التي تسري بأوصاله الآن...

لقد بلغ أمس العاشرة... وقد أهدته سيدته ألمًا خاصًا... ونبوءة...

* * *

- اتركه يا شيخ... لقد حرَّم الله الرق... أما تكتفي من رزقنا في تجارتنا تلك؟ جل ما أخشاه هو غضب علينا من الله فتزول تجارتنا وتَبيد ديارنا...

لم يلتفت صويلح إلى صاحبه، فقط أخذ يحرك قطعة الأفيون تحت لسانه مثبتًا عينيه على الصبي، فكان يخشى أن يرفع عينيه عنه وهو على ضفة النهر فيفر مختفيًا كما فعل في الليلة السابقة...

- لم أؤخر رحيلنا إلا من أجله... فلا تضيع اليوم سدى...

اعتزل صاحبه الجمع منزويًا في قلب التجويف بينما تحلق خمسة رجال حول صويلح يرسمون مخططًا لصيد الفتى...

- نريده سليمًا قدر المستطاع... لا يستخدمن أحد منك سلاحًا ولا يوخزنّه برمح...

سحب الصبي القربة... حاول حملها فدارت به الدنيا وسقط لاهثًا بجوارها...

انسابت المياه منها عائدة لمجراها، قام يمسك بها فداستها قدمه فانزلق نحو النهر... ثم شعر بيد تجذب ملابسه...

استدار غريزيًا وهو يطوح يديه عساها تصيب بقبضتها من أمسك به...

سمع صوت أسنان تصطك...

- تبًّا! امسك به يا سعد..!

لم تتخل قبضة سعد عن الإمساك به وإن ترنح من الألم للحظات... شعر بمن يدعى سعد يحاول الإمساك بقدميه فرفس الصبي وركل وهو يزمجر كحيوان بري يُؤسر...

سقط سعد في النهر بظهره فجذب الصبي معه... تشبث الصبي بالأعشاب على الضفة... تتمزق الأعشاب تحت قبضته...

الدوار يعتلي رأسه كمصارع ثيران...

تتخلى قبضته عن الأعشاب فيجرفه النهر مع سعد...

يأتي المدد من الرجال في القافلة فيجرون جميعًا بمحاذاة النهر في محاولة يائسة لإنقاذ صاحبهم...

- فليمسك أحدكم بالصبي!

كان الصبي هو اهتمام صويلح الأول ولربما كان الأخير...

قفز رجلان في المياه وحاولا انتشال سعدا منه...

- فليمسك أحدكم بالصبي!

كاد النهر يجرف الثلاثة رجال والصبي في مجراه... أكثر الرجال لم يسبح من قبل ومن سبح لم يسبح في مياه نهر ثقيلة بينما الطمي في القاع يجذب أقدامهم إلى الأسفل... لا يوجد قاع صلب تحتهم يستمدون منه عزمًا للصعود إلى السطح...

كان الصبي سباحًا ماهرًا، لكن الحمى وتشبث ثلاثة رجال على وشك الغرق به جعل منه صخرة تأبى الطفو بأي ثمن...

- عبد الله! أسرع!

صاح صويلح في صاحبه عبد الله المعارض له ذي اللحية حالكة السواد إذ رآه قادمًا يجري وفي يده لفافة الحرير العملاقة...

- امسك أنت والرجال الطرف..!

ألقى عبد الله طرف الثوب إلى صويلح والرجال معه ثم ربط الطرف الآخر في عجلة إلى خصره وجرى حتى أصبح أمام كومة الغرقى وقفز...

- ألم تجد حبلًا إلا ثوب الحرير يا رجل!!

جذب صويلح الثوب متأففًا من فساد بضاعته، لم يكن يريد التفكير في كارثة مضاعفة إذا فقد الصبي أيضًا...

أمسك الرجال بذراعي عبد الله الممتدة ثم أمسكوا بثوب الحرير...

- لا تنس الصبي يا عبد الله... كفانا خسارة!

مد الصبي يده وأمسك بثوب الحرير... ملمس بارد شديد النعومة... أغمض عينيه وترك الإحساس المخملي يسري إلى أعصابه...

((... كوريتشينا..))

فتح عينيه ليلقى عيني عبد الله السوداوين المستظلتين بحاجبين في كثافة الشوارب...

ثم جذبهم الرجال...

* * *

تهتز الناقة في مشيها فيتأرجح الحمل أمامًا وخلفًا...

تتأرجح قرب المياه أمامًا وخلفًا...

تتأرجح رأس الصبي المقيد النائم على بطنه يمينًا ويسارًا!...

لقد انزلق من فوق الناقة وصارت قدماه فقط معلقة في الحبل بينما تتدلى رأسه فاحتشد الدم فيها...

تتفتح عيناه على أثر طرقات الصداع فيبصر أثداء الناقة المنتفخة تتأرجح

بينما يبدو أرارات مقلوبًا خلفها من بعيد منغرسًا في سماء سالت دماؤها فاحمرت زرقتها...

يحاول أن يستقيم من نومته قاعدًا فيمنعه قيده ووضعه المقلوب...

يفتح فمه ليستغيث فتصد استغاثته قطعة قماشية بين أسنانه...

يزمجر فيلتفت صويلح على فرس أمامه مبتسمًا في جذل...

- لقد استيقظ الصبي إذن! سنتوقف قريبًا ونُطعمك... كفاني خسارة ثوب الحرير، لكن صبي مثلك لا يقدر بمال...

الجبل الأبيض يبتعد كما يبتعد الضوء هاربًا في أحضان ليل هابط... المراعي الخضراء اكتست بالرمادي المهيب وذاب صوت خرير أركاس الحبيب في الظلمة الوليدة...

يختلف شكل مختطفيه عن شكل قومه... تختلف اللغة... تختلف الروائح...

تفوح من صويلح رائحة نتنة... يرى عند كاحله الأيسر قرحة عميقة في جلده...

عيناه حمراوان كالكبد...

مع توغلهم في الليل تقف القافلة ويترجلون منها... يقف عبد الله يؤم الناس للصلاة، بينما يدور صويلح حول الناقة التي تحمله ويتفحصه...

- وجهك وجه صبي... جسدك جسد فتى... شعرك الحالك وغرابة عينيك ستزيد من ثمنك حتمًا... تصلح محاربًا... لكن لك جمالًا يليق ب...

- كفى يا شيخ صويلح... اذهب فصلِّ بينما أطعم هذا المسكين...

- لن تقدر عليه وحدك فلربما حاول الفرار منك...

- لن يفر زحفًا... أراك أحكمت وثاق قدميه... اذهب أنت... أرى أنك واعٍ بما يكفي لتقرب الصلاة... لعل الله يهديك يا أخي...

تلكأ صويلح وهو لا يكاد يبعد عينيه عن الفتى وعبد الله شكًّا... ثم ذهب ليصلي متكاسلًا مختلسًا النظرات بين الركعة والأخرى...

أنزل عبد الله الصبي وفك فمه ثم شرع يدس بين شفتيه الطعام...

- اسمي عبد الله... عبد... الله... وهذا صويلح... أعرف أنك تجهل لغتنا... لكنك ستحبها حين تتعلمها...

ثم أخذ يشير إلى نفسه ويقول بتؤده «عبد الله» ثم يشير إلى صويلح ويتهجأ اسمه... أخيرًا أشار إلى الصبي وهو يفسر حروف نطقه كأنها سيفهم الصبي لغته بتلك الطريقة...

- ما... اسمك... أنا عبد الله... وأنت...؟

بدا أن إصرار عبد الله على معرفه اسم الصبي لن يصيبه الملل قريبًا في مقتل... فهم الصبي ما أراده عبد الله لكنه لم يكن يعرف إجابة عادلة على ذلك السؤال...

تنعته سيدته بالصبي... ينعته السكان المحليون بخادم الشيطان... الأغنية موجهة ل «ابني»... من هو حقًّا...

- تجغا...

- الله أكبر لقد فهمت! اسمك تجغا؟ قُل ورائي... اسمي تجغا...

- اسمي تجغا!

تحركت أذن صويلح في اتجاهها كالأنعام فترك التشهد الأخير عامدًا وهرول إليهما...

- ماذا قال؟!

- علمته فقال أن اسمه تِجغا...

- تِجغا؟ هذا ليس اسمًا! كيف يكون اسمه «صبي»؟! أعرف القليل من لغتهم من تجارتي هناك...

- نسمي نحن «ليثا» وما المسمى بحيوان! ربما كانت لغتهم تسمح بذلك!

- لا يهم... وحينما نصل مصر سيسميه من يشتريه بما يشاء... فليسمه بغلًا إن أراد!

وحين شقت الراحلة طريقها مرة أخرى في الفجر، كان الصبي يركب مقيدًا على ناقة عبد الله الذي لم يكف عن الثرثرة محاولًا تخفيف هم الصبي وخوفه...

وفي عقله أخذت ذكريات محمومة عن كوريتشينا وعن سيدته وعن أغنية مهد قديمة تلاءمت مع أرجحة الناقة له فنام جالسًا تحتشد حبات العرق البارد على جبينه...

* * *

من أراضي الترك...

((... أقمشة مطرزة موشاة بخيوط الذهب... روائح الفواكة المجففة ولحم الغنم... ماء الورد المنثور فوق الحلوى التركية المحشوة بعين الجمل والفستق... صوت الأذان يتردد في باحات الأسواق ويدور فوق قمم الجبال... جلسات تدخين النارجيلة ورائحة الحشيش المحترق... تَشَكُّر إيديريم! كارشيلاما!..))

إلى العراق...

((... لسعات السياط تلهب الظهور توبة وندمًا على دم الحسين... صوت ملتاع يعلو: اللهم إن هذا يوم تبركت به بنو أمية وابن آكلة الأكباد... اللعين بن اللعين على لسانك ولسان نبيك... اللهم العن أبا سفيان ومعاوية ويزيد وآل مروان... عليهم منك لعنة أبد الآبدين... أصوات الرجال في حلقات الذكر والترنح لساعات... تمثال آشوري مجدول اللحية يطل من علٍ..))

ثم منها إلى الشام...

((... خضرة الفستق الحلبي تنساب على هريس اللحم الشهي... الدروز فوق جبالهم والشيعة ساجدون فوق الحصى المستدير... دقات أجراس الكنائس المكسوة بجليد شهر كانون... بكانون كِن ببيتك وكتر بخبزك وزيتك... وأشجار الأرز مازالت إلى السماء ترنو...))

وأخيرًا إلى إلياء... بيت المقدس...

أشهر قليلة لم يفارق فيها الصبي عبد الله...

أشهر قليلة لم يتوقف فيها عبد الله عن الكلام إلا نائمًا أو مصليًا...

أُصيب الثلاثة رجال الذين أُوكلوا بانتشال الصبي من النهر بمرض شديد لم يفلح معه دواء... استمر السعال يمزق رئاتهم والحمى تغلي أمخاخهم حتى وافتهم المنية واحدًا تلو الآخر بين أرض الترك والعراق...

يصطف التجار مصلين الجنازة على من ماتوا من رفاقهم... بينما يأكل الهم قلب صويلح على فتاهُ... ترى أيخسر الصبي هو الآخر كما خسر ثوب الحرير...

إلا أن حالة الصبي الصحية لم تتحسن حتى بعد عرضه على أفضل أطباء في أثناء رحلتهم الطويلة... لكنها أيضًا لم تتدهور...

كان صويلح يقوم بعد الأموال ومبادلة البضائع بانتباه عين واحدة... بينما

كانت للأخرى حرية متابعة تحركات الصبي وعبد الله خصيصًا بعد أن عرض عبد الله شراء الصبي وإعتاقه لوجه الله... لكن ما ثروة عبد الله مقارنة بثروات المماليك في مصر؟

عرف الصبي كلمات عديدة من اللغة العربية، كما عرف عادات المسلمين وعباداتهم...

كان ذكيًا مرتب العقل خاليه... فكانت المعلومات تنظم نفسها في أرفف وعيه الخاوية تاركة مساحة لحرية الحركة والتنقل بينها... كان أول سؤال يسأله الصبي لعبد الله وهو يمرر يده على ثوب حرير عند تاجر في الشام ثم يدير وجهه بعيدًا عنه ساعلًا في قوة...

- ما هذا؟

- هذا حرير... نأتي به من الصين... قماش لا يقدر على ثمنه إلا أقوام يفوقوننا مالًا وملكًا... لكنه محرم على الرجال في الإسلام...

هز الصبي رأسه وقد فهم معظم ما قيل وإن لم ترسُ في قلبه فكرة تحريمه فلم يسأل...

وحين دخلت القافلة أرض فلسطين، اصطحب عبد الله الصبي إلى باب السلسلة العتيق القريب من السوق وتوقف أمامه متهلل الوجه...

- أتعلم أين نحن يا بني؟ بعد أن نعبر هذه البوابة سنكون في حرم المسجد الأقصى... أولى القبلتين ومعراج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم...

تأمل الصبي البوابة ثنائية المداخل وخطا عابرًا، يمس الأحجار الصفراء ويتشمم يده... يستخدم حواسه الخمس في نسخ صورة المكان المقدس العتيق...

كتم سعال غالبه كي لا يُخرج عبق رائحة الزمن من رئتيه...

كانت القبة الذهبية تتوسط الساحات الشاسعة وتعلوها ارتفاعًا... تنعكس عليها أشعة الشمس فتبهر عيني الصبي مختلفة الألوان...

اتجه إليها ماشيًا متوقعًا أن تكون تلك القبة هي وجهتهم، لكن عبد الله جذبه في رفق وابتسم...

- إلى أين؟! المسجد الأقصى من الاتجاه الآخر... هذا هو مسجد قبة الصخرة... تحت قبته الصخرة التي عرج رسول الله منها إلى السماء... أما ذاك فهو المسجد الأقصى...

نظر الصبي مقارنًا في حيرة... كانت قبة رمادية من قباب الأقصى الأربعة بادية له من مكانه... المسجد نفسه كان أميل إلى البياض، قليل الزخارف، يرفل في نور الشمس بتواجد ملائكي...

- هذا ذهب... وذاك... ليس مثله...

- نعم نعم! أعلم أن قبة الصخرة أكثر لفتًا للأنظار... يمكننا أن نزورها ونرى مكان عروج نبينا إلى السماء تحتها... أما الآن ستأتي معي لنصلي العصر...

أخذ عبد الله يثرثر عن تاريخ المسجد الأقصى بينما الصبي لا تزال عيناه معلقتين بالقبة الذهبية... ثم قطع حبل الوصال بينهما رأس صويلح الذي جمع بين شدقيه صفي أسنان في صفرة الوحل...

- عبد الله... أخي! اترك لي الصبي واذهب أنت لصلاتك... تعرف أنه غير معتاد على الصلاة وما إلى ذلك... ثم إنك تطيل الصلاة... ربما يمل ويخرج فيُفقد بين الحجيج...

أو لعلك تريد أن تصلي في ال...

- صويلح... كفاك كلامًا يا شيخ...! التقط أنفاسك!... لقد رفضت أن أشتريه منك لذا فالصبي أمانة معي وسأعيده إليك... كذلك والصبي ذكي... أيترك صحبتنا إلى أرض لا يعرف فيها أحدًا ولا يتقن حتى لسانها؟!

هرش صويلح تحت عمامته إحراجًا ثم لف ذراعه على كتف الصبي وجذبه في رفق ناحيته بينما أشاح الصبي بوجهه من رائحته الخبيثة...

- لم يكن ذلك مقصدي أبدًا... لقد كنت فقط أنتوي أن... أن أصحبه إلى نطاسي أعرفه في جبل الطور... علني أجد دواءً لداءه...

- إشعيا؟! أستصحبه إلى ذلك الرجل؟!

- أتتذمر منه لأنه يهودي؟! أهذا ما يدعونا إليه ديننا من تسامح مع أهل الكتاب الذين....

اقترب عبد الله في حنق من صويلح وقد تحركت صخرة الغضب منذرة بسقوط حر فوق رأسه...

- تعلم أن نبي الله لم يأمرنا باضطهاد غير المسلم... تعلم أني لا أكره الرجل لدينه يا صويلح... أنت تعلم أكثر من هو إشعيا بن كوهين...

- إذن نترك الصبي يموت؟ إن إشعيا شديد البراعة حتى أن ملوكًا وسلاطين يطلبونه بالاسم لمداواتهم... ثم مال الصبي ومال أفعال إشعيا الأخرى؟ سأصحبه إلى هناك وربما تصلي... يصف الرجل للصبي الدواء ثم نعود لك قبل مغيب الشمس...

تأفف عبد الله ونظر للصبي برهة ثم أطرق رأسه مغمغمًا أن لا حول ولا قوة إلا بالله... مد يده إلى شعر الصبي مربتًا عليه ثم همس في استجداء...

- دعه يصلي معي إذن ثم خذه...

- يا أخي!... يا أخي ستتأخر والطريق....

- لن يتأخر بإذن الله... لعلك تدرك أنت العصر معنا يا شيخ صويلح...

جذب عبد الله الصبي نحوه في حزم وسار به إلى المسجد بينما تكاسل صويلح وأخذ يدور في مكانه بلا هدف... يبحث في جعبته عن فص آخر من الأفيون...

توضأ عبد الله وفعل الصبي مثله كما اعتاد طيلة رحلتهما... دخلا إلى المسجد الفسيح المزدان بالمقرنصات والزخارف... كان الصبي ينظر إلى السقف شاهق الارتفاع ويدور حول نفسه في انبهار... يرقبه عبد الله مبتسمًا تزدان ذقنه بحبيبات الماس من أثر مياه الوضوء...

- هنا صلى نبي الله محمد عليه أفضل الصلاة والسلام بالأنبياء إمامًا... يا بني... المسلمون يعترفون برسالات جميع الأنبياء... من صميم إيماننا أن نعترف بنبوة من سبق من الأنبياء قبل نبينا... يقول الله تعالى...

«آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون، كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحدٍ من رسله»

صدق الله العظيم... رأيت الحجيج من النصارى في كنيسة القيامة... رأيت تجار الذهب اليهود في الأسواق... رأيت كيف يعيش أهل الكتاب مع المسلمين ويعملون معهم... كيف أحمل ضغينة ليهودي لم يحمل ضدي سلاحًا ولم يؤذني؟

إلا أن إشعيا هذا رجل خبيث يا بني فاحترس منه... فقط لا تصغي لما يقول...

هز الصبي رأسه في فهم ووقف بجانب عبد الله يقلد حركات صلاته بينما يفكر فيما رأى في رحلته... يفكر في قبة الذهب... يفكر في إشعيا... ويفكر في

سيدته... ترى لم يخاف عبد الله إشعيا؟ أإشعيا هذا هو معادل ذكوري لسيدته في وطنه؟ أهو شيطان آخر؟

فرغ عبد الله من صلاته فسلم وقام بينما ظل الصبي جالسًا تتخطفه الأفكار...

ربت عبد الله على كتفه فأفاق والتفت إليه...

- يبدو أنك لم تصلِّ... أعلم أنك حديث عهد بهذه الأمور لكنك ستعتادها بمجرد أن تتقن العربية وتستشعر كلمات الله في القرآن الكريم... وقتها ستعرف لذة الوقوف بين يديه ... قم بنا يا بني...

وقف الصبي مترنحًا من نوبة سعال ألمت به فأمسك بثوب عبد الله محاذرًا السقوط... وحين فتح عينيه كان ثوب عبد الله قد اكتسى بذخات من دماء رئتيه...

* * *

في طريقهم إلى مصر، مكثت القافلة بمن بقي من التجار في سهل عامر، وركب عبد الله والصبي الفرس يتقدمهما صويلح صاعدين ممرًا وعرًا إلى جبل الطور...

تميل الشمس مرة أخرى إلى المغيب فينقل الصبي نظره في إعياء بين صخور الجبل وحمرة السماء... تتداعى له صور قديمة عن آرارات والغروب الأخير...

يتمتم عبد الله بآيات من القرآن ويمسح على جبين الصبي... بينما يلتفت صويلح كل بضع خطوات مطمئنًا إلى حال بضاعته الأثيرة...

- أوشكنا على الوصول... تماسك بالله عليك... ماذا حدث لك؟! لقد كنت أفضل بكثير هذا الصباح...

لم تكن المسافة إلى بيت إشعيا بعيدة عن السهل، بل أن الراجل يمكنه قطعها في أقل من الوقت بين العصر والمغرب... إلا أن الرجلين قد فضلا الخيل كي يختصرا ما أمكن من وقت لإسعاف الصبي...

بمجرد أن تبدى البيت الحجري إليهم ترجل صويلح وحمل الصبي مهرولًا إلى مُسعفه بينما أوكل ربط الخيل إلى عبد الله...

وقف صويلح بحمله الثقيل لاهثًا أمام الباب الخشبي صائحًا بصوت متهدج...

- يا أهل الله...

((يسمع صوت أزيز من رئة أنهكها التدخين... ززززززءءءءء.... ليييييي.....))

من خلف الباب كانت خطوات ثقيلة متثاقلة أعقبها صرير الباب منفتحًا كاشفًا عن وجه أبيض نحيل لرجل قصير مغطى الرأس بقماش أزرق كالح...

- أنا صويلح بن الحكم! السلام عليكم يا إشعيا!...

- وعليك يا ابن الحكم! بعد ها الغياب تأتيني بهدية على وشك الموت! ادخل...

دخل صويلح إلى البيت ممتاز التهوية، تفوح من أغطية فُرُشه رائحة الشمس والخل...

أشار إشعيا إلى سرير في حجرة داخلية مفتوحة النوافذ فوضع صويلح الصبي هناك وجلس بجانبه...

- إنه... هه... هه... يسعل دمًا...

- بعرف... أثر دم منثور على ثيابه... حمرته بتقول بكونه من الرئة لا من

الأنف... ألا تسعل أنت الأخر؟ أسمع صوت شكوى صدرك من مكاني هون...

مر إشعيا على جسد الصبي بعينيه من بعيد ثم استدار في مشيته البطيئة خارجًا إلى الردهة...

- أين تذهب؟

- أفتح الباب لصاحبك... انتظرني محلك...

كان الصبي يسمع كلمات إشعيا بلهجته المسروقة الممطوطة والتي يسمعها لأول مرة ويحللها رغم تعبه الشديد...

ذات اللهجة التي يستخدمها أهل فلسطين وذات الكلمات الدخيلة على العربية في سائر بلاد الشام... إلا أن لهجته بدت متصنعة إلى حد كبير حتى بالنسبة لصبي لا يتحدث العربية كلغة أم...

دخل عبد الله مصفقًا بيديه ثم توقف حين لقي إشعيا مبتسمًا أمامه ينظر إليه من منظوره السفلي...

- أهلًا عبد الله! كنت بعرف أنك مع صويلح...

- رأيتنا؟

- لا... وجه وكفي وقدمي الصبي نظيفة بينما سائر جسده معفر مترب... علامات الوضوء... ما هايدا من شيم صويلح ولا من معه خصيصًا مع يالي يبيعوهم... بعرف من الدماء على ثيابك أن الصبي يلازمك أكثر من صويلح... رغم أنك ما اشتريته منه، وإلا فيم لهفة صويلح على الصبي إن ما كان بضاعة بالنسبة إله!

كانت عينا إشعيا الصفراء كالصقر تتواثب في محجريها مراقبة كل شيء في

تفحص غريب... من حوله كان للبيت جدارن داخل جدرانه الأصلية مكونة من كتب متراصة إلى السقف وأوعية خشبية تحوي من كل نوع من الأعشاب أنبتته أرض يومًا ما...

عاد إشعيا إلى الحجرة الداخلية فتفحص حرارة الصبي وحدق في عينيه متباينة الألوان فتوقف عندها برهة... ثم أكمل فحص أنفه وفمه وسمع صوت صدره المتحشرج بما يشبه بوق خشبي ألصق فتحته الواسعة المكسوة بالجلد المشدود على صدر الصبي بينما الطرف ضيق الفتحة دسه في أذنه وهو محني الظهر على مريضه...

كشف ظهره فتوقف عند الوشم العجيب... كان العربيَّان ينظران في فضول إلى وشم الظهر كأنما يريانه لأول مرة، فحجب إشعيا الرؤية عامدًا بظهره ثم غطا الصبي سريعًا والتفت إلى الرجلين...

- اتركوه هون معي لسبعة أيام... بعدها سيعود إلى حال أفضل من يالي كان عليها...

- إن شاء الله... «ولا تقولن لشيء إني فاعلٌ ذلك غداً إلّا أن يشاء الله»...

- كل شيء بالمشيئة يا خَيّي... يتفكرني كافر بالله؟!

أخذ عبد الله بذراع صويلح إلى ركن الحجرة وهمس بينما عينا الصقر ترقبان حديثهما من بعيد...

- قلت أنك لن تتركه هنا...

- وما أدراني يا شيخ عبد الله أن حالته ستسوء حتى يسعل دمًا؟!

اصطحب صويلح عبد الله غضبًا إلى خارج البيت فأسرع إشعيا بغلق الباب خلفهما هاتفًا من خلف خشبه كالح الزرقة...

- لا تبيتون في الخارج... هيدا مترع للعقارب...!

هز صويلح ساقيه لا شعوريًا منفضًا عقارب وهمية تسلقت ثيابه ثم ركب فرسه وتقدم عبد الله الذي لم ينزل عينيه عن البيت حتى اختفى في المسافة الزرقاء الباردة بينهما...

* * *

كانت قوائم السرير الأربع منغرسة في أربعة دلاء من الماء لردع هجمات العقارب عن المرضى الراقدين فوقه... بينما النافذتين المفتوحتين في قبالة بعضهما البعض يديران الهواء النقي في الحجرة...

دخل إشعيا حاملًا قدح فخاري يفوح برائحة الحلبة المحلاة بالعسل بينما يطفو على الوجه زيت الزيتون الفلسطيني الشهير ذي الطعم الحاد...

جلس الصبي ممسكًا بالقدح وبدأ في ارتشاف السائل... تجعد وجهه استنكارًا ثم ابتلع في صمت...

- طعم الزيت بينعب المعدة شوي حتى تعتاده... لكنه هام لطرد الأخلاط... اشرب...

لم يفهم الصبي بعضًا من الكلمات لكن ذكاءه اللغوي أوصل إليه فحوى المحادثة بشكل جيد... ثرثرة عبد الله أتت أُكُلها على ما يبدو...

- أنت من الخزر... ما هيك؟

صمت الصبي... لا يدري ما الخزر... ولا يعرف معنى «ما هيك»...

- الخزر... قبائل يهودية بتعيش قرب هايستان... كانت إلهم مملكة عظيمة من شي أربعمية سنة...

- لا أعرف... صويلح أخذني من هايستان...

- كيف ما بتعرف إذن؟ من أبوك؟

- لا أعرفه... أعيش مع سيدتي في جبل آرارات...

تغير وجه اليهودي للحظة ثم قام مغطيًا الصبي بغطاء صوفي... خرج إلى الردهة مرة أخرى وعاد حاملًا وعاءً ساخنًا آخر يعبق الهواء برائحة الحلبة والثوم النفاذة... جلس عند قدمي الصبي وشرع يضع طبقة غير سميكة من خليط الحلبة والثوم على باطن القدم ولفهما بشرائح كتانية...

تمنى للصبي ليلة هادئة وخرج مغلقًا باب الحجرة...

سعل الصبي سعلتين اسكتهما بما تبقى من الحلبة في قدحه... وضع القدح أرضًا بجانبه محاذرًا أن ينفك الرباط عن قدميه...

كان ضوء القمر يتسلل إلى الحجرة ولسعة برودة برفقته، تَفَكَّر في الأشهر الفائتة... ما حدث فيها لم يحدث في عمره القصير الممتد خلفها في تراخ...

- كونبيل مانكيك... كوتبيل... مرنفو، كانك بس خاس سيفو ميام أميليشات!!

صوته يبدو عاليًا في هذا الصمت...

ترى من غنت له تلك الأغنية كانت من الخزر؟ ما الذي دعا الرجل إلى الظن أنه من أولئك القوم؟

تراها تبحث عنه أم أنها نسيته؟

تراها أعطته لسيدته عن طيب خاطر؟

أيستطيع العودة إلى تلك الأرض يومًا ما والبحث عن عائلته؟ أيستطيع الهرب الآن والعودة؟ أيسأل إشعيا المساعدة؟... أم يطلبها من عبد الله؟

((.. ستعود لي وإن تأخرت..))

لا يريد العودة لسيدته تحديدًا... لا يريد العودة مطلقًا إن لم يكن له ما يملك على تلك الأرض فيعود مطالبًا به... لن يعود خادمًا مرة أخرى...

يسمع صوت إشعيا في «همس عال» غريب بلغة لا يألفها... يشعر بفضول قوي لمعرفة ما يمارسه هذا الرجل ويجعل عبد الله كارهًا له إلى هذه الدرجة.

في حذر نزل من على سريره على حافتي قدميه الخارجيتين ثم جثا على ركبتيه زاحفًا نحو الباب...

كان بابًا خشبيًّا تتراص فوقه شقوق الأخشاب طوليًّا، بين الشق وأخيه مسافة تسمح بمرور صرصار كبير...

اخترقت عين الصبي البنية شقًّا وجالت من خلاله في الردهة...

كان الرجل يقف ممسكًا بكتاب وهو يهتز أمامًا وخلفًا في إيقاع لا يختل... فوق جبين الرجل ما يشبه المكعب الجلدي الصغير أسود اللون، يمتد منه شريط جلدي أسود ملفوف تحت إبطه الأيمن...

وحول عضد إشعيا الأيسر مكعب مماثل شريطه يلتف حول الذراع والكف...

كان المنزل خاليًا من أي صور مرسومة أو تماثيل مما كان يرى في بيت سيدته... فقط رسم عتيق لشجرة مقلوبة معلق على الجدار الشرقي...

كان الصبي يغالب السعال كي لا ينفضح أمر تجسسه، فعاد زحفًا إلى السرير، وما كاد أن يصل حتى واتته نوبة سعال نثرت الدماء في وعاء الماء أسفل قائمة السرير...

قام الصبي وجلس على سريره وتدثر بالغطاء مرة أخرى... لم يكن خائفًا، فما كانت تفعله سيدته أغرب بكثير مما يفعله اليهودي...

أخذ يقلب عينيه في السماء ويفكر في عائلة وهمية تسكن جوار نهر خيالي...

خيول سوداء مشعرة تغير عليهم ليلًا... يرسمون العلامات على الأكواخ البسيطة... وفي الصباح تأتي سيدته لتختطفه من حضن أمه...

((.... وفي الصباح أتى صويلح وانتشله من شِبّاك سيدته...))

يسمع صوت جوع ناعس في معدته...

((... لعل الرجل لا يأكل هو الآخر...))

يدير عينيه في الحجرة... لا شيء يؤكل... يثني قدمه ويلتقط حبيبات الحلبه المجروشة من بين أصابع قدميه... يلوكها في انعدام حماس...

من النافذة يرى صديقه الزاحف البشع يتسلل فيبتسم الصبي لمرآه...

يبحث الكائن الأسود عن وجبة حشرات ليلية... يدور في جنبات الحجرة في حيرة... يأمل الصبي في أن تخيب بوصلته فيتجه نحو دلو الماء...

بعد حين بدا أن العقرب لا يجد ما يهم في تلك الحجرة فقرر أن يبحث في العالم الموازي خلف الباب، قرر الصبي حينها أن يزحف على ركبتيه مرة أخرى... يزحف نحو العقرب العدواني... يمد يده، يثبت الذيل من تحت الزبان مباشرة ثم يمسك زبانه في احتراف ويقتلعه... يتلوى ذيل العقرب في حركة غدر فاشلة أخيرة... يقطع الصبي الجسد المصفح بيديه في لهفة ويمتص السائل بداخله...

* * *

استيقظ الفتى على صوت خطوات إشعيا الثقيلة... يقف وقد كشف شعره الأبيض الطويل في مدخل باب الحجرة يتأمل الأرضية أمامه...

يخطو وابتسامة صفراء تجذب شفتيه إلى جانب واحد ويتجه إلى دلاء الماء...

يشير إلى بقايا العقرب على ألارض وهو يداعبها بطرف خفه...

- هايدا عقرب... ما بجوز تاكله... «طريفة»... حرام...

صمت الصبي وقد تمايلت فكرته عن الحرام مترنحة حتى كادت تسقط... لم يذكر عبد الله أن أكل العقارب من المحرمات... هذا الرجل يقول إنها محرمة...

- ليست حرام سيدي... عبد الله...

- أنت مسلم؟

- لا أعرف... أفعل كما يفعل عبد الله...

- كلنا عباد الله... محرم علينا باليهودية أكل الحشرات... الأغيار بياكلونها...

- ما الأغيار؟

- الخلق يالّلي ماتهون يهود...

سار الرجل حتى توسط الحجرة وبدأ في نسج حكايته من أدلة متناثرة على الأرض... ركع وتفحص حبيبات الحلبة على الأرض...

- بشوف أنك تجولت شي بليل... ما هيك؟ حبات الحلبة جافة... لابد أنها سقطت من لفافة قدميك... طرفي باطن قدمك متسخة... براهن أن ركبتيك متسختين هم الآخرين... أصابتك نوبة سعال قبل ما توصل للتخت أو بعد ما نزلت منه مباشرة... الماء معكر بالدم...

ابتسم الرجل ابتسامته المعتادة وتقدم من الصبي... رفع بطرف يده ذقنه فتلاقت العينان...

- إلك عيني يوئيل بن صفنيا من الخزر... قليل من بحملون ها العينين...

- هل تعرفهم؟

- قرأت عنهم... لكن أصلي أنا من ها الأرض... كوهينيم... جدي كان كاهن بمعبد أورشليم... من هنا لقب عائلتي كوهن... ومن المعبد علمي...

لف الرجل خيطًا أحمر حول رسغ الصبي معقبًا بأنه لدرء الأرواح الشريرة... ثم فك اللفائف عن قدمه...

أحضر مشروب الحلبة الزيتي فبدأ الصبي في ارتشافه ناظرًا إلى إشعيا في ترقب... تغير ملامح الرجل من البرود إلى الحماس المفاجئ فصفق بكفيه وأشار للصبي أن يتبعه...

خرج الصبي خلفه وقدماه المنداتان تجمعان ما يقابلها من أوساخ على الأرضية المغطاة بصوف الخراف المنسوج الخشن...

توقف الرجل أمام مكتبة عظيمة تمتد من الأرض إلى عنان سماء الحجرة، وقف إشعيا على كرسي خشبي قصير وأخرج كتابًا قديمًا له غلاف جلدي... انتثر الغبار فوق رأس الصبي فسعل... لكن بلا دماء...

- شو بتقول إذا عرفت إنك يوئيل بن صفنيا؟

صمت الصبي غير فاهم... كيف يكون شخصًا قد عاش في زمن بعيد... نظر إلى أعلى في انتظار ثمرات إشعيا من شجرة علمه الغزير...

- الروح سلسلة ما بتنقطع بالموت، فقط بتغير القالب يالّلي بتخدم من خلاله أغراض يهوه... فحين مات بن صفنيا، انتقلت روحه لجسد وليد تاتستكمل رسالتها وتكفر عن أخطائها... انتقلت من جسد إلى جسد حتى وصلت إلك..

- وكيف تعرف أنني هو؟

- كل روح إلها هالة وبصمة... العرب بيعرفوا ها العلم باسم «الفراسة»، حين بيعرفون نسب البشر عن طريق ملامحهم.. بنعرفه نحن باسم التناسخ... بصمة الروح المورثة من جسد إلى جسد...

- وماذا أفعل؟

- عِش! لكن تذكر أن كل ما شي بشع راح تعمله، راح تتعاقب عليه في هادي الحياة، وراح يُبعث من بعدك باللي بيحمل روحك تايكفّر عن ما عملته... يمكن بيكون إنسان... أو شي خلق آخر...

- كيف؟ حيوان؟

- عندها بيكون التكفير النهائي عن مجمل خطاياك...

- ثم بعد ذلك؟

- تفنى الروح بالنهاية...

صمت الصبي وهو يفكر في عبثية الأمر... روح تنسلخ من روح تنسلخ من روح ثم تُعاقب... ثم تفنى! ما جدوى الحياة إذن!

- حدثني عبد الله عن جنة لمن يعمل خيرًا...

- بيوفى كل شخص من الأغيار جزاءه بها الدني... الجنة لليهود...

- أريد أن أكون مثلك...

ضحك الرجل حتى احتقنت أوردة رقبته فكاد يسقط عن كرسيه... نزل ثم تربع أرضًا مفترشًا مثلثًا من أشعة الشمس المتسللة من الباب...

- اجلس... اليهودي هو ياللي كان من أصل يهودي... إن كنت هيك فعلًا - وأكاد أجزم بها الشي - فأنت مثلي... وأرضك مون كأي من أبناء إسرائيل... أرتس يسرائيل...

- لكن...

- رأيتني أصلي بالأمس وعجبت من التِّفِلين ياللي بلبسه... هو مخصص للصلاة والأسفار كاملة بقلبه...

- ما الأسفار؟

- يومك طويل يا.... ما قلت لي... شو اسمك؟

- تحنا...

- اسم غريب... راح سميك أنا يوئيل... معناه... يهوه هو الرب... بتعرف من بيكون يوئيل؟

- لا؟

- هو نبي أرسله يهوه تايحذّر أبناء إسرائيل من ضربة جراد ويدعوهم للتوبة فيخفف يهوه عنهم...

اعتدل إشعيا في جلسته وفتح الكتاب بين يديه وأكمل حديثه وهو يقلب في صفحاته العتيقة...

- لكنها ما كانت ضربات من جراد في الحقيقة... سفر يوئيل إلُه تأويلات مختلفة... كل الأسفار إلها تأويلات غير ياللي بيفهمها العامة...

- ما التأويل؟

- التأويل هو التفسير... وتفسير ضربة الجراد هو الغزاة من المصريين والآشوريين والبابليين واليونانيين...

بيقول يوئيل: ما بقي من القَمَص أكلهُ الزحاف، وما بقي من الزحاف أكله الغوغاء، ومابقي من الغوغاء أكله الطيار...

أربعة غازين متعاقبين... لكن هونيك تفسير بيقول أنه كان جراد بالفعل إن الكلمات الأربع هي أطوار نمو الجراد...

أخذ الصبي يسأل عن معاني كلمات لم يفهمها فأفهمها إياه إشعيا بسعة صدر... صمت الصبي قليلًا كأنما يحاول استيعاب ما سمعه...

- إذن... ليس كل الكلام له معنى واحد؟

- طبعًا يا يوئيل... كل شي في الكون إله عدة معاني... وكل شي في الكون مخلوق من كلمات... خلق يهوه الكون من عشرين حرف من اللغة العبرية... وهي لغة يهوه...

- كيف؟

مد إشعيا إصبعه إلى الغبار تحته وكتب אבן...

- خلق يهوه الحجر من دمج ثلاثة أحرف... א وב وן... تنطقها «أبن» تعني الحجر... وهكذا... لهيك فللحروف قوة ما إلها نظير... ها العلم محفوظ في كتاب يتزيراه... كتاب الخلق...

- هل يمكننا خلق أشياء من الحروف؟

- لا يمكن لحدا إنو يخلق إلا يهوه... لكن يمكننا تغيير إشيا والتحكم بأخرى عن طريق الحروف...

قام أشعيا منهيًا الحوار اليوم... وقف أمام موقده يحضر الوصفات العلاجية ثم يغسل أغطية فراش الصبي في الخل ويضعها في الشمس... بينما يقوم بذلك، لم يرفع عينيه بنظراتها الجانبية عن الصبي الشارد الذي يحاول هضم ما سمعه اليوم...

سيموت ويحل في جسد آخر...

((... جسد حيوان؟....))

ثم سيفنى... ما الهدف من معاناته إذن؟ هل يكذب عبد الله؟أم يكذب إشعيا؟

هل هو حقًا يوئيل؟ هل له أرض هناك خلف آرارات؟ أم هو يهودي له أرض هنا خلف الطور؟

((... لي هنا وهناك..))

أرتس يسرائيل... أرض إسرائيل...

((.. تشابه غريب في اللغتين...))

لم كل تلك المعاني لكلمات واحدة؟ وكيف يؤثر اختلاف تلك المعاني كل ذلك التأثير على سامعها؟

((.. هل يمكنني الخلق من الحروف؟....))

اعتزم ألا يبرح صحبة إشعيا قبل أن يهتك أستار الغموض المغلف لتلك القوى الغريبة... والحل لفناء الأرواح الحتمي...

* * *

جلس عبد الله خارج خيمته يحاول كسر حُجُب المسافات بينه وبين صبيه المريض في جوف الطور...

يتلوا آيات في سره علها تطمئن قلبه... لا ينفك يقرأ «واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان» حتى يصل إلى «وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله» فيهدأ ويحوقل... وما يلبث إلا أن ينخر القلق قلبه مرة أخرى فيعيد الكرة من جديد...

نفث صويلح دخان الحشيش وجلس بجانب عبد الله الذي راح يلوح

بكفه في شرود إبعادًا للدخان الخبيث...

- أتحاول تفتيت صخر الجبل محملقًا فيه؟!

- لو أستطيع أن أخترقه فأنظر كيف حال المسكين مع الأفعى صفراء العينين...

- لا أعرف لم تكره الرجل إلى هذا الحد؟ ماذا فعل لك؟

- مرت خمسة أيام... أترى الصبي قد شفي؟ سأصعد بعد صلاة الفجر إن شاء الله وأحضره...

- فيم الاستعجال يا صاحبي؟ اتركه ما تبقى له من وقت ولنصعد معًا...

- أرأيت كيف نظر إلى وشم الصبي الغريب؟ أرأيت وجهه حين نظر إلى عينيه؟

- وما في ذلك؟ أصابه العجب من وشمه واختلاف لون عينيه... ذاك هو عين ما أصابنا نحن حين رأيناه أول مرة...

- لا... لم يكن عجبًا... هذا الرجل يعلم معنى ما لهذا الوشم... معنى خبيث مثله...

- الوشم لا معنى له... فقط جبل مقلوب مكتوب تحته آرارات... حياة جديدة... ربما هو وشم للتبرك بالجبل...

- قلبي يحدثني بسوء نية هذا الرجل... أتظن أن الصبي سيقضي يومه نائمًا؟ بالطبع سيرى وسيسأل وسيتعلم... تجنا ذكي يا صويلح... لا أعرف ما قد يضعه ذلك الرجل في عقله...

- ولم سيعلمه شيئًا يا عبد الله؟ إن كان الرجل ساحرًا كما تقول، فبم سيفيد من تعليم صبي لا يملك رقبته علومه السرية؟

- لا أعرف... ربما يهوِّدُهُ؟

ضحك صويلح وسحب آخر أنفاسه ثم واجه عبد الله بابتسامته المبقعة وهمس...

- يا عبد الله... يا شيخ... اليهودية لا تبشير فيها... يخافون إن زاد اليهود قل نصيب كل فرد فيهم من الجنة!

أكمل ضحكه وهو يقوم فيعد الأموال للمرة السادسة في يوم واحد... يحك قروح جلده المتزايدة من أثر الأفيون... كان يأمل أن يأخذ الصبي اليوم قبل غد... يتعجل شفاءه أكثر من عبد الله، يتعجل عبور الطور حتى يدخل مصر فيلقى جناب الأمير ليغدق عليه من فيض ما يملكه حين يرى تحفته الأثيرة القادمة من بلاد الجبل الأبيض...

* * *

سبعة أيام من لبخات البصل المطبوخ على ظهره وبطنه...

((.. وتساؤلات عن كنه الوشم خلف ظهره... كيف يبدو...))

سبعة أيام من شراب الحلبة والعسل وزيت الزيتون، ولفائف الحلبة والثوم مساءً على باطن قدميه...

((... وإجابات عن ارتس يسرائيل... والهيكل تحت المسجد... وخزر بالدون خلف آرارات...))

سبعة أيام من استشعار التحسن الصحي والعقلي... يتشرب فيها كلمات جديدة ومفاهيم عجيبة يقطرها على عقله إشعيا قطرة قطرة... يرقب القطرة تختفي تلو الأخرى في جنبات عقل الصبي... يبتسم ابتسامته العَكِرة..

((.. عشرة طبقات في شجرة الحياة يربطها عشرون رابطًا يمثلون الأبجدية

في اليوم الخامس بدأت أحلامه المستمرة ليلًا عن رؤيا النبي حزقيال التي حكاها له إشعيا... نار تأتي من الشمال تحمل عرشًا... لم يكن يهوه هو الجالس على العرش في رؤياه... كان يحلم بنفسه يحكم الكون على عرش من نار... لقد رأى إلهه الخاص...

ينظر إلى بنيان كتب إشعيا المرصوص صباحًا بعينين محمولتين فوق جبين منتفخين... يريد أن يعرف ما تحويه كل تلك الكتب... يريد أن يعرف كيف يصبح الملك فوق عرشه الناري...

- يوئيل... عقلك لِسّاتُه صغير... ما راح تفهم إن خبرتك...

- سأفهم... أخبرني...

- شو بتريد؟

- كيف يخلق يهوه من الحروف؟

تنهد إشعيا وقام إلى الشجرة المقلوبة المرسومة على الجدار الشرقي... وقف ينظر إليها فتبعه الصبي خوفًا من أن تفوته كلمة أو همسة من العجوز...

- إتطلع لها الشجرة... شجرة الحياة... جذورها في السماء عند الرب... وأوراقها في ها الدني...

فتح الصبي فمه في تشوق واضح حين صعد إشعيا على كرسيه وسحب كتابًا آخر فتحه على رسم قديم لعشر كريات مرصوصة بحيث تكون كرة في أعلى الصفحة وأخرى في أسفلها... في المسافة بينهما على اليسار ثلاثة كريات بعضهم فوق بعض وعلى اليمين مثلها... وبين الكرة العلوية والسفلية كرتان فوق بعضهما أقرب في المسافة إلى الكرة السفلى...

- لو بتريد توصل للعلم الإلهي... يجب أن تصعد في جسد الشجرة إلى أعلى... مارًّا بالسيفروث العشرة...

- ما السفروث؟

- سيفروث تعني كتابًا أو كلمة... منها إجّت كلمة الأسفار العربية... ومن ها الرسم الكروي استمدت اللاتينية كلمة سايفر... أو كرة... وكلمة صفر...

- كيف... كيف... كل الكلمات لها معاني كثيرة... من أصل كلمة واحدة...

- ما قلت إلك أن العبرية هي لغة الخلق؟ منها اشتق العالم مختلف ألسنته...

- أكمل...

جلس الرجل على كرسيه القصير بينما تربع الصبي أمامه فاتحًا كل حواسه لما سيقوله إشعيا...

- من زمن بعيد... ما يقرب من إتناش (اثني عشر) قرن... كان الرومان هون... على أرض يسرائيل...

- من يسرائيل؟

- نبينا وجدنا... اسمه في العهد القديم يعقوب... نزل من رحم أمه قابض بعقب أخيه فسموه يعقوب!

- عقب... يعقوب... أكمل...

- كان الرومان بيعذبو اليهود ويذبحو اللي بيمارس علانية شعائره... فاتجه اليهود إلى التصوف وممارسة العقائد بالسر تايعرفوا شو هي إرادة

يهوه من ورا ياللي بيحصل إلهم...

جدي الأكبر... شمعون بن يوحاي... اختفى من الرومان في كهف لمدة ثلاثة عشر عامًا، يتعبد ويتأمل حتى وصل لهيدا...

أشار إلى الكتاب وابتسم... مد الصبي يده إلى الكتاب فانعقد حاجبا إشعيا وأبعد الكتاب عن يد الصبي وإن أبقاه على مدى بصره الملهوف...

- هايدا كتاب زوهار المقدس... ما فيك تلمسه الحين...

- ما زوهار؟

- الضياء... بيشرح فيه البوابات ياللي لازم على اللي بيريد فهم إرادة يهوه أنو يعبرها... لابد من تأمل وصلاة دائمين... لابد من اتصال بالملائكة وعلم بأسمائهم... بيفقد عقله اللي بيحاول يترقى في طبقات الشجرة وهو منو مستعد لحضرة يهوه...

أزاح إشعيا الكتاب ووضعه على رف عال...

((... هذا يعني إنه لم ينته بعد... سيعود إليه........))

ثم أمر الصبي بالراحة وتناول وصفاته حتى يتم الشفاء... كانت حالة الصبي الصحية جيدة جدًا في تلك المرحلة، لكن شيئًا ما بداخله كان يمرض شيئًا فشيئًا... لم يكن يريد للأيام السبعة أن تنتهي غدًا...

يدور في حجرته وحيدًا تأكل النيران عقله...

يتمنى لو يموت صويلح ويتركه هنا... حتى حين...

* * *

في صباح اليوم السابع... انتهى إشعيا من صلاة الصباح ونادى على

الصبي ثلاثًا فلم يستجب... فتح باب الحجرة فوجد الصبي نائمًا لا يستجيب لصوته...

قلب إشعيا الصبي على ظهره وسمع صدره... لعق إصبعه ووضعه تحت فتحتي أنفه... مازال يتنفس وقلبه يتابع قرع طبول الحياة...

ابتسم ورفع يد الصبي إلى ما فوق رأسه وتركها تسقط... سقطت إلى جانبه...

هز رأسه وأزاح قدم الصبي ليجلس...

- كانت بتضرب وجهك لو ما كنت واعي... قم يا يوئيل... راح يحضر صويلح في أي وقت...

- لا أريد...

- ما ينفع تضل هون... هيدا لمصلحتك...

- قل لي معنى السيفروث العشر...

أمسك العجوز جَيدَهُ وصمت قليلًا ثم قام مشيرًا إلى الصبي كي يتبعه...

قفز الأخير من فراشه جاريًا حتى وصل إلى إشعيا وكتابه...

أخذ ينظر إلى عيني أشعيا وهو يتكلم ويشرح كأنما يود الغوص فيهما والاغتراف من معرفتهما...

يتكلم إشعيا ويردد خلفه الصبي في عقله... لا وقت للأسئلة... فقط احفظ...

احفظ...

((... السيفر الأول... كيثر... التاج... الماس... الملاك: قايوس هاقاديش...))

((الثاني.. شوكماه.. الحكمة.. الزمرد.. أوفانيم..))

((.. الثالث.. بيناه.. الفهم.. اللؤلؤ..... آراليم......))

((الرابع.. جيدولاه.. الرحمة.. حجر الجمشت.. العصا.. تشاشماليم...))

((الخامس.. جيبوراه.. الصرامة.. الياقوت.. السيف والسلسلة.. صيرافيم))

((.. السادس.. تيفيرث.. الجمال والتناغم.. التوباز.. صليب وردي.. ميليكيم..))

((.. السابع.. نتزاخ.. النصر.. الزمرد.. المصباح والحزام.. إلوهيم...))

((.. الثامن.. هود.. المجد.. الأوبال.. الأسماء.. بيني إلوهيم...))

((.. التاسع.. ييسود.. التأسيس.. الكوارتز.. العطور.. كيروبيم..))

((العاشر.. ملكوُث.. المُلك... الملح... الدائرة السحرية والمثلث.. آشيم.......))

- ... السيفروث رقم صفر... داات... الهاوية... أن لا تكون... سيفروث غير مرئي... لابد لك من عبوره لتعلم كل الحقيقة الخافية...

- أهو الموت؟

قرعات مدوية على الباب الخشبي خلعت إشعيا من مجلسه كما خلعت قلب الصبي من شغافه فجرى محتميًا بجدران الحجرة الداخلية...

قام العجوز ليفتح الباب فاندفع منه عبد الله خلفه صويلح يبدو عليه انتشاءٌ ما من أفيونه الصباحي...

- تجغا... أين أنت...

التقت عينا عبد الله بعيني الصبي المحاطتين بالسواد...

((... مياه أركاس الباردة وملمس الحرير... عيني عبد الله المستظلتين بسواد حاجبيه... ويتشلهم الرجال....))

توقف عبد الله لحظة وهو يحملق في صمت في عيني الصبي... يحجب حائط الحجرة الداخلية جسده عن عبد الله... لكن عينيه تفضح الكثير...

استدار عبد الله في تؤده إلى إشعيا الثابت في مكانه... يلتقي سواد حاجبيه تحت بياض عمامته...

- ماذا فعلت به؟

- داويته...

- أدوائك الآن سم يا ابن كوهن؟!

- دواء العقل سمٌّ للجهل يا ابن فاروق..

خطا صويلح بينهما مبتسمًا في تردد هو يبعد بكفه صدر عبد الله الذي يموج غضبًا عن صديقه اليهودي...

- أرى الصبي وقد عادت الدماء إلى وجهه... شكرًا يا إشعيا... كم كلفك العلاج؟

مد يده إلى كيس نقوده وأخرجه... نظر إشعيا إليه وابتسم...

- كلفني ياللي ما حدا بيقدر ع دفعه إلا هيدا الصبي...

وأشار للصبي الجالس في الحجرة...

ضحك صويلح في عصبية وقد بدأ يقلق من مساومة كريهة طالما راودت كوابيسه في لياليه السبع الفائتة...

- ماذا تعني؟ الصبي ليس للبيع... لن تستطع أن تأخذه مني...

ظل اليهودي على ابتسامته وصمته بينما اندفع صويلح إلى الحجرة فجذب الصبي من ذراعه فتعثر الأخير في غطاءه وسقط أرضًا...

- فووتش... لاااا... تفوجنيل إندز...

ظل الصبي يحاول الفكاك من ذراعي صويلح الملفوفة حول خصره وهو يطلق سيلًا من الكلمات بلغته مختلطة بزئير حيواني هادر...

دس صويلح وجه الصبي في صدره ليخرسه، . فشم الأخير روائح القروح والأفيون والحشيش فيها وجهه مندس في صدر العربي... يقارب الاختناق فيستشعر نشوة ما... يزيد ألم سقوطه على الأرض من دنو تلك النشوة الوشيكة...

يتحسس انبعاجًا في ملابس صويلح... كيس الأفيون...

((.. لن أموت... لن أموت... سأتسكع أمام باب الموت وأقذف أحجاري على نوافذه ولن يستطع أن يمسك بي... لن أموت...))

يقف عبد الله في مكانه يرمق الثنائي المتمازج المتمايل... لا يدري ما عليه فعله... هذا ليس صبيه... ليأخذه صويلح من هنا ثم ليقض الله أمرًا كان مفعولًا...

صرخ صويلح فجأة ثم ارتمى ظهرًا على الأرض... كان صدر ثوبه يتوسطه رقعة قانية تتسع في بطء بينما يلهث الصبي بجانبه وفمه ملطخًا بالدماء...

((.... دا ساتانان سيرفير! أسبانيل!.. هذا خادم الشيطان.. أقتلوه!..))

- لا حول ولا قوة إلا بالله... صويلح!

هرع عبد الله وجثا على ركبتيه بجانب صاحبه... مزق الثوب عن صدره

فوجد قطعة في أبعاد إصبعين من الجلد مفقودة... ليست غائرة... لكنها بالتأكيد مؤلمة...

كان العرق البارد يغمر جبين صويلح وسرت رعشات متتالية في جسده...

نظر عبد الله مستجديًا إلى اليهودي، فتحرك الأخير في تباطؤ نحوهما ممسكًا بقطعة قماش نظيفة...

في تلك الأثناء... كان الصبي يفك وثاق كيس الأفيون القماشي ويخرج في كفه كل ما كان فيه من عجينة بنية نباتية الرائحة، كورها في يده... وبلا أية مقدمات... دفع كل ثقله على كفه حاملة العجين وثبتها في غل على فم وأنف صويلح... يدس بأصابعه العجينة المفتتة في فتحات أنفه... يفتح الرجل فمه ليتنفس فيدفع الصبي ما تبقى في فمه...

- يوئيل!

- تجغا!

صاح الرجلان أحدهما ممسكًا بقطعة القماش وما زالت ساقه معلقة في الهواء في خطوة بدا أنه لن يخطوها أبدًا، بينما الآخر قابضًا على كف صاحبه المصاب بيد وبالأخرى يحاول في فشل محقق أن يوقف نزيفًا غير جاد...

في أقل من لحظة كان عبد الله يمسك بكفي الصبي ويحاول إبعادهما عن منافس صاحبه، يتحاشى التقاء العينين بالعينين...

يقبض عبد الله على أنامل الصبي محاولًا أن يثنيها عن تشبثها القاتل بروح صويلح... ولما يأس، أمسك بكتفي الصبي وأخذ يهزهما عل الشيطان المتلبس به يرحل عنه...

((... مففف.. كحححح... مففففففففف.........))

لأول مرة يشعر الصبي بذلك الشعور المخادع العجيب... يشعر بالاختناق لكنه لا يختنق فعليًا... يشعر بابتعاد الهواء عن رئتيه فتسود حدود العالم من حوله، لكنه لا يزال بكامل وعيه...

يشعر بالضبط بما يشعر به صويلح... يرمي حجرًا آخر على نافذة الموت... يشعر بالنشوة اللعوب مرة أخرى تتمايل أمامه في دلال... يضغط يده على أنف وفم صويلح أكثر عله يقبض على تلك النشوة الغانية العظيمة...

يعشق الألم ويرتمي عند قدميه عابدًا في كل مرة يظهر فيها ببهاءه العظيم...

لم لا ينصِّبون الألم ربًّا؟!

((..... لم يكن يهوه هو الجالس على العرش في رؤياه... كان يحلم بنفسه يحكم الكون على عرش من نار. لقد رأى إلهه الخاص..))

لم لا ينصبونه هو ربًّا للألم...

لكن شيئًا في عيني عبد الله ألقى دلاء من الرحمة في روحه المشتعله... التقت عيناهما فقر الألم ونشوته برقبتيهما...

شيء ما لم يكن خوفًا... لم يكن رجاءً... يعرف فقط «ما لا يكونه» هذا الشيء، لكنه أبدًا لن يعرف كنهه...

تراخى تشبثه بصويلح فسقط على ظهره من أثر دفع عبد الله له...

ـ أخي... أخي... انظر إليَّ... أخي...

يخرج عبد الله الأفيون المعجون باللعاب من فم صاحبه.. يحاول أن يخرج المتبقي من أنفه... بدا أن صويلح لا يتنفس... عيناه مفتوحتان بلا رؤيا...

تقدم إشعيا في برود ووضع قدمه على قفص صويلح الصدري وضغط ضغطة قوية واحدة كانت كافيه لأن تقذف فتاتا من الأفيون من فمه...

تراجع عبد الله على ركبتيه فزعًا، يشاهد العجوز يمارس مهنته المعلنة منذ ما يقرب من أربعين عامًا...

بينما ظل الصبي يرمق ما علق تحت أظفاره من الأفيون، ويحاول استرجاع نشوته الهاربة...

* * *

وجودي على بيت الشعر عقب بيت الطين...

وجودي على شوف المغاتير منثرّه...

وجودي على خوّة هل الموتر المقفين..

وجودي على شوف السهل من ورى الحرّه..

إليا حلوّا العربان وصاروا على بيتين..

ومن كان له خلٍ معَ ذاك ما غرّه..

ركب عبد الله حصانه صاعدًا الطور مرةً أخرى بعد أن أخبر رفقائه من التجار عن ما حدث لصويلح... آثر أكثرهم الانتظار حتى يطمئنوا على حالته ويستقروا على مصير بضاعته التي معهم...

يرتكن أحد التجار على خيمته ويترنم بأبيات بلهجته... يثير صوته شجنًا قد حبسه عبد الله وإلا لتفشى في جسده، مهاجمًا كل قوى تقيم عوده وتشد أزره...

يصعد... وتتبعه عينا الصبي المجنونتين..

يصعد... يفكر... أي سم حقنه إشعيا في عقل الصبي...

ومن نافذة البيت الحجري، ظل الصبي يتطلع إلى السماء الزرقاء...

لم يشعر بها شعر به صباحًا من قبل...

كيف شعر باختناق صويلح؟ كيف بدت نشوة لعوب، تلك التي تسللت إلى معبد لذته...

يمسك طرف الخيط الأحمر حول رسغه ويديره...

يبرم طرفه فيضيق أكثر...

مازال شاردًا على أعتاب الألم يطلب مأوى...

ينغرس الخيط ببطء في جلده فيتقرح...

يوارب الألم بابه فتتبدى النشوة في ثوبها الشفاف... تكشف جسدها في دلال...

يسلخ الخيط الجلد فينز من جرحه الدم الساخن...

يُذبح من حارس الأرواح الشريرة... فيلوث الجرح بشرٍّ من نوع جديد...

نشوة الألم تغدو مِلكه... ترتمي بين ذراعيه...

يرفع رسغه الذبيح ويغمض عينيه...

يلعق الدماء... يلعق بقايا الأفيون من كفه...

يلعق الألم ويرتشف أولى قطرات الجنون...

ولا يزال أشعيا يجلس بلا حراك... شبح الابتسامة لا تطرده شمس الصباح...

ينظر بين الحين والآخر إلى جسد صويلح الممدد بجانبه...

ما زال حيًّا... حتى الآن...

لم ير من ظل حيًّا بعد عضة إنسان...

لا يوجد ما يفعله أكثر مما قد فعله فعلًا...

لكنه حين فتش الحجرة بعينيه الصفراوين... لم يجد قطعة الجلد المفقودة من صدر صويلح... لقد أكلها الصبي!

هو ليس بن صفنيا الخزري...

هو ليس يوئيل المنذر...

هو ليس تجغا الصبي...

لقد اختارته سيدة أرارت... وقد قيل له أن يثق في اختياراتها حين تختار... وأن يدعم مشيئتها إن وقعت تلك المشيئة بين يديه...

لابد أن يصل الصبي إلى وجهته بعد أن بذر في نفسه الخصبة بذور الكلمة...

خلق الخالق الكون بكلمة... ولن يضاهي شيء قوتها...

* * *

يخترق الحصان المسافات... الصحاري والجبال...

يخترق ذكريات رب الألم في أرض ميعاده...

يموت صويلح في اليوم الثامن من رحيل القافلة... يموت متشنج الفك متهدج الأنفاس بين ذراعي عبد الله... لا تفارق عيناه ملامح الصبي المنتشية مع كل هزة احتضار في جسد صويلح...

لن ينسى فم الصبي يلوك لحم صويلح يومها...

هذا شيطان بعث ليتغذى على أرواح البشر... جاء ليحكم مملكة الموت على أرض دائمة الاحتضار...

لم تلتقِ كلمات عبد الله بآذان الصبي مرة أخرى منذ أن نهش الحياة من صدر صاحبه... منذ أن سلخ ثوب البشر عن أصل روحه الخبيثة...

((.. ما تحاول شي... اذهب به إلى حيث أراد له صويلح... ما عاد ذات الصبي يالّلي دخل هون على ذراعي صاحبك... ومع هيك... بيضل هو ذاته يالّلي ما حدا عرفها حتى هو نفسه..))

لم يفهم فحوى كلمات العجوز الملتفة، لكنه وعي جيدًا أنه وجب عليه الخلاص من هذا الكائن الراكب خلفه على جواده...

شيء بداخل عبد الله منعه عن التفكير حتى في تركه في الجبل وحيدًا... شيء همس له أن الصبي ما هو إلا روح من خلق الله، وما كان ليترك روحًا تهلك...

((.. أيخلق الله روحًا كهذه؟... أستغفر الله العظيم... أستغفر الله العظيم......))

أعتبر أن الصبي الذي أنقذه من مياه أركاس قد مات يوم أن دخل بيت إشعيا... وهذا هو فقط حمل سيوصله لصاحبه في أسرع وقت...

كان الصبي يمسك بملابس عبد الله كي لا يسقط من خلفه... لم يربطه عبد الله عله يهرب... عله يسقط فتطوى تلك الصفحة من حياته على يد خالقها...

كانت ثياب عبد الله ترفرف في الهواء وتلطم وجه الصبي... تتقطع أنفاسه من سرعة عدو الجواد...

الجبال تتبدل صحراء فسهولًا فقرى صغيرة مزدانة بالزروع...

وجوه قمحية كلون خير أرض مصر...

لهجة مختلفة دافئة...

((.... إيش حالك ياسيد أحمد... حصلتلنا البركة يا مولانا....))

تدور السواقي فتروي أراضٍ سوداء... صفوف الفلاحين تحت شجرة يصلون في ظلها...

يعطي أحد الفلاحين اللبن الرائب وعدة أرغفة لعبد الله... يعطيه عبد الله كل الطعام ويجلس تحت نخلة يرمق الأرض ويذكر الله...

((.. لقمة هنية...))

هناك شيء ما في هذه الأرض... شيء في تلك العيون السمراء... همس متواصل بين سمائها وأرضها... نباتها وأهلها... منظومة فريدة... قديمة... ككنز يتكشف إلى النور أمام عينيه...

بريق الذهب ونعومة الحرير... صوت كورتشينا...

لا شيء مقارنة بهذا الذي يراه... ذلك الذي لا وصف له...

وسرعان ما تبدّى سور القاهرة العتيق عند مغرب الشمس...

القاهرة... الوعد... والوعيد...

* * *

ترك عبد الله قافلته تتجه إلى الأسواق ليبيعوا بضاعتهم المختلفة ثم يلقاهم نهاية اليوم في دار التفاح ليبيتوا ليلتهم فيه... وغدًا له تدابيره عند خالقه...

ثم توجه إلى قصر المملوك علاء الدين النجمي... هذا هو الاسم الذي سمعه من صويلح، وهو اسم تردد كثيرًا خلال رحلاتهم إلى القاهرة...

الأمير علاء الدين النجمي... المملوك الجركسي ذي النفوذ والسلطة... وقد كان من خاصكية سلطان الديار المصرية السابق الأشرف سيف الدين قايتباي ومن أقرب مماليكه إليه...

ورث عن أستاذه قايتباي قليل من البخل وكثير من العلم والحنكة... ورث سرعة غضبه وسرعة صفاءه... كان «محبوبًا شريفًا تقيًّا» كما كانوا ينعتونه، وكان يحبه القوم من حوله...

وحين ترجل عبد الله والصبي عن الجواد أمام بوابة القصر، نظر الصبي إلى ما حوله في انبهار تام...

كان يسير ويتخطى حرس البوابة خلف عبد الله، لكن عينيه لم تزل معلقة بالمصابيح المعدنية السوداء المعلقة على جدران القصر الخارجية، تضيء نخلة ضخمة وحيدة في صحن القصر، بينما اسطبلات الخيول على يساره تضج بحملها من أجود الخيول العربية...

رائحة بخور هندي باهظ محمولة على دخان ملتو متسلل من أسفل ثقوب المبخرة النحاسية العملاقة في المجلس...

همسات الخدام من خلف الجُدُر وحفيف نعالهم...

تواشيح صادقة بصوت شغف حبًّا بخالقه...

((... حبه لله

يبقى للدهر بخشيته...

وله الأمر

فيما علمه من هيبته...

سبحانه وتعالى

جل وهو المدبر لقدرته...

اغفر لمن لا يملك إلا الدعاء

فأنت العارف بمعصيته...

وهو الذي جاءك لطلب العفو

ومغفرته...

يا رب وأنت أعلم بها

يجول بنيته...

هذا الإنسان الذي احتاطت به

مقدرات معيشته

يسألك اللهم بالتوفيق

لحسن خاتمته..))

أذن المغرب بصوت شجي فطارت الحمائم مرفرفة فوق الرؤوس...

تطل المشربيات الخشبية فوق تبادل الأحجار الخضراء والسكرية في الجدار أسفلها... يسمع الصبي عزف ريح الربيع على تقاسيم المشربيات الحزينة...

وصوت «الكوسات» والطبول تدق من داخل القصر...

لقد حضر الأمير...

يلتفت عبد الله خلفه ويتمنى لو يفر الصبي... يتمنى أن تعفى يداه من بيع رقبة حرة، حتى وإن كان يسكنها إبليس ذاته...

لكن الصبي لم يزل خلفه... يسمع ويشم ويرى... يتنفس خلاصات مصر في صدره...

يتنشق نسائم المُلك العظيم...

* * *

ما زال عبد الله واقفًا في الركن ينظر إلى الصبي الساجد أمام الأمير...

يمسك الطواشي برأس الصبي ويرفعها فيستقيم واقفًا...

ينظر الصبي إلى الأمير الجالس على تخته المهيب...

يتفحص ملابسه الموشاة بخيوط الفضة والخواتم الملونة من أبهى الأحجار الكريمة تزين كفيه...

خاتم ماسي ضخم في خنصره يعكس كل لون خلقه الله في دنياه...

عمامة حمراء محكمة تتوج وجهًا شديد البياض، أحمر الخدين والأنف...

تعلو وجهه عينان عسليتان تخلوط فيهما القسوة والرحمة في مزيج متقلب متغير لم ير له مثيلًا...

وكان الأمير يتفحصه بالمثل ويده تحت ذقنه... يتابع ما يكشفه له الطواشي من جسده الفارع القوي...

يهز رأسه في رضا وظل ابتسامة ينعكس على شفتيه تحت شارب ضخم رمادي اصفر منتصفه...

أشار الأمير للطواشي أن يدير الصبي فأداره... مال الأمير للأمام مقطبًا، محاولًا فك طلاسم المكتوب على ظهره...

- إيش يكون اللي على ضهره؟ وشم جبل؟
- نعم يا دولة الأمير... وشم وتحته طلاسم عجيبة...
- شوفلنا واحد خوجة يقرالنا المكتوب... وخده على البيمارستان بعد صلاة الفجر...

ينحني الطواشي ويمسك الصبي من ذراعه خارجًا به من القاعة الفاخرة،

بينما يعتدل الأمير في كرسيه وينظر إلى عبد الله الذي ظن أنهم نسوه...

- وايش اسم الغلام يا شيخ؟
- لا أعرف... يقول أن اسمه تجغا يا سيدي...
- ممم... وكم ثمنه؟
- كما ترى يا سيدي...
- أعطيك فيه عشرين دينار...
- كما تأمر يا سيدي...

نظر الأمير في تعجب إلى حارسه ثم ما لبث الحارس أن أخرج كيسًا به المال أعطاه لعبد الله الذي أخذه مطرقًا إلى الأرض...

- قللي التقيته فين؟
- في هايستان يا سيدي..

هز الأمير رأسه في فهم فانحنى عبد الله محاولًا أن ينهي مهمته الكريهة في أسرع وقت...

سمح له الأمير بالرحيل فخرج مسرعًا يكاد يتعثر في ثوبه، يمسك صرة المال كأنما يقبض على جمر... لولا خشيته من الإقلال من شأن الأمير برفضه المال، لكان قد رفض أن يمس بارة من ثمنه...

خرج عبد الله من البوابة الفاخرة ونظر إلى يمينه... كان الصبي يركب خلف الطواشي على بغلة مبتعدين في قلب الشارع الصاعد... التفت الصبي خلفه فالتقت عيناهما لأول مرة منذ مات صويلح... للحظة شعر عبد الله بصبيه القديم يشير إليه من خلف عيني الشيء الذي تحول إليه... شيء يشبه الوداع يطل من هناك...

رفع عبد الله يده ثم أسقطها... فتح فمه في نداء مبتور ثم أغلقه...

تدفقت دمعة أخيرة من قلبه فوأدها...

استدار سائرًا إلى المسجد تاركًا جواده في مربطه أمام قصر الأمير...

الأزرق يزحف على الشارع رويدًا رويدًا... تغلق الحوانيت ويجري الأطفال إلى بيوتهم...

مازال المسجد يضيء بقناديل الزيت مضطربة الضوء... يضع المال بصرته في صندوق النذور ثم يتوضأ...

يغسل يديه متحللًا من إثم لم يرتكبه...

((... ألم يكن من الأفضل أن أحاول هدايته بدلًا من بيعه كعبد...))

... المملوك ليس بعبد... المملوك محارب وفارس وله أكثر مما لكثير من الأحرار في بلدهم... علاء الدين النجمي كان مملوكًا... والآن هو أمير له قصور وأموال...

ألم يكن ذلك أفضل له من الشقاء كتاجر بينهم...

((.. أم خفت على نفسي وتجارتي من شر نفسه... لقد قالها لي إشعيا... الصبي لم يعد هو نفسه الذي عرفته...))

يغسل وجهه ولحيته فتخلط دمعاته القليلة...

((... الآثمة....))

... بطهارة الماء، فيهدأ... تلك هي مشيئة الله... تلك كانت وصية صويلح قبل أن ينغلق فكه إلى الأبد بتلك التشنجات...

((... تخلص منه يا أخي... إنه رجيم...))

تلك كانت نصيحة يهودي شَحَّت نصائحه..

((... تلك هي إرادة الصبي... لقد كان سعيدا... أقسم بعزة الله أنه كان سعيدًا على البغلة خلف الطواشي...))

يقف خلف جماعة تصلي متأخرة.... يكبّر ويدخل معهم في الصلاة...

- ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾

الله أكبر...

يركع عبد الله خلف الإمام ويسجد..

ينهي صلاته بعدهم فيجلس يسبح ويذكر، ثم يرتكن إلى الحائط ويجلس شاردًا...

* * *

قضى الصبي ليلته في حجرة منفردة بجوار اسطبلات الخيل... أعطاه الطواشي العجوز طعامًا

ووعاءً فخاريًّا مملوءًا بماء منكه بماء الورد...

استبدل الصبي بملابسه الواسعة والتي كانت من ملابس عبد الله أخرى بسيطة وجديدة ثم حفر في الأرض الترابية للحجرة ودفن ملابس عبد الله...

لم يكن يعلم لم فعل ذلك... لم يكن يضمن أن يعود لذات النقطة مرة أخرى ويستخرجها... لم يكن يعرف جدوى استخراجها من الأساس... لكن شيئًا داخله قد شعر اشتياقًا لذلك الرجل... شيئًا آدميًّا منزويًا في ركن نفسه المجنونة...

نام ولم يفكر ليلتها في شيء مطلقًا... أغلق حواسه تمامًا ونام كما لم ينم منذ ولد... نام كأنما قد عرف أن لا نوم بعد الليلة...

وفي الصباح الباكر أيقظه الطواشي وأخذه خلفه إلى البيمارستان المنصوري...

كان الطواشي رجلًا في أواخر الخمسينات، طيب الملامح قليل الكلام... يتعامل باعتياد وشيء من الملل مع كل شيء...

لكن الصبي لم يغفل نظرات الرجل الفضولية إلى عينيه كلما سنحت له الفرصة...

في طريقهما إلى البيمارستان، رأى الصبي الحارات المصرية في ضوء النهار النقي... في ضوء مستقبل أُضيء غموضه إلى حد كبير...

كان يستكشف من سيكونون رفاقه على ذات الأرض من اليوم...

يتأمل الباعة الجائلين ينادون على بضائعهم...

يتأمل النسوة في الأسواق..

لا يتبدى منهن سوى عينين كحيلتين...

يتنشق روائح الفول المدمس وعصير الليمون والكمون في خليط بارع شهي...

أشجار الليمون قد بدأ زهرها الأبيض في التفتح وإرسال شذاه في الطرقات...

حتى وصل إلى مدخل المشفى العظيم...

ترجل خلف الطواشي وتقدم إلى المدخل الفسيح حيث مربط الدواب والفسقية هائلة الحجم في المنتصف يحيط بها أشجار الجميز العتيقة...

المشفى يمتد عمره في الزمن إلى ما يقرب من مائتي عام... لكن يد العناية لم تنقطع عن المبنى وما حوله فبدا جديدًا نظيفًا كأنما بُني لفوره...

وفي الداخل رأى الصبي ما كان يراه عند إشعيا من أدوات طبية وخلطات وأعشاب لكن بشكل مرتب منظم، نظافة وترتيب شديد في كل شيء... نظام لعزل المرضى الذين يحملون أمراضًا معدية...

بدا للصبي أن هذا المكان هو المكان الأمثل لانهزام الموت على أعتابه... ود لو ترك الطواشي وذهب يجول في العنابر... يفحص عن كثب مخالب الموت في أجساد المحتضرين... يتعلم كيف يسبك سيفًا من علم لينحر عدوه المخيف الغامض...

فحص الطبيب جسده وفمه وعينيه... بدا مندهشًا كونه بهذه السن الصغيرة ويمتلك جسدًا بهذه القوة والحجم...

أجفل حين نزع الطبيب سنًا مخلخلة في فمه، نظر إلى الطبيب المبتسم وهو يقول...

- كانت راح تقع الليلادي قبل بكرة... خد ارميها في عين الشمس بدل ما تقع في تدريبك وتقل قيمتك بين زملاتك...

مبارك على دولة الأمير... مملوك عفي وزين...

أنقده الطواشي حلوان المملوك الجديد وخرج بالصبي إلى ركوبتهما بينما عيناه لازالتا معلقتين بالمشفى...

قبض الصبي على سنه اللبني وابتسم... فاليوم أول أيام الرجال...

* * *

في ظلمة الليل كما في وضح النهار...

في قيظ اخر كما في زمهرير البرد...

هو الآن صلاح الدولة النجمي...

حمل اسم سيده الذي يمر على الطباق في قلعة الجبل يوميًّا ليرقب أحوال مماليكه... وليرقب صلاح الدولة تحديدًا...

تعلم خلال الثلاثة أعوام الفائتين اللغة العربية وأصول الدين الإسلامي والفقه والشريعة... لفت نظر مؤدبيه سرعه تعلمه اللغة، كما راح يتعلم سماعيًّا لغات زملائه المماليك من مختلف البلاد...

أتقن اللهجة المصرية كأهلها، أتقن تراكيب وتصاريف اللغة بمهارة شديدة كما أثار عجب الأمير بفصاحته وقدرته غير المألوفة على التلاعب بمعاني الكلمات...

إلا أن تعاليم الدين الإسلامي لم ترسُ في قلبه وإن حفظها تمام الحفظ... كان ينبَّه إلى مواعيد الصلاة في أوقاتها الخمس ولا يزال يتهرب منها كلما سنحت له الفرصة لذلك...

عقد الأمير النجمي آمالًا كبارًا على ذلك المملوك بالذات، حتى أنه تولى شخصيًّا ضربه لإجباره على الالتزام بالصلاة... لكن لدهشته الشديدة، كان المملوك ينتشي بالألم بل ويقهقه ضاحكًا... لم يكن يطلب الرحمة ولا الغفران... فقط لسان حاله يطالب بالمزيد...

لم يستطع الأمير يومها أن يقرن اسمه باسم الدين... فسماه صلاح الدولة... وهو اسم متفرد على مر تاريخ المماليك السابقين...

وحين بلغ صلاح الدولة الرابعة عشر من عمره، آن أوان تدريبه قتاليًّا في معسكرات المماليك بقلعة الجبل...

كان يجتاز مراحل التدريب على ركوب تماثيل الخيل في براعة شديدة... سرعان ما تقدم إلى ركوب الخيل الحقيقية...

وحين تعلم مداواة الخيل وعلاجها... لم يستطع أحد الاقتراب من الجواد الأبيض الناصع «الأكمل» إلا هو...

كان الأكمل جوادًا من النوع الإنجليزي العربي... كان أبواه هدية للسلطان قايتباي وقد أهدى الأخير للأمير النجمي الأكمل، إلا أن أحدًا لم يستطع ترويضه كما يجب... كان مراوغًا لا يحلو له إلا إن يلقي براكبه بعد أن يأمن إلى ركوبه!

لكن الأكمل وقف ساكنًا أمام صلاح الدولة...

تبادلا النظرات كأصدقاء قدامى وسط صمت مطبق من الحاضرين... مسح صلاح الدولة على شعره الناصع الكثيف الذي يغطي جسده القوي الضخم فمسح الجواد منخريه في شعر صلاح الدولة...

حبس مؤدبه أنفاسه حين امتطاه الشاب الصغير بلا سرج... أغمض عينيه في انتظار السقوط الحتمي... لكن شيئًا لم يحدث...

طار الخبر إلى الأمير في حينها، وحين حضر على وجه السرعة، كان صلاح الدولة يملأ الأرجاء بضحكاته المجنونة فوق الجواد المنطلق بلا رادع...

هز الأمير رأسه وأمر بإبعادهما عن بعضهما، فأكمل الشاب تدريبه على حصان أشهب عربي حتى أتقن الرمي بالقوس...

وقد جن مدربه من وَلع صلاح الدولة بالرماية على أهداف حية... كان دمويًّا مختلًّا لا ينفع معه كل أساليب التأديب الجسدي...

لكن الأمير النجمي كان أسيرًا لشخصية صلاح الدولة ومعسول كلامه...

أسيرًا لشبابه البائد الذي يراه في شاب ليس من صلبه...

كان شابًا مطيعًا لا يعصي أمرًا إلا فيم يتعلق بالدين أو دموية تفكيره هو شخصيًا... كان الأمر الأول هو أكثر ما كان يؤرق الأمير... لكنه لم يتوقف عن المحاولة يومًا ويأمل أن ينصلح الحال...

وفي أول يوم لتمارين ضرب اللباد بالسيف، سقط المملوك تلو الآخر تعبًا قبل أن يكملوا الخمس وعشرين ضربة الخاصة بهم، بينما وقف صلاح الدولة يضرب طبقات اللباد وقد دخل في حالة جنونية أطلق خلالها عنان كلماته الأرمينية المختلطة بزئير وعواء حتى تعدى الخمسمائة ضربة في مائة طبقة من اللباد!

وفي آخر الخمسة عشر شهرًا... شاهد جمع الأمراء تحفة النجمي الأخيرة وهو يضرب على فرسه بسيفين عن اليمين وعن اليسار محطمًا النشابات، صارخًا بصوت لم تعهده حناجر البشر...

وحين نزل صلاح الدولة النجمي عن جواده راكعًا عند قدمي سيده... التهبت الأكف بالتصفيق غير عابئين بمناصبهم ولا بالحسد الدفين بداخلهم على ذلك الأمير الذي وجد مقاتلًا تهتز الأرض تحت حوافر جواده وينشق الهواء بضربات يمينه ويساره...

رفع الشاب رأسه من ركوعه فالتقت عيناه بعيني الأمير... لحظات حتى انفلتت ضحكة من وقاره أتبعها بضمة قوية حانية...

كانت لحظة أبوية لم يشعر بها صلاح الدولة من قبل، وإن لم يبخل الأمير عليه بعلم أو حنان من يوم أن جاء مملوكا له...

كان عوضًا له عن ما وارته الأرض من أبنائه الذكور الثلاثة...

لحظة بعثت لبرهة في الشاب ذكرى رجل عربي أسود اللحية جاء وذهب كنسمة لطيفة...

* * *

- الميّة وصلت ستاشر درااااااع.....! يا أهل الديار المصرية.........

تنطلق البخور من مبخرة نحاسية عملاقة...

يقف صلاح الدولة الشاب الصغير أمام مرآة مذهّبة ضخمة... يمسح بخار الماء من حمام سابق معطر بزيت الريحان والمسك...

يتأمل ما نحتته التدريبات في جسده...

يتحسس لحيته المشذبة بعناية وشاربه المقوسة أطرافه إلى أعلى...

يرتدي لأول مرة تلك الملابس الفاخرة المصنوعة له خصيصًا...

يلف جذعه بالقمجون الأبيض الناعم طويل الكمين...

((... كثوب الحرير... كصوت كوريتشينا...))

تنصب سيقانه الطويلة في بنطال واسع يخفي قوته القاهرة...

يغلق مقدمة قبائه التركي واسع الكمين من اليسار إلى اليمين على صدره كعادة الفرسان، ثم يزين خصره المشوق بحياصة معدنية ذات نقوش عربية أخاذة...

يعلق سيفه الطويل الرفيع المعقوف في مِنطَقَتِه ويلف عمامته الحمراء حول شعره الطويل المربوط إلى الخلف...

لقد أصبح اليوم سيدًا...

لقد أهداه الأمير علاء الدين هدية مميزة للغاية...

لقد أهداة الأكمل...

يمتطيه وهو في كامل زينته في موكب السلطان للاحتفال بيوم وفاء النيل...

وافق ذلك اليوم يوم انتهاءه من التدريبات وأصبح مقاتلًا مملوكيًّا... أصبح حرًّا وصار يمتلك إقطاعًا من الأرض في قصبة قليوب... صارت له دار وخادم...

صارت له جامكية يقبضها شهريًّا...

صار رجلًا...

واليوم وفى النيل بوعده الأزلي ودار المنادي في شوار القاهرة يزف البشرى للمصريين الذين أمضوا ليلتهم السابقة حول ضفافه موقدين القناديل والشموع... يغنون ويرقصون احتفالًا...

وفي الصباح سيجتمعون حول مأدبة السلطان في الشوارع... يأكلون ويتمازحون...

يراهم في المراكب النيلية من حول حراقة السلطان...

يرى الأعين السمراء لنسائهم خلف البراقع... يرى طين ضفاف النيل متجسد في حيوات مصرية أصيلة... تنصهر سدود الزمن فما يدري في أي زمن هو...

شعب لا يزال يحتفل بعيد فرعوني منذ آلاف السنين...

شعب تذوب أديانه في وهج فوانيس رمضان... في بركة عيد الشهيد والخيام المنتصبة على شاطئ نيل شبرا...

شعب يلتف حول أمير النيروز على حماره... يتبادلون الحلوى ولقمة القاضي...

يزينون معًا الكنائس في كيهك احتفالًا بميلاد السيد المسيح... بشموع ربما أخذت من فانوس رمضان فائت... أو بقنديل من حجرة رجل دين...

بعض تلك الاحتفالات رقبها من فوق المقطم وهو بعد في قلعة الجبل... بعضها قد شهدها بحضوره شخصيًّا ضمن حاشية الأمير علاء الدين...

لكنه أبدًا لم يفهم كنه هذا الشعب...

تارة يشعر بحسدهم له... بنظرات جائعة لثيابه وبيته وفرسه...

تاره تجدهم منغمسين حتى النخاع في زهد لا يفرق بين مسيحييهم ومسلميهم... رضا بالحال والقضاء، وحبًّا أزليًّا يدغدغ فيه بقايا إنسان متخفٍ...

* * *

يوم دار المحمل في شوارع القاهرة محمول على جمل مزين بالفضة والحرير الملون... كان في المقدمة على فرسه مع فرسان آخرين في طريقهم إلى قضاء فريضة الحج لأول مرة في حياتهم...

يحاول السيطرة على هياج غير مبرر للأكمل...

ربما صوت الصنج النحاسية والطبول... لكن الأكمل مدرب على الضوضاء العالية المخيفة، فهو قبل كل شيء حصان حرب...

وبما المهرجين المتقافزين أمامهم والمسمين بعفاريت المحمل... ربما تهليل الناس وتكبيرهم...

لم يعرف أبدًا...

لم يكن الأكمل جبانًا، لكن شيئًا ما في وجهتهم المقدسة كانت تنثر الأرض شوكًا تحت حوافره...

بل كانت تنثره في جوف صلاح الدولة شخصيًا...

لم يكن يريد الذهاب... لم يكن يريد التطهر... فكأنما آثامه القديمة تدفئ قلبه الممسوس بعشق سري للألم...

وكانت تلك المشاعر تصل كاملة غير منقوصة للجواد فتعكر ما تبقى من أخلاق الجياد فيه...

ثلاث مرات نجح فيهم صلاح الدولة في السيطرة على شرود الجواد، لكن في المرة الرابعة انتصب على قائمتيه الخلفيتين ثم نزل على صدر شاب وقف يشاهد الاحتفال...

ينهال على صدره مرة تلو الأخرى... صوت دق الحدوات على العظم يوقظ النشوة الكافرة في عروق المملوك...

يرخي قبضته على اللجام... يتركه على غاربه...

((.. اضربه... أكثر... أنا سيد الألم... أنا الموت....))

فأرداه صريعًا في التو...

لم يترجل عن جواده، وإنما صار يشاهد الهرج والذعر المتسلل بين الصفوف سارقًا فرحتها كلص في مولد...

تحلق جمع حول الشاب بينما آثرت الأكثرية أن تبتعد إلى موضع آمن... انكفأت أم الشاب عليه تولول انتفاضات جسده الأخيرة وترمق صلاح الدولة من أسفل بعينين انحبس الدمع فيهما...

((... منك لله... منك لله... حسبنا الله ونعم الوكيل فيك... آه... يا ضنايا.....))

لم تكن تتحدث... لم تفتح شفتيها المزمومتين... فقط سمع كلماتها في عقله

كاملة بصوتها المرتعد...

((.. أنه.... بموت... فين ال... لا... لا....))

يسمع آخر همسات احتضار الشاب التي لن تفارق ضلوعه المهشمة... كان يبتعد... في هاوية لم يعد منها أحد... كان الألم شديدًا حتى تهاوى معه وعيه في ذات الهاوية...

شعور المحتضر الشاب يرسل مراسيل الدم إلى النشوة الساقطة...

لحظات مسروقة في حضنها القاسي... تعتصره فيقطر الألم والحب والصديد...

يغيب في سبات العشق المحظور غير عابئ بما يحدث حوله...

تتحول الضحكات إلى صرخات...

((... جناب المملوك ضرب إبراهيم في صدره ما حط منطق....))

تتحول الموسيقى إلى لحن جنائزي يعزف أنشودة الخوف والخنوع..

((... مالوش دية.. العوض على الله....))

وجه جديد يتكشف للمصري... الخوف... وهم الحرية التي يعيشونها بينما يسودهم العبيد...

كان للخوف لذة أخرى... سطوة أخرى... ومُلك جديد...

لم لا ينصبون الخوف إلهًا؟

لم لا يكون هو ذاته الخوف... هو ذاته الإله؟!

يبتعد القوم حاملين الجسد الهامد، بينما يكمل المحمل مسيرته صامتًا... يعود صلاح الدولة لوعيه على يد الأمير علاء الدين قابضة على يده الممسكة

باللجام... يقوده إلى القصر في سرعة غاضبة...

- دولة ال.....

- هيست مملوك جوزوبيك... أبتال!

- بيلميوردوم..................

- كاباماك!

لم يسمع الأمير في غضبه تبريرات صلاح الدولة... فقط أمره أن يصمت... رآه متهورًا غبيًّا...

كانت التركمانية هي اللغة الوحيدة التي يفقهها الأمير في غضبه... يشتم ويتألم ويثور بها... ثم تعود العربية للتفاهم فيما بعد... اللغة الاصلية هي التي تطفو دائمًا على السطح في أحلك المواقف أو أجملها...

ترجلا عن جواديهما فاختطف علاء الدين لجام الأكمل وربطه بنفسه ثم أمسك بيد صلاح الدولة مقتادًا إياه إلى حجرته الخاصة...

- جيرميتش... تعال...

كان صلاح الدولة مترددًا حيال دخوله إلى حجرة سيده... فهي المرة الأولى التي يدخلها فيها... كانت فاخرة تحوي أثمن التحف والأقمشة والطنافس... لم تكن تحوي سريرًا ولكن متكئًا وثيرًا وشيشة مذهبة بجانبها...

- صلاح الدولة... ابني... شايف لساك ما عرفت طبع المصريين...

لو كنت نزلت من فوق حصانك وراضيتهم بمال... كنت راح تكسب محبة الحاضرين وغفرانهم لفعلة حصانك... لكن بغباءك شعروا أنك متكبر عليهم... شعروا بقسوتك...

المصري سهل تزعله وسهل تراضيه... لو عرفت تراضيه يبقا تعمل ما بالك فيه وانت مطمن إنه هيعيش تحت مداسك... أنليور موسون؟

- فاهم دولة الأمير...

- وإيش راح تعمل؟

- شورتك يا دولة الأمير...

هز الأمير رأسه في فهم ثم أخرج من صندوقه الضخم كيس نقود عامر...

- اعطيهم ديته... بنفسك يا صلاح الدولة... علشان يقبلوا عوض لازم تروح بشخصك... وقتها سيرتك راح توصل للسما... اتعلم تستغل أخطاءك...

* * *

تعلم المملوك الشاب أن يطوع أخطائه لصالحه...

أن يستبدل باللعنات الدعوات...

أن يستبدل بالدماء الذهب...

أن يستبدل بالأرواح النوايا الحسنة...

تعلم أن دم المصري له سعر... وما له سعر فهو رخيص مهما غلا ثمنه...

تعلم أن يرى الخوف ممزوجًا بالاحترام في أعينهم... أعين لن تطالب بحق أو تثور لقتل...

أعطى المال لأم القتيل فانحنت تقبل يده... رائحة اللبن الرائب والدمع الملتهب لم تفارق كفه حتى المساء...

ثم زالت...!

وقف يصلي صلاة الميت على العبد الحر المتوفى في أول الصف... وقف يودعه قبره فاستبدل الواقفون بالدعاء للميت الدعاء لجناب المملوك الطاهر النقي...

القاتل...

يعود صلاح الدولة على فرسة عسلية اللون بعد حرمانه من التجوال في البلدة على صهوة الأكمل...

تراه العذارى مقبلًا... فارسًا على صهوة النقاء...

تنطلق التنهدات فتصل إلى عقله من خلف المشربيات والحُجُب...

الأمير الوسيم الآتي من خلف الجبال الباردة...

الأمير... العاشق... لدماء مصر...

* * *

كانوا اثنين لا ثالث لهم...

شركسيين... من نفس الجيل ومن ذات الطينة...

شهاب الدين وقسورة من مماليك الأمير علاء الدين لكنهم أصغر سنًّا وحجمًا من صلاح الدولة...

إلا إن ذات الشيطان يعمر قلوبهم...

لقد نجا صلاح الدولة من الحج في عام فعلة الأكمل... وفي العام الذي يليه أصابته وعكة «نفسجسدية» فارتفعت حرارته بلا سبب وانخفضت بلا سبب أيضًا فور تخطي المحمل حدود القاهرة...

كان حكم المماليك وقتها في حال من الضعف والتخبط والتردي...

لم يكن هناك شيء ليفعله سوى التدريب ثم اصطحاب صديقيه في ليال بعينها إلى ضيعته وتدخين النراجيل المذهبة المتوجة بقطع الأفيون...

لم يكن هناك شيء يُفعل سوى الصلاة بين المصريين في الجمع والأعياد...

لم يكن هناك سوى شراء الدم بالمال...

كانت «البهرجة» هي اسم اللعبة...

فحين أطل هلال رمضان بوجهه النحيف في ذلك العام... أوكل الأمير علاء الدين - على فراش مرضه - لصلاح الدولة أن يشرف لأول مرة على إتمام تجهيزات رمضان على أكمل وجه...

اضطر يومها أن يتنقل على ظهر بغلة نظرًا لازدحام الشوارع بالمحتفلين بالشهر الكريم وخشية من الأمير النجمي أن يتأذى أحد مرة أخرى على يد ذات المملوك...

كان يكره ركوب البغال فهي تجعله منخفضًا في مستوى السائرين تقريبًا، لا تعطه ذات الطابع العالي المتعالي المتبختر الذي تعطيه له الخيل...

ارتدى كل ما تيسر من ثياب فاخرة ولم ينس قميص الحرير من تحت ملابسه والذي يرتديه سرًّا... كان يشعر بشيء من العون إثر ملامسه ذلك النسيج لجسده... شيء من الماضي لا يدري ما هو...

((.. كورتشينا؟ .....))

راقت له مظاهر الأبهة والفخامة المبالغ فيها... كان يدور حول نفسه كطفل تحت ثريا جامع عمرو بن العاص المهيبة، هدية الحاكم بأمر الله التي تزن سبعة قناطير من الفضة الخالصة...

يقف الرجال على سلالم الخشب يرصعونها بما يقرب من ٧٠٠ قنديل...

ومن تحته يفرش الجامع بطبقات الحصير الملون...

يدور ويدور تحت سماء من قناديل وأرض أسطورية ملونة... تلفه رائحة البخور الهندي في سحابة سحرية خاصة...

سيان أن تلخص الدين في زخرف أرضي أو تلفه في مِسح من زهد خشن...

لا الدين هذا ولا ذاك... فقط كلا الصورتين ستار يخفي تدين هرِم متداعٍ...

هكذا تلخص الأمر للشاب المبهور... ابنِ ماخور ثم اتبعه ببناء جامع فيختفي الأول في جدران الثاني عن أنظار الناس... يكسبك بناء الجامع حصانة دنيوية باقية ما أظهرت تقواك صبحًا وأخفيت مجونك ليلًا...

يحب المصريون التدين بغض النظر عن ماهية المتدين نفسه... خاف سلفه من المماليك الأوائل أن يعتبرهم المصريون غير مسلمين «كما يجب»... فأصابهم مس البناء وتراصت المأذنة تزاحم أختها في مزاد علني للتدين...

وحين زاحمت المآذن بعضها البعض... بدأ سباق من نوع آخر...

زينة مبالغ فيها كزينة عروس تداري قبحًا ونقصًا... يتبارون أيهم أكثر تقوى بفخامة مساجدهم...

هذا النوع من التدين الزائف يروق للشاب... تفاخر وبذخ وشهرة واحترام... يسجلُ ردود أفعال المصريين تجاه تلك الممارسات العجيبة، كأن مقياسهم الوحيد هنا هو الدين دون التحقق من صحة ما يقال باسمه... يبالون كثيرًا باللحية والصلاة والتشدق بقال الله ورسوله بلا اكتراث للفحوى...

حين يلتقي بالبسطاء، كان يتعمد انتقاء الألفاظ العربية الصعبة كي يرى نظرة الانبهار في أعينهم... لولا قليل من عقل لخروا سجدًا من فصاحته!

ورغم كل شيء... يعود إلى داره سالكًا الشوارع المسقوفة... يرى تظاهر

البسطاء بالسعادة والتفافهم حول الشموع والفوانيس الرمضانية الملونة...

يرمق «العلاليق» المصنوعة من السكر وتوافد الأطفال عليها كبديل رخيص للحلوى التركية الغالية... يوزع الصدقات حوله على المارين فيقبلوا يده في امتنان...

غدًا يجتمعون للإفطار حول السماط الفاخر الذي يقيمه الأمير... يأكلون ويدعون لدولته...

وحين انتهى من جولته النهارية الطويلة واطمأن على حسن سير الأمور، حمل نصيبه من الياميش والمكسرات واللحوم على ظهر الفرس العسلي وتوجه إلى إقطاعيته...

رأى ضوء قناديل الزيت تتراقص في منزله... لابد وأن صاحبيه هناك...

ومع اقترابه سمع ما يفعله الوغدان...

يختلط صوت ضحكاتهم بحفيف الهواء المار على أشجار الرمان قرب مدخل المنزل... يشم رائحة الأفيون المحترق والنبيذ الإقريطيشي...

تزداد الروائح المختلطة مع أصواتهم الآتية من الغرفة الفسيحة على اليسار...

يشاهد في برود من خلال الستائر الشفافة المتطايرة مع النسيم...

يبتسم ساخرًا ويخلع عمامته ويتمدد على الأرض متكئًا على طنفسة... يشاهد السماء السوداء ويعبث في الخيط الأحمر حول مرفقه... مازال ضيقًا رغم أنه قد أعاد ربطه بشكل أوسع... إلا أنه مازال قابضًا على معصمه ملوثًا بالدماء القديمة...

كان صاحباه متزوجين من أختين جركسيتين من بنات ناظر البيمارستان

المنصوري، وكان من أكابر الأمراء... أمِل الرجل في تزويج ابنته الصغرى لصلاح الدولة لكنه لم يصارحه قط بتلك الرغبة...

ولقرب صلاح الدولة من ناظر البيمارستان، كان يتركه يجول بحرية في أنحاء المشفى الضخم ويسأل ما يشاء حتى يسد جوعه الدائم لسبر أغوار الجسد البشري وسر الحياة فيه...

يمسح المملوك الشاب وجهه بكفه ثم ينحني جاذبًا أحد كتب الطب التي اقترضها من طبيب في المشفى ثم أخذ يقرأ...

((.. مازال البغلان يتناكحان على فراشي... تبًا لاحتياج البشر إلى صحبة... تبًا لعصا تتوكأ عليك أكثر مما تتوكأ أنت عليها......))

تزوجا ثم تركا زوجتيهما لرغبات شاذة أكثر جموحًا... وكان بيت صلاح الدولة دومًا بعيدًا... مناسبًا... وكان الرجل لا يسأل ولا يعبأ...

يخرج شهاب الدين عاريًا مترنحًا من خلف الستار الشفاف للحجرة...

- صلاح... ديهشيتيه!

- لا تخف... كأني غير موجود...

كانا يتحدثان التركمانية إذا خلوا إلى أنفسهم... هي لغة شهاب الدين ورفيقه قسورة الأم فلا داعي للتظاهر بأنهم من أهل البلد، وكان صلاح الدولة لا يبالي أي لغة يستخدم فلطالما برع في أي لغة يسمعها...

عاد شهاب الدين إلى الحجرة وارتدى قباءه على اللحم... بدا أن الليلة انتهت عند ذلك الحد... تربع أمام صلاح الدولة وأمال الكتاب في يده ثم ثنى عنقه ليرى صفحاته بشكل أفضل...

- نيه أوكيوروزونوس؟ الطب مرة أخرى! لم لا تنضم إلينا... يتحدثون

كثيرًا عن امتناعك عن الزواج... ويشكون في ميولك...

- لازلت صغيرًا...

ضحك شهاب الدين ثم راح يتحدث بنصف وعي سلبت بقيته الخمر...

- من استطاع منكم الباءة فليتزوج... عندي ما يعينك إن لم تستطع! أو.. أو دعني أريك متعة لن تجدها في امرأة...

قام صلاح الدولة في ضيق وهو يرمق قسورة النائم عاريًا خلف الستار... خرج إلى كنف شجر الرمان المتشابك في الحديقة...

استنشق الهواء وزفره ليخرج رائحة عرق الرجلين من رئته... كان يشمئز من أن تمس امرأة أيًا كانت جسده... كان يعتبره مقدسًا لن يدنسه بنساء من البشر... فما بالك بلواط لعين ملك قلبي زميليه فصارا يختبآن في بيته بعيدًا عن أعين من يلوم عليهم فعلتهم...

كان يحتملهم كي لا يظل وحده بلا آذان تنقل ما يقال عنه في غيبته... بلا أصحاب ينفون عنه غرابته... بلا مساعدين في حروبه الصغيرة السرية بين منافسيه من المماليك الآخرين...

وكانوا يحتملون غرابته ليس فقط بسبب سرهم الصغير المشين، بل بسبب معرفته التامة بخبر تجسسهم على الأمير علاء الدين لصالح أعدائه واختلاسهم للأموال من دار صك العملة بالتعاون مع اليهودي يعقوب...

إلا أن صلاح الدولة لم تُثره امرأة رآها قط...

((.. باستثناء تلك التي تنطق حريرًا ....))

لم ير من هي أهل للمسه... من هي أهل لحمل ذريته... لم ير من تليق برب الألم...

((.. أكانت تبكي كلبها أم تبكيني.....))

أطفأ القنديل المعلق خارج البيت وألصق ظهره بالجدار... شعر ببرودته تطفي نار رغبة كالزئبق...

جلس على الأرض وفك رباط شعره الطويل... انزلقت خصلاته لتغطي عينه الزرقاء...

يخرج قطعة الأفيون من كيسها ويفتتها بين كفيه... يشم عبقها النباتي المكتوم...

يجذب الخيط الأحمر ويحز مرفقه فوق مئات الحزوز السابقة...

يلعق الألم من دماءه مع الأفيون...

تنقلب حدقتاه نشوة... نشوة غجرية تلتف في الستار الشفاف...

- بيني سيفيور...

تفك عنه ملابسه... متى عرفت التركمانية؟

- إندز ميروم...

تتحسس جسده الشمعي... متى دنست اللغة الأرمينية بصوتها الصوفي الخشن...

يقوم ويمسك بعنقها بيده... يضغط عليه بينما تنتفض هي في ألم... تنسحب الحياة منها...

ينسحب اللون من جسدها الأسمر... هو الموت المتمرغ في فُرُش الرغبة...

ترفع وجهها إلى أعلى فتنزاح خصلات شعرها...

تنظر إليه بعينين زيتونيتين خضراوين... تهمس بصوت الحرير...

((... كوريتشينا... لا.... فونش...))

يفك قبضته فتسقط دخانًا أبيض... سرابًا...

يتلمس الأشجار من حوله... يراها كاملة كأنما يراها بعينيه... واحدة من منح الأفيون الكريم...

- .. كونفو مانكيك كونييل.....

لن يحبه أحد... وربما كانت تبكي كلبها..

كلما كنت أجوف وجد البشر بداخلك مكانًا ليحتموا به... وهو ليس أجوف...

يحب المصريين قشرة الدين الجوفاء ليحتموا بها من فزاعة الكفر... إن لم تكن قشرة جوفاء لما وجدوا بداخلها متسع لهم...

تحبه الفتيات القسيسات لأنه الجمال الأجوف... الممتلئ أبدًا برهبتهم ورغبتهم...

يدور حول محوره وسط الأشجار... يتحرر من ملابسه فتمتد الأغصان الخشنة لتنهل من جسده العاري ثأر ليلتها...

يشعر بخواء ووحدة وانتشاء...

يهمس باسم الشيطانة فوق آرارات...

((.. سأسمعك وإن همست...))

ما لي سيظل لي حين أعود... من الأفضل له أن يكون كذلك...

يسقط في غياهب هلاوسه ممددًا في العراء...

* * *

يقوم منتفضًا من نومته في الحديقة وقد غطته أوراق جافة متساقطة...

يلف جسده بردائه ثم يقتحم الغرفة الداخلية حيث ينام صديقاه... يزحف على ركبتيه ويجذب لحيه شهاب الدين ويلطم قسورة...

- أوينامش!.. استيقظا..!

- نيه أولدو؟!!

- سنسافر... الآن...

يترك قسورة في تساؤلاته وهو يحك صدره بقلادته الذهبية ويخرج إلى النافورة الصغيرة في صحن الدار...

يخرج خلفه شهاب الدين عاريًا إلا من خنجر استله من أسفل السرير بشكل غريزي ثم نسيه في قبضته...

- نيه أولدو؟ لم لا ترد؟؟ ماذا حدث؟

- سنسافر اليوم... الآن...

- أفهم... لكن ماذا حدث وأين سنسافر؟

- هايستان...

- هاي... ماذا؟! لم؟

- لقد لفت نظري إلى شيء هام بالأمس... سنذهب لنحضر عروسي...

- عروسك؟ ألا تعجبك بنات المماليك والأمراء هنا؟

- لن أتزوج إلا من أريدها...

جلس شهاب الدين على حافة النافورة المكسوة بالفسيفساء الأزرق وتحسس جسده ثم ابتسم إذ اكتشف أنه عاريًا ولا جيوب له...

- إيين أفيون فار ماي؟ ملابسي بالداخل..

فتش صلاح الدولة ملابسه في شرود وأخرج قطعة أفيون صغيرة ألقاها لصاحبه ما لبث أن اقتسمها معه المملوك الثالث ذو القلادة اللامعة في نور الشمس...

- ممم... رائع... قل لي مرة ثانية... تريد أن تتزوج من؟

زفر صلاح الدولة في ضيق وشرع يشرح لهما في اختصار... لم يبتلعا نصف ما قاله عن فتاة صغيرة أحبها في طفولته لكنهما ابتلعاه قسرًا مع فصي أفيون وفنجانين من القهوة...

بعد صلاة الظهر عرج صلاح الدولة على الأمير علاء الدين يخبره بسفره فوجده جالسًا حوله بعض من خشداشيته وطبيب القصر...

كان متورم الساقين متخشبهما...

أزاح صلاح الدولة في فضول مشوب بلهفة الطبيب من أمام أميره ونظر إلى الحالة المتردية أمامه... جثا على ركبتيه وضغط بإصبعه على لحم الساق فظل مكان إصبعه غائرًا...

هز صلاح الدولة رأسه وقد علم أن النهاية قريبه... داء شديد في الكلى لم تنفع معه وصفات الطبيب طيلة الأعوام القليلة الفائته...

نظر الأمير علاء الدين إلى عيني صلاح الدولة وقرأ فيهما اقتراب النهاية...

صرف الجمع من حوله مبقيًا على مملوكه الأثير... اعتدل بصعوبه في جلسته وهو يحاول أن يغالب امتلاء جسده بالماء كقربة سقاء...

همس بلسان جاف بلغته الأصلية الحبيبة...

- صلاح الدولة...

- سيدي..

- لست سيدك يا بني... اعتبرني والدك... أعلم أن النهاية اقتربت... وأعلم أني قد رُويت من ماء مصر حتى انقلب علي محتبسًا في أحشائي... والله لأتمنى أن يزول ملكي مقابل أن تخرج شربة الماء التي أشربها مني...

حاول الأمير المُحتضَر أن يقوم لكن مملوكه أمسكه من كتفه مبقيًا إياه مكانه...

- قل لي ماذا تريد فأجلبه لك...

- أريد... أريد أن أسير في الشوارع... أريد أن أقبل جباه الشجر وطمي النيل...

أريد أن أرى مصر فأغمض عيني على مرآها...

- أحقًا أحببتها؟! هي ليست أرضك؟ دعني أحملك على فرسي إلى بلدك فتزفر آخر أنفاسك في شهيقها؟

ضحك الرجل في وهن حقيقي ثم ربت على كتف صلاح الدولة وأدناه منه، فشمَّ الأخير رائحة معدنية تفوح من فم أميره من الظمأ...

- هذه... هذه أرضي... لا أعلم لي غيرها مهدًا وقبرًا... هنا أكلت وشربت... حاربت وعشقت... نهلت هي من سني عمري ونهلت أنا من خيرها...

هذه أرض تحملت ظلمي وجبروتي وعنصريتي... إلا إنني لم أكن أعمد إلى جرحها إلا كما يعمد العاشق إلى جرح معشوقته...

لقد أغوتني يا بني... أرى... أرى غوايتها في عينيك... أرى شبقك وولعك بشبابها وعنفوانها...

تعطي بلا مقابل... تعطي... وتعطي... وتعطي...

ظل يكرر كلمته الأخيرة وعيناه شاردتان في الثريا العظيمة المتلألئة في نور الشمس حتى ظن صلاح الدولة أنه لن يتوقف حتى تتوقف تلك الأرض عن العطاء...

ثم فاجأه الأمير بصوته الحاد المنفعل وعينيه المتسعتين...

- .. حتى تطمئن إليها... فتغترف من خيرها وتغترف... تملأ جيوبك وجواريك وتحت فراشك... ينتابك سعار مَلَكي فلا ترتوي من عطائها... تمد يديك إليها وتنهش... تأكل لحمها نيئًا وتتلطخ يداك بدم لا يراه إلا أنت... لا يزول... فتداريه بالمزيد والمزيد...

رجع صلاح الدولة على ركبتيه وتحسس لا شعوريًّا سيفه... فقد كان عقل الأمير يفلت من زمامه... يغلي مرضًا وجنونًا وسرعان ما سينفجر مغرقًا ما حوله بصديد الندم المتأخر...

فتح أحد الحراس باب المخدع بحذر ليرى سبب تعالي صوت الرجل فأشار له صلاح الدولة من طرف خفي أن يتركهما وحدهما، فأغلق الحارس الباب وهو يحمد الله أنه غير مضطر لمواجهة نوبة أخرى من نوبات جنون الأمير المتكررة مؤخرًا...

- فجأة... فجأة... هه... انتبه... تكشر عن أنيابها وتطالبك بالذي أخذتَه! ما أمسكتك كل تلك الأعوام يا ابنة العاهرة هه؟! يتضح أنها... أنها نداهة غاوية... تظهر على حقيقتها فتقلب عليك مائدتها وتغرس في جسدك السكاكين...

اقترب صلاح الدولة في حذر من سيده محاولًا تهدئته، مستعدًّا لمد آخر من انفلات العقل... لكن لدهشته، ارتمى الأمير في وهن بين ذراعيه يبكي وينهنه كالأطفال...

- آه... آه يا ولدي... لم تكن عاهرة يا صلاح... لا... لم تكن كذلك... فقط كانت كريمة... تمنح وتنتظر المقابل في صبر... تصطاد الإخلاص في نهر الخيانة...

لكننا رجال يا بني... حين نعتاد على الأخذ، يغدو العطاء رفاهية... غرور أعمى يركبنا فنرى العطاء واجبًا وحقًّا مكتسبًا بلا مقابل...

مازال دمها على كفي... انظر... انظر...

يفرد يده المتنفخة المرتعشة في وجه صلاح الدولة... يلمع في خنصرها خاتمه الفضي ذي الماسة الضخمة...

- لقد عشقتها يا بني... وظلمتها... لكن كيدها عظيم... ساحرة هي... نعم... رجيمة كشيطان متلون... سقتني ماءها ليحرق أحشائي في شيخوختي... يقولون أن للماء سحر... يذيب الانتقام سمًّا بطيئًا...

ابتلعت في جوفها أبنائي الثلاث وتأبى الشبع دون جثتي... الفاجرة...

آه... الساحرة ابنة الزانية...

وانخرط في موجة عاتية من الشتائم لم يفهمها صلاح الدولة... شتائم جركسية سوقية لم تصل إلى مصر بعد...

اقتحم الخشداشية المخدع فتركهم صلاح الدولة يتعاملون معه وخرج... يرى زوجته متصلبة ذاهلة في آخر الرواق، لا تحملها ساقاها لترى ما أصابه على يد معشوقته...

سار حتى وصل إليها... وقفا دقائق يحاول أن يقيم كلاهما وضعه... ثم انحنى وسار خارجًا...

- صلاح الدولة...

توقف دون أن يلتفت... لم يكن يريد العودة... لم يكن يملك ردًّا على أي سؤال...

- .. هل سيموت؟

نعم... رأى الموت يعبث بأقفال الأبواب... رآه يتبختر متلكئًا مستعذبًا عذاب الأمير...

رآه قاسيًا...

لم يجب... فقط استمر في خروجه من دائرة صوت الأمير وسبابه...

استمر في الخروج من دائرة القصر والشارع المبخر بالعود...

استمر في الخروج عصرًا على الأكمل برفقة صاحبيه من دائرة الأرض المغوية وشيطانة الملوك...

* * *

حين أفاق الأمير علاء الدين من نومه فجرًا، كانت زوجته نائمة جوارة فاتحة فمها في إنهاك... كان الظمأ يحرق حلقه وتأبى الكلمات إلا أن تخرج أمواسًا من فمه...

أشفق على السيدة جواره فلم يوقظها... تحامل على نفسه مستندًا إلى الحوائط... أوقد مصباحًا وأخذه إلى ركن بعيد في الغرفة الواسعة...

كانت نسائم الفجر تتسلل من تعشيقات الأرابيسك تحمل رائحة الفل من الحديقة...

أخرج رقًّا من صندوقه وريشة ودواة الحبر... جلس أرضًا يكتب بخط مرتعش...

«ابني صلاح الدولة النجمي...

أكتب إليك كتابًا أعلم في قلبي أن ليس لي بعده غمسةٌ في دواة... فقد قرب لقاء ربي وإني لرحمته بعبده الضعيف لطامع...

أما وقد استحال اللقاء، فقد تركت لك هدية مع كتابي، حافظ عليها وورثها لأبنائك من بعدك... فهي تحمل جزءًا من روحي وحياتي وذكرياتي على تلك الأرض...

وتركت لك جزءًا من وصية الحجاج بن يوسف الثقفي، يقول فيها:

«لو ولاك أمير المؤمنين أمر مصر فعليك بالعدل، فهم قتلة الظلمة، وهادمي الأمم...

وما أتى عليهم قادم بخير إلا التقموه كما تلتقم الأم رضيعها. وما أتى عليهم قادم بشر إلا أكلوه كما تأكل النار الحطب...

وهم أهل قوة وصبر وجلدة وحمل... ولا يغرنك صبرهم، ولا تستضعف قوتهم، فهم إن قاموا لنصرة رجل ما تركوه إلا والتاج على رأسه، وإن قاموا على رجل، ما تركوه إلا وقد قطعوا رأسه...

فاتق غضبهم، ولا تشعل نارًا لا يطفئها إلا خالقهم... فانتصر بهم فهم خير أجناد الأرض...

واتق فيهم ثلاثًا: نساءهم، فلا تقربهم بسوء وإلا أكلوك كما تأكل الأسود فرائسها...

وأرضهم، وإلا حاربتك صخور جبالهم...

ودينهم، وإلا أحرقوا عليك دنياك...»

تأمل ضوء المصباح المهتز بعينين غائمتين... لم تكن فيه قدرة على استدعاء أحد الحرس لجلب صلاح الدولة إليه... كما لم يكن واثقًا من رؤيته لصباح اليوم التالي...

تلك أشياء يشعر بها المرء ولا يستطيع الحديث عنها...

أمسك ريشته مرة أخرى وخط على الرق...

«.. كانت تلك مقولة أذكرها وتدور في عقلي طيلة فترة وجودي على أرض مصر... كنت أراها تتحقق أمامي في كل يوم...

فاقرأها واحتفظ بها... والأهم أن تعمل بها حرفيًا إن حقت رؤيتي فيك وحكمت ذلك البلد في يوم ما...

ما أسميتك صلاح الدولة إلا حين رأيت ذلك البريق في عينيك... لكني أحذرك من النداهة... تذكرها ولا تطمئن لكثرة عطاياها...

.........»

شهق علاء الدين النجمي وانتابه ألم شديد... نبتت حبات العرق على جبينه وسرعان ما ابتل بها شعره الفضي الممتد إلى كتفيه...

مسح وجهه وشاربه وذقنه ثم طوق خاتمه الماسي بأصابعه فانتزعه بصعوبة من أثر انتفاخ خنصره...

طبق الرق ودس فيه الخاتم ثم ختمه بالشمع بخاتمه... وضعه أمام رأس زوجته على الوسادة ثم ترنح محنيًا من الألم إلى خارج مخدعه...

((... محتاج شي يا جناب الأمير.....))

ينظر إلى الحارس بعينين لا تريان... لا يجيب عن تساؤله الغير مسموع بالنسبة لأذنيه المحتضرتين...

يسير متكئًا على الحوائط والعرق البارد يتصبب منه... يزوم في ألم يحجبه الكبرياء...

يسير الحراس خلفه لا يجرؤون على التهادي ولمسه أو حمله إلى غرفته...

تتناثر حوله تساؤلاتهم الوجلة وهو لها غير عابئ...

يخرج إلى الحديقة ويدور حول نفسه...

يأتي أحد خشداشيته مهرولًا فيسند ضهره بصدره... يدفعه الأمير في وهن وعصبية...

- كوشيت!... كوشيت شيفيتلي!

ابتعد المملوك الشاب كالمصعوق من السبة التي أطلقها عليه سيده... لقد رأى نوبات الغضب تلك كثيرًا منذ أن ساءت حالته... لكنه لم يوجه لأحدهم السباب بصفة شخصية من قبل...

تحلق الجمع من حوله، ومن الحرملك، تراصت عيون النسوة من خلف المشربيات في جزع ترقبن ما يحدث...

يدور الأمير ويدور... ثم يقف قبالة النخلة الوحيدة ويرفع ثيابه في محاولة مهينه للتبول...

أشاح الجمع بنظره بينما تقدم ذات المملوك مرة أخرى وعيناه تكتسيان بغيمة الدمع... أحاط الرجل بذراعيه وأنزل ثيابه عنوة ثم حمله كيفما أتفق... فما كان من الأمير إلا أن استل خنجره المندس دومًا في ملابس نومه وطعن به ذراع المملوك الذي احتمل الألم ولم يفلته إلا حين توالت الطعنات على ذات الجرح...

- كوبيك!!... كادنسي..!! ين بينيز كيزيريم!

احمر وجه المملوك من نعت أميره له بالمخنث ونسب أقظع الأفعال إليه فتركه ممزقًا بين ألمه النفسي والجسدي...

شرع الأمير يتحسس الجدران... يحمل الطين بين كفيه ويدس أنفه فيه... يستنشقه...

يقطع أوراق النباتات وينثرها...

تتناثر كلماته المشينة تحملها نسمات هواء الفجر...

تدمع الأعين من هيبة مهدرة على ذيل ثوب الليل المنصرم...

- لم لا أجد رائحتك في طينك... في زرعك... نسيتي خادمك..؟! تضنين عليه بشذاك في أنفاسه الأخيرة...؟

يرى دماء المملوك على كفيه فيجزع... يدور على القوم حوله يمسح الدماء في ملابسهم...

- كيف أقابله الآن؟! كيف أقابله ودماؤها لا تزول عن كفي؟!

يشعرون بحرارة جسده تلهب أجسادهم من فوق ملابسهم... يجلس وسطهم على الأرض متربعًا... يهتز من الحمى... تتلاحق أنفاسه وتزيغ نظراته... يرتمي على ظهره ككيس ماء عملاق... يقترب صوت قرآن الفجر من المسجد الملاصق للقصر... لا يسمعه أحد إلا هو... همهمات عابد لا يرجو سوى رضا العلي في سماه...

- سامحني... أكلت لحمها... وتوضأت بدمها لأصلي بأبناءها إمامًا... سرقت أقواتهم لأبني مساجد يستغيثون بك فيها لتطعمهم... زينت شوارعهم ليسيروا فيها حفاة... أنا العبد... أنا العبد......

((.. ولله ما في السماوات وما في الارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم...))

ينحني عليه مملوكه فلا يجده إلا جسدًا مرتعدًا... يمسح عينيه بكمه فيتلطخ وجهه بالدماء...

الخدم يبكون ويرفع بعضهم إصبعه إلى السماء مع تلاوة الشهادة...

يتلو المملوك الشهادتين بالقرب من أذن سيده...

يكررها الأخير متفرقة... نادمة...

فتسكن الرعشات إلى الأبد...

* * *

يسير متقدمًا موكبه الصغير المتهلهل...

يبتعد ابتعاده عن الطاعون... يهرب من مواجهة غير مخطط لها مع عدوه اللدود ومُتحديه الأزلي... الموت...

لا يطيق بقاءً في مكان يستعرض فيه الموت قوته أمامه بلا رداع...

((........لم لا أجد رائحتك في طينك... في زرعك... نسيتي خادمك..؟! تضنين عليه بشذاك في أنفاسه الأخيرة...؟..

... هاه.... هااااه... مال النفس بلا مذاق .. بلا شعور.. أأتنفس حقًّا؟!....))

تبتعد المسافات بركبه الصغير، ومازالت رسائل الموت إلى نفس الأمير تصله كاملة غير منقوصة...

((... ((.. ولله ما في السماوات وما في الارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم...)).... أراهم.. أراهم... لا!!.. لا تأخذوني إليه على هيئتي هذه.. أنا خائف..!..))

تحتضر روح الأمير في نفس مملوكه... يركل المملوك المجنون بطن الأكمل في غل... يريد أن يختفي في الأمكنة والأزمنة فلا تطوله سخريات الموت من أسياد الدنيا...

لم يستشعر اليوم لذة احتضار إنسان كما يستشعرها في كل مرة يتسبب فيها في موت أحد...

اليوم لم يستدع الموت ليلملم بقايا أفعاله... اليوم جاء الموت دون إذنه وأخذ ما أراد...

اليوم رأى الموت يفلت من قبضته...

حتى مجالس الخمر والأفيون في استراحات الأمراء على امتداد طريقهم لم تفلح إلا في تجسيد الموت أمامه كرفيق ساخر يستحيل الخلاص منه...

يتجسد في دخان الأفيون وفي فتاته... في قطرات دمه حول الخيط الأحمر...

في انعكاس ضوء القناديل ليلًا على قلادة قسورة...

في غنج الغانيات مع رفقائه وخلواته بجسد الألم المدنس...

كان يرى الموت في كل شيء...

((.. إلا في صوت كوريتشينا..))

مزيج الخوف والكره يغلي في مرجل نرجسيته... يخاف الموت ويخاف ذله... يكره أن يكن لأحد سلطة عليه دون أدنى مقاومة منه...

تنطوي الأرض والشهور تحت حوافر جياد الرجال الثلاثة...

تنطوي ذكرى لحظات الموت الأخيرة في قلب المملوك حتى حين... أما الآن... فالوقت وقت الجبل الأبيض المتبدي في الأفق...

وقت إجابات طال انتظارها... وقت لقاء حتمي طال تحاشيه...

أظل قسورة عينيه بكفه عاقدًا حاجبيه وهو ينظر إلى وهج الثلوج فوق آرارات...

- أتدور من حوله أم لك طريق عبره؟
- سنمر في ممر التجار من خلاله... ثم أتركم تخيمون في السهل عند أركاس ريثما أزور أحدهم سريعًا...

* * *

شتاء ١٥١٠

جنوب شرق هايستان...

يتسلق الجبل البارد والبخار يتصاعد من أنفه الدقيق...

يخلع عمامته التي تصر على الانزلاق أثناء صعوده... يغطي شعره عينيه بفعل الريح من حين لآخر...

((... جلوووش.... جلوش...))

الماء بصوته الرتيب يدق جدران قربة ماءه الصغيرة المعلقة حول خصره...

اثنتا عشرة عامًا تفصله عن ذات لحظة صعوده خادمًا إلى سيدته... اثنتا عشرة عامًا مرت كلمح البصر... لكن العائد اليوم لم يعد تجغا...

لم يعد يوئيل...

لقد عاد صلاح الدولة النجمي... سيدًا ومحاربًا...

((... ستعود لي وإن تأخرت... سأسمعك وإن همست... ما لك سيظل لك حين تعود....))

توقف هنيهة محاولًا تحديد مصدر تلك الفكرة التي ظهرت في عقله... أهي ذكرى أم رسالة تلقاها...

وقف أخيرًا أمام البيت الحجري... ضوء الغروب الأحمر يصبغه بالنيران...

استل سيفه كأنها يستمد منه عونًا ليس له مكان...

أزاح شعره عن عينه الزرقاء وخبط بقدميه على الأرض... انتظر برهة ثم دخل منحنيًا مثبتًا ناظريه إلى قدميه في الحذاء الفاخر المترب...

السحب المتكاثرة في السماء تحجب الشمس الحمراء للحظات فتغدو الرؤية شبه مستحيلة في داخل البيت...

((.. أتيت؟!.....))

((... نعم أتيت.....))

((.. ادخل.....))

تلتفت السيدة إليه ولا يبدو عليها أية مفاجأة... كانت تقرأ كعادتها... تقرأ صفحة الماء في الحوض الحجري...

يمس بسيفه الرماد المتراكم على المناضد فيتساقط كاشفًا ألوانًا حقيقية تحت الرمادي الكئيب...

((.. من أنت؟...))

((.. ليس هذا هو السؤال يا صبي... اسأل عنها...))

((... أسأل عنك أنتِ.. ما تكونين؟..))

((.. ليس هذا هو الوقت يا صبي.. اسأل عنها..))

((.. أجيبي.....))

وقف مشيرًا إلى عنقها بسيفه المفرود أمامه... رفعت يدها وتلمست نصل السيف... غاص الأخير في لحم إصبعها كأنها يخترق شمعًا..

ضربته مفاجأة غادرة رغم كونه متأكدٌ في الأصل من كون سيدته السابقة

ليست بشرًا... أخفى ما اعتمل في صدره... يشعر بلوامسها تتحسس عقله بحثًا عن ردة فعل ما... لكن عقله مازال خاويًا كما كان منذ اثنتي عشرة عاما...

((.. اسأل عنها...))

يبدو أن السيدة لا تملك إلا إجابة واحدة لسؤال واحد اليوم...

أخفض سيفه واعتصر مقبضه بقبضته...

((.. أين أجدها؟ ....))

((... تعال....))

تبعها إلى حوض الماء الحجري... أمسكت يده وغمستها فيه... تراءى له ومضات من حياة دافئة لم يرها على نهر أركاس... رأى طريقًا إليها... سمع همساتها الحريرية بصوتها الناضج المغري...

((.. اسأل عنها مياه أركاس وستجيبك... ستحتاج إلى معونة رفقائك... ما لك سيظل لك حتى تعود... وقد عدت..))

وعاء دموي على جبهته ينفر وتحتقن أوردة رقبته... رجولة ثائرة تمزق اتزانه المريض...

يرى كوريتشينا تكبر... يرى راعيًا قذرًا ينهل من جسدها الملتهب أنوثة...

يرى دلاء النشوة المترعة تطفئ اشتهاءها... تضيء عينيها سعادة وتفيض حبًا...

لقد أحبت كوريتشينا...

لقد تزوجت كوريتشينا...

لقد دُنِّسَت كوريتشينا...

أخرج يده من الماء البارد ومسح بها وجهه المشتعل غيرة... تمنى لو ينغمس كله في ثلوج أرارات الشاحبة، فقد أنشب همس الماء النيران في رجولته...

((.. كيف رأيت ما رأيته في الماء؟...))

((... تحمل الماء القصص والحكايا وتُخبر بها لمن يقدر على سماعها..))

((.. أنت ساحرة؟ هذا سحر...))

((... في عصور ينعت العلم سحرًا... وفي عصور سينعت السحر علمًا..))

أغمض عينيه وقبض على نصل السيف في غل... ثم أدار للمرأة ظهره مخرجًا قطعة أفيون احتضنتها كفه الدامية لثوان... ثم لعق المزيج في سرعة وشغف...

استدار مواجهًا لها وقد أيقظ الشيطان الغافي...

رأت رقصة الجنون في محجري عينيه فابتسمت وأخلت له الطريق إلى الوعاء الحجري...

أغمد سيفه وأمسك بحافة الوعاء بكلتا كفيه... ثم غمس وجهه في الماء...

صرخ فتصاعدت فقاقيع الهواء تداعب شعره المنتشر على الماء في جنون...

كانت صرخة طويلة أفرغت رئتيه من الهواء تمامًا...

وحين رفع وجهه المبتل معرفةً... كان يضحك من خلف ستار شعره الحالك... تتبدى وتختفي عيناه مختلفة الألوان وراء تساقط الماء، كأن شخصين يتبادلان الظهور في وجهه المختل...

لم يعد تجغا...

لم يعد يوثيل...

لقد عاد... عاد فقط...

* * *

كانت خطة بسيطة تعتمد على المفاجأة... تعتمد على براءة من يهاجمونهم

لكنه كان يأمل في حل يروي قلبه الجاف بحب، ليس بدم...

كان يخشى مصارحة نفسه بذلك الضعف... كان يخشى توق قلبه لشيء إلا المزيد من الدماء...

دخل القرية الصغيرة متقدمًا صاحبيه... كان وجود المماليك مألوفًا في كل تلك الرقعة الممتدة من حيث يقف الآن إلى غرب المغرب العربي. لم يواجه أسئلة غير التي كانت تثب من أعين البسطاء من حوله. لم قد يأتي ثلاثة مماليك إلى قريتنا الفقيرة؟!

كما اتفق مع شهاب الدين وقسورة، لف الرجلان من خلف القرية وتموضعا حسب الخطة في انتظار أن تسوء الأمور...

بينما تقدم صلاح الدولة متبخترا فوق جوادة الابيض، متتبعًا رؤياه في الماء، مهتديًا بتعالي دقات قلبه...

في النهار يذهب الرجال للرعي والزراعة فلا تبقى في الدور إلا النساء والأطفال والشيوخ...

يقف الجواد كأنما رآها قبل أن يراها المملوك الشاب... كانت هنا والآن تحت الشمس الخجلة المتسترة بالسحب...

شعرها الطويل البني مربوط من الأمام بقطعة قماش خضراء تماثل لون فستانها المبتل من أثر الغسيل...

تمسك كسرة خبز وتجلس مستندة إلى السور الخشبي في فناء البيت البسيط

الخلفي... تقضم بأسنانها البيضاء الصغيرة فتنثر الفتات على شفتين متفختين كالبرقوق...

((.. كشت....))

صوت الخبز الجاف تسلل إلى أذنيه ويرسل صدى للصوت في أرجاء عقله...

لا يرى إلا هي... لا يسمع سوى ما يصدر منها...

يتعالى صوت أنفاسه الملتهبة...

((.. كشت....))

يتناثر الفتات على صدرها متسللًا إلى حيث يحلم الرجال...

ينزل عن جواده... لا يربط الجواد استعدادًا للأسوأ...

يتقدم ببطء إلى الجالسه تحتسي اللبن الرائب... شارب أبيض صغير قد علا شفة البرقوق...

تمد يدها لتمسحه لكن يدها تتعلق في الهواء... لقد شعرت بقدوم أحدهم من خلفها...

التفتت مبتسمة كأنها كانت في انتظار شخص آخر... تخفت الابتسامة مع اتساع عينيها الخضراوين تحت كثافة لا تصدق من الرموش...

تسقط كسرة الخبز من يدها...

((.. أكانت تبكيه أم تبكي كلبها؟!....))

- باريف دزيز... كوريتشينا...
- .... باريف دزيز...

ردت السلام بلا تفكير ومسحت شفتيها بظهر يدها ثم وقفت يتصاعد البخار من فمها المفتوح... تضيق عيناها كمن يتحقق مما يراه... تقدمت خطوة واحدة إلى الأمام... ثم تراجعتها ثلاثة حتى كادت تتعثر في السور المنخفض خلفها...

مد صلاح الدولة يده من مكانه كأنه يسندها... ثم ابتسم... شعر بغرابة الابتسام لموقف كهذا... شعر بغرابة الابتسام الأصلي... الابتسام البريء...

- أرى أنك قد تذكرتني...

- نعم... عيناك...

أشارت بيدها إلى عينيها في ارتباك... كانت تبتلع ريقها مع حركة زم شفتين مميزة... يبدو أنها تفعل ذلك عندما تتوتر... سره أن يكتشف فيها عادة... سره أن يستكشفها ببطء ونهم...

تقدم بضع خطوات مدروسة منها، خلع عمامته تقربًا منها...

- أود أن أتبادل بضع كلمات معك...

- لا يوجد أحد بالمنزل الآن... لا أستطيع إدخالك..

- زوجك لن يعود في وقت قريب... لا أحد يرانا...

تلفت حوله في سرعة ثم قفز فوق السور المنخفض ولف ذراعه حولها في خفه دافعًا إياها إلى داخل باب البيت الموارب...

صاحت دجاجات وطنها في اقتحامه فتناثرت في أرجاء الفناء تندب صفاء يومها...

ترك كوريتشينا فلاذت في ركن الدار ترتجف وتحمي وجهها بذراعها... اعتصر هذا قلبه بشكل كبير.. أتخافه؟ تخافه لتصرفه اليوم... أم تخافه لتصرفه

منذ ما يقارب الاثنتي عشرة عامًا؟

((... أتبكيه أم تبكي.............؟))

- لا تخافي....

((... مي فاخيت زبير.................))

- ماذا تريد؟ اخرج من هنا...

- أريد كوريتشينا... أريدك أنت....

تقدم منها ببطء رافعًا يديه في الهواء... أغمضت عينيها وأشاحت بوجهها... يقترب عطره منها وتسمع خطواته الدانية على البساط الصوفي...

- أذكرك كما تذكرينني وأكثر... لهذا جئت من أجلك...

- من أجلي؟ لم؟ وكيف عرفت طريقي؟

نظرت إليه من تحت ظلة أهداب سود متراصة في براءة... لا زالت هي كوريتشينا طفلة الراعي...

- جئت آخذك إلى حيث ملكي الجديد عند نهر النيل... الشرق الدافئ يا صغيرتي...

أغمضت عينيها فزعًا حين مست أنامله ذقنها المدبب... تنهد وابتعد... أخذ يجول بناظريه في البيت البسيط...

- كوريتشينا... تعالي معي حيث قصري وخدامي ومُلكي... مالك أنت ومال حياة الرعاة القاسية؟ انظري إلى ردائك؟ أيخطي الرخام سوى حرير؟

- أنا متزوجة... كيف آتي معك؟

- اتركيه... هو لا يستحق؟ ماذا قدم لك سوى الحياة الخشنة والمعاناة؟

- أنا... أنا أحبه... وقد قدم لي كل ما يملك... قلبه...

- قلبه؟!

استل سيفه في حركة لم يفكر فيها ثم أغمده مرة أخرى... أرجع شعره العنيد إلى الوراء ونظر إلى السقف... مازال المرجل يغلي بداخله ولن يسمح له بالانفجار الآن... في وجه ملاكه الصغير...

- أقدم لك قلبي... ومالي... ومُلكي... أقدم لك الأرض بما عليها تحمل قدميك الدقيقتين...

ركع أمامها، مس قدمها الحافية المتسخة... للحظات دارت الدنيا به... للحظات وقف على هوة نشوة سحيقة... لكنه لم يقفز...

سحبت قدمها وغاصت أكثر في الجدار...

- أنا حتى لا أعرف اسمك...

- لكنك أحببتني يومًا دون أن تعلميه...

- كنت طفلة...

- وأنا الآن طفلك... سميني ما تشائين... اجعليني ما تشائين...

- أنت... أنت من الأمراء في الشرق... المسلمين... لست مثلي...

تمنى أن تكون كلماتها نوعًا من اللين أو الامتثال لرجاءه... تمنى ألا يضطر لاستخدام خطته البديلة...

- كوريتشينا... سأكون كما تريدين...

- أنا... لا أريد شيئًا... أريدك أن ترحل وتنسى... لقد كنا أطفالًا بحق السماء..!

تركت ركنها وفرت إلى ركن بعيد عنه... أعمتها المفاجأة وحاصرتها... تتلاحق الأفكار في عقلها بلا نهاية... أمازال يذكرها حتى الآن؟! لقد عاد من أجلها فقط... بحث عنها ووجدها... إن لم يكن هذا حبًا فماذا يكون؟

داعب هذا غرورها الأنثوي ذي السبعة عشر عامًا... مازالت المراهقة متمكنة من عرش قلبها بلا منازع... يقف أمامها أمير غامض عرك الدنيا ورأى ما لم يره أحد... أمير ترك كل هذا وقرر العودة من أجلها...

((.. ما ذنب زوجي المحب المخلص.. تشهد الأشجار على حب حفرنا عهده تحت ظلالها.....))

أيا ليته يتركها قليلًا وحدها... أيا ليته يغرب عن وجهها بعطره ووسامته وملكه الفاحش... أيا ليته يبتعد بحبه الذي يعلو فوق خيال القصص القديمة؟

- كوريتشينا... لن تندمي... ماذا ستخسرين إن جئتِ معي؟!

- سأخسر... سأخسر كل ما أعرفه هنا.. أأترك بلدي وأهلي وأهرب معك إلى المجهول؟

- وهل تظنين إنني قد جئت إليك كل تلك المسافة وبعد كل تلك السنين كي أتركك أيا ما كان يجرحك أو يسيء إليك؟

- أرجوك... اذهب...

منطقه يتلاعب بمراهقتها المندفعة الشابة... لأول مرة يوضع حبها على المحك في وجه اختبار عاصف كهذا... كان يعري روحها بكلماته... لم تكن تعرف كل هذا عن حقيقة حبها للرجل الذي منحته عهدًا لا ينكسر...

من خارج البيت تعالى صوت الأكمل... صهيل ممتزج بخوار... هناك شيء ما يحدث...

أزاح صلاح الدولة قطعة القماش المثبتة فوق فتحة النافذة ونظر... كان طفلًا يهرول أمام شاب خشن الملامح يحمل في يده عصا رعي ويلف حزامه حول غدارة لا تتناسب مع تواضع معيشته...

هو زوجها كما رآه في رؤيا الماء... يبدو أن طفلًا رآه يدخل إلى منزل الراعي فذهب يخبره... تبا...

- اعذريني يا طفلتي...

أخرج منديلًا ولفه حول فم كوريتشينا كاتمًا صراخها، ثم حملها حملًا على كتفه... انتثر شعره مغطيًا وجهه المجنون...

((... كأن شخصين يتبادلان الظهور في وجهه المختل...))

وقف أمام الباب وتبادل نظرة حادة مع الأكمل الذي اندفع مخترقًا السور الخشبي واقفًا أمام سيده... وضع صلاح الدولة كوريتشينا فوق الجواد...

((...... احتم بها خلف المنزل ولا تدع أحد يقترب منها......))

.... أخذ درعه المربوطة على السرج ثم ضرب كفل الجواد فانطلق خلف البيت لكنه احتفظ بتواصله البصري مع سيده...

خرج صلاح الدولة إلى الراعي الشاب ممسكًا درعه بيساره وغدارته بيمينه... كان يعلم أن الراعي سيضرب بلا تفكير وسيخسر رصاصته الوحيدة... لن يجد وقتًا لإعادة تعبئة الغدارة... سيرتبك ويحاول الاشتباك الجسدي... عندها...

بالفعل ضرب الراعي رصاصته من مسافة غير بعيدة ولم ينتظر... ألقى الغدارة وجرى نحو المملوك...

اخترقت الرصاصة الدرع ثم غاصت في لحم كتفه... ارتد إلى الخلف خطوتين...

((... الألم العزيز... مرحبًا.......!))

... ثم ألقى درعه أرضًا وصوب سلاحه نحو الراعي... وقف الشاب للحظات فاتحًا عينيه... ثم أغرق الثقب القبيح في جبهته ووجهه بالكامل وانكفأ أرضًا...

ثقب لم تحدثه الرصاصة... ثقب أحدثه سهم...

((.. اللعنة عليك يا شهاب الدين..!!))

كان صوت الرصاصات كافيًا كي يخرج من كان أهلًا للخروج من أهل القرية من مكمنه... توافد رجال يحملون بلطات وفؤوس وسيوف من الجهات الثلاث...

كان الألم يعصف بوجدانه المريض... يقف والشعر يغطي وجهه... يكشف عن أسنانه كحيوان لم يخلق بعد... ينز الدم من كتفه فلا يبدو عليه أنه يعبأ... يزمجر في صيحة حيوانية أبطأت من تقدم الرجال لوهلة... ما هذا الذي يواجهونه؟!

استل سيفيه ووقف يسد الطريق أمام جواده... صاح أحدهم في الجمع ألا يستخدم أحد سلاحًا ناريًا كي لا يصيبوا المرأة خلفه...

ومن فوق المنازل المجاورة... كان شهاب الدين وقسورة يتخذان مواضعهما المدروسة... يمطران الجمع بالسهام فلم يدرك أحد ماذا يحدث ومن أين تأتي السهام إلا بعد أن فقدوا ثلاثة أرباع الحضور سواء قتلى أو فارين...

لم يكونوا قوم معتادين على مثل ذلك النوع من الهجمات فضلًا عن المفاجأة المتمثلة في الكائن ذي العينين المخيفتين الجاثم أمام المنزل...

هجم أربعة رجال ببلطاتهم... يسمع صلاح الدولة الذعر يصرخ مستغيثًا في أنفسهم...

((... بحق يسوع الرب... ما هذا؟!!!!!!!!!!!))

((... لا تدعه يقتلني... لا تدع الشيطان يقتلني...))

((.. فليأتِ ملكوتك .... كما في السماء........))

ظل صلاح الدولة مبتسمًا تاركًا سواد خصلاته يداعب حضور الشيطان القوي في قسماته... بهدوء مد ساقه اليمنى وثنى ركبتيه قليلًا... قوس ظهره وقاطع ذراعيه أمام وجهه... فقط تطل عينان إبليسيتا النظرات من فوق عضلاته المشدودة المتوترة...

وانتظر..

حين صار أول رجلين عن يمينه وشماله وهمّا أن يضرباه ببلطاتهما، فك انعقاد ذراعه في قوة أوقدها الألم والنشوة، فأطار رأسيهما...

يقف منتصبًا فاردًا صدره وذراعيه إلى الخلف، لا تزال سحابتا الدماء ترسلان زخاتيهما عن يمينه ويساره... يقطر السيفان دمًا على الأرض الندية الخضراء...

بضربة بقر بطن الرجل الثالث بينما هوى الرابع أرضًا يستجديه حياته...

- سيدي... اعف عني..

كان يتراجع على إليتيه في ذعر حقيقي... التراب المعجون بالدماء تحت كفيه...

ابتسم صلاح الدولة ونظر إليه من عليائه..

أنا رب الألم... أنا الموت يرجوه العباد رأفة وخوفًا...

يطقطق المملوك رقبته ويلعق رذاذ الدماء عن شفتيه... يبتسم...

- ترجوني حياتك؟

- أتوسل إليك... لي أبناء...

- إذًا فلم تجرأت ووقفت أمامي؟

- اغفر لي يا سيدي... اتركني...

- لا يستحق حياته من يقف أمام الموت متحديًا...

ببرود أمسك الرجل من شعره وقربه لوجهه... نظر في عينيه... ثم حز رقبته ببطء...

سالت روح الرجل المتنفض كالدجاجة المذبوحة... تنشق المملوك كل قطرة من دماء الاحتضار...

((.. أنا أحيي وأميت... أنا الموت ..))

يلعق الدماء من فوق نصل سيفه... يتراجع العالم بضوضاءه مفسحًا الطريق للسيد الجديد...

يختلط مذاق الدم والألم والعشق في قلبه...

تقترب غانيته الأثيرة يتساقط من فوقها أثوابها السبع...

تسجد عارية عند قدمي إله الألم والخوف...

ثوان معدودة في أحضانها العابثة بدت كساعات...

ثوان ثم ترك الرجل أرضًا ونظر إلى صاحبيه اللذان ما زالا يرقبان القرية الثكلى من عل...

لن يجرؤ أحد على الخروج مرة أخرى...

حمل صلاح الدولة جثة الزوج على كتفه فلم يعترض أحد.

لكن كوريتشينا رأت... منبطحة على بطنها فوق الجواد رأت... لكنها لم تفهم... لم تشعر بعد بأن هذا حقيقي...

تنتظر ذاهلة العينين اللحظة التي تفتح فيها عينيها لتجد أنها مازالت في فراشها والفجر لم يزل غافيًا خلف ستار الليل...

ربط الشاب الجسد الخالي من الحياة متدليًا على الأرض خلف جواده ثم اعتلى الأخير ملطخًا بالدماء الحارة وسار في الطرقات... يستمع إلى لطم الخدود وبكاء الأرامل وصراخ اليتامى...

ملاك الموت فوق جواده الأبيض يتبختر بعد حصاد الدم...

لن يكون هناك دية يدفعها ولا صلاة جنازة يؤمها... لقد سقطت الأثواب السبعة أخيرًا...

* * *

لم يكن يعرف أن ما أصابها هو انهيار لتماسك جهازها العصبي... يحاول إطعامها قسرًا فلا تقاوم... ولا تتجاوب...

مازال جرح الرصاصة المكوي بالنار في كتفه يلح بالألم، لكنه روض الألم منذ سنين فصار ككلب أليف يؤرجح ذيله في حب من فينة إلى أخرى...

للمرة الثانية ينقذه الحرير...

((... ألم تجد حبلًا إلا ثوب الحرير يا رجل!!...))

اخترقت الرصاصة كتفه لكن قميص الحرير أعاق نفاذها وسهل إخراجها...

لكن لن ينقذه فعلًا إلا الحرير في صوتها...

كان بحاجة إلى كتبه، بحاجة إلى أن يراجع ما يمكّنه من خوض معركة ثانية ضد عدوه اللدود...

((... الحميم....))

.... ضد الموت..

يظل ساهرًا بجانبها ليلًا يشاهد ترقرق ذهب النيران على بشرتها الصافية... يشاهد ذبول زهرته دون أن ينشق ذرة واحدة من عبقها....

مازال صاحباه يرمقانه من خلف النيران التي أشعلوها للتدفئة... مازالت تؤلمها ثورته عليهما بعد قتل شهاب الدين لزوج كوريتشينا.

ما أن ابتعد الركب الصغير عن القرية مسافة مأمونة حتى ترجل فجأة عن جواده وطرح بقبضتيه الرجلين أرضًا...

ألجمتهم ثورته الغاشمة وهو ينتزع الإجابة منهما عن سؤال لا يحتاج لكل ذلك العنف...

- من قتل زوجها؟ من!! أنت هه؟!

- أنا... أنا... ماذا في ذلك؟!

ركل قسورة ثم جذب شهاب الدين من ملابسه مكيلًا له لكمة هشمت كل رابط بين أسفل فكه وعاليه...

- تلك كانت معركتي أنا معه... لقد جرؤ وسرق ما هو لي...

ثم التفت إلى الجثة المشوهة المربوطة خلف الجواد... قطع الحبل بسيفه وظل يرمقها موليًا ظهره لرفيقيه والفتاة المغشي عليها...

مازال يذكر الرجلان أصوات النهش والتقطيع... مازالا يرمقانه من خلف النيران ويدور السؤال حائرًا بينهما...

من هذا الرجل؟

ملاك يتلبسه شيطان مريد؟ أم شيطان تلبسه ملاك العشق؟

هو ذا الرجل يسافر ويحارب من أجل امرأة... هو ذا يجلس عند قدميها ساهمًا... يمسح وجهها وشفتيها بالماء ثم يعاود شروده في لجة عينيها...

لم يكن مشهد التمثيل بجثة مما يزعجها أو يثير عجبها... بل «كيف» تم ذلك...

بحق الله... لمَ لم يستخدم سيفه أو خنجره؟ لم لم يستخدم حجرًا؟ لم لم يستخدم يديه؟!

فقط... جثا ونهش صدر الراعي بأسنانه... لم يستخدم يديه قط، كضبع متمرس على التهام الجيف... فقط أسنانه وهزات عنيفة من رقبته وصدره حتى وصل إلى قلبه فأخرجه... والتهمه!

لم يعترض حين قاما في رهبة ودفنا ما تبقى من الشاب... كان منتشيًا مبتسمًا مجنونًا غائبًا مغيبًا في جنته الملعونة...

ظل السؤال يدور بين المملوكين حتى داهمهما نوم كالموت الرفيق...

* * *

ربيع القاهرة المكفهر الأصفر يلف الأجواء فيزيدها إظلامًا وكآبة حتى في وضح النهار...

الخادمة المصرية الشابة مِسكة تصب الماء الساخن على جسد كوريتشينا المنغمس في حوض استحمام مبطن بالحجر محفور في أرض الحمام...

لم تنطق كوريتشينا منذ جاءت محمولة على يد سيد مسكة المملوك فجر أمس...

كانت ملطخة بدماء جافة وأتربة مختلطة بالعرق...

أيقظها سيدها من نومها وطلب إليها أن تحمم السيدة كوريتشينا وتُلبسها من ملابسه الخاصة ريثما تهدأ الخماسين فيحضر من يصنع لها ثيابًا تليق بزوجة أمير. ولا تحدث أحدًا بما ستراه عليها، ثم نظر لها تلك النظرة المفزعة الآمرة فعلمت نواياه لو تسرب منها خبر بما أراد منها أن تكتمه.

اعتادت مِسكة طلبات سيدها الغريبة وتصرفاته الأغرب فلم تعد تسأل أو تتساءل حتى في نفسها. تريد أن تأكل وأولادها الثلاثة عيشًا، والأمير لا يبخل عليها في العطاء...

نظرت إلى كتف سيدها الدامي ثم خافت أن تطيل النظر فهزت رأسها مرارًا في توتر ثم أمسكت بيد سيدتها الجديدة فانصاعت الأخيرة خلفها كالمنومة بلا إرادة...

حتى وهي مغموسة في المياه المعطرة تدعك مسكة النحيلة جسدها باللوف والصابون لم تكن تقاوم. ولم تستطع مسكة أن ترفع عينيها عن وجه الشابة الملائكي...

أو بطنها المنتفخة حملًا...

كانت الدموع قد بدت وكأنها قد حفرت للأبد أخدودين أبيضين على خديها يشقان طريقهما الحزين وسط الأوساخ والأتربة... لم يزل أثر الدموع في البداية بالماء... لكن مسكة ظلت تفرك خدي سيدتها بماء الورد حتى صارتا كوردتين وحيدتين في شتاء قاسي...

- كبدي يا ستي...

مصمصت شفتيها وهي تلبسها من قمصان صلاح الدولة الحريرية والتي لا يزال يلبسها سرًا تحت ملابسه...

- ياترى حايشة إيه في قلبك يا ضناي! يا ترى حبلة من مين؟!

كانت مسكة في الثلاثين من عمرها... خدمت في صباها في قصر الأمير علاء الدين. «أمانة تمشي على قدمين»، هكذا وصفها الأمير رحمة الله عليه حين أهداها لمملوكه الأثير قبيل وفاته...

لكن حسها الأمومي الهائل يجعلها أمًّا لأي شخص مهما كان سنه أو مكانته. فبعد وفاة الأمير علاء الدين، شقت ثيابها وظلت تلطم خديها وتنوح بصوت مكتوم خشية أن يسمعها أحد:

- يا ضناي يا جناب الأمير... رحت بدري يا كبدي!

فقط كانت تخفي مشاعرها تحت غطاء من الطاعة وتلبية الأوامر... لكن مشاعر كهذه قضت مضجعها على مدى سنين عمرها الفائتة... ما أن تغمض عينيها ليلًا حتى تتسارع أمامها رؤى مختارة مما شاهدته في يومها من معاناة الناس وبؤسهم وأمراضهم...

إلا أن رؤيا واحدة كانت تلح عليها بشكل شبه يومي رغم انقضاء أعوام عليها... رؤيا أم الشاب الذي قتله حصان سيدها صلاح الدولة...

كانت المرأة المكلومة تخرج ليلًا وتنكب باكية في صمت على مكان وفاة ابنها... تبكي وترمقها مسكة من خلف المشربية في حسرة...

تبكي وتهمس... تبكي وتخرج صرة من المال تنثرها أرضًا وتمرغ وجهها فيها... ثم تجمعها وترحل متعكزة على عصا خشبية...

حتى جاء يوم ولم تبك في ذات المكان... فقط سارت حتى وصلت إلى المسجد في نهاية السكة الهابطة والملاصق لقصر الأمير علاء الدين..

تعجبت مسكة يومها وتساءلت عن وجهة السيدة... تسللت خلفها وظلت تراقبها من خلف أسوار القصر...

وضعت المرأة كيس المال أمام باب المسجد، ثم ولت وجهها نحو القصر، فهي لا تعرف مكانًا للأمراء إلا هذا... رفعت يديها للسماء وصرخت بجملة واحدة مازالت تصدح في ذاكرة مسكة...

«حسبنا الله ونعم الوكيل... يحسرك رب الخلق على ضناك حسرة ما يردها مال الدنيا»

ثم سقطت ميتة...

مازالت تلك الدعوة الحارة تحرق أمومة مسكة، فتجد نفسها ترددها في قلبها كلما رأت سيدها صلاح الدولة...

((.. يا ترى حبلة من مين؟......))

لم تسمح لنفسها أن تكرهه، لكنها تخشاه... لا تستطيع أن تطمئن له اطمئنانها لسلفه الطيب...

تخشى غموضه وانطوائه وعزوفه عن الحياة التي يعيشها باقي زملائه من المماليك...

يحبس نفسه في حجرة واحدة محرم عليها دخولها... تسمع أصواتًا غير بشرية كأصوات الحيوانات الضارية تنبعث من الحجرة... لكنها تعرف بفطرتها أن تلك الأصوات تصدر من حنجرة بشرية...

تمشط شعر سيدتها البني الحريري وهي تحمل همًّا جديدًا في قلبها... ماذا يحمل الغد لزوجة المملوك الجديدة؟ ماذا سيفعل بها؟ بل من هي؟ هل خطفها؟ هل تزوجها أم....؟؟

تمصمص شفتيها المشققتين من جديد وتواصل التمشيط...

* * *

في أروقة قصر الأمير الراحل علاء الدين... سار المماليك الثلاثة في صدمة من وفاته رغم معرفتهم بحالته قبل سفرهم...

كان أقرب إلى أب، شدة وحنان ممتزجتان في قالب قوي من الحكمة والبصيرة...

لكن صلاح الدولة وحده من انفرد بلقاء مع زينب خاتون أرملة الأمير بناء على طلبها...

أعطته السيدة خطاب الأمير علاء الدين إليه وثبتت نظرها على وجهه وهو يفتحه...

كان واضحًا أن الخطاب قد تم فك ختمه الشمعي... قرأه الأمير الشاب مقطبًا ثم نظر إلى السيدة الجركسية الجالسة أمامه...

- لا تغضب يا صلاح الدولة لأنني فتحت الخطاب، فطيلة حياتي معه لم أكن أعرف عنه شيئًا... اعذر فضولي... وهذه كانت هديته إليك...

ومدت يدها بقطيفة تحوي خاتم الأمير الماسي. فتحها صلاح الدولة وحمل الخاتم بين إصبعيه... انعكست الأضواء الملونة على وجهه القسيم المترب من وعثاء السفر...

- طالما اعتبرك الأمير ابنا له... لقد أسعدت قلبه بوجودك في حياته... ها هي حجرته الخاصة أمامك... يمكنك الاحتفاظ بأي شيء تريده منها...

ثم قامت ونظرت إلى عيني الشاب...

- لكن عدني أن تسأل علي... ليس لنا من بعده رجل... ومماليكه هم أولاده...

انحنى صلاح الدولة تقديرًا لكلامها... قبض على الخاتم الماسي في كفه وتحركت عيناه على الجدار نحو شيء طالما تعلقت عيناه به...

لاحظت السيدة زينب اللمعان المجنون في مقلتيه، لطالما عهدته مجنونًا بكل ما هو ثمين وأصيل...

لمست السيدة جراب السيف المصنوع من الخشب المكسو بالجلد الأسود والمزدان بنقوش ذهبية... في ترددت أنزلته عن حامله الفضي وقربته من المملوك الشاب...

- السيف الدمشقي... هذا سيف فريد يا بني، صنعة إبراهيم المالكي الدمشقي... هذا السيف هو توأم سيف السلطان قايتباي... أهدي للأمير رحمه الله...

مدت السيدة كفيها بالسيف لصلاح الدولة... كانت كريمة معه منذ صباه فلم يعجب كرمها معه الآن... لطالما رأى توقها لابن ذكر في عينيها...

((.. لطالما رأى توقها لفتوة شابة مخبأة تحت ملابسه....))

أخرج السيف من غمده وأخذ يتأمله...

المقبض المكسو بالجلد الأسود والنقوش الذهبية... النصل الفريد الذي تعتبر صناعته سرًا غامضًا...

مرر أصابعه على الشوائب التي تشبه تجزيعات الرخام والممتدة على طول نصل السيف شديد الحدة...

كان تحفة فنيه خالصة، وللحظات لم يصدق أن هذا السيف أصبح ملكًا له...

لم يخف عن المملوكين السيف الجديد الذي خرج به من معية زينب

خاتون... نظر كلاهما إلى الآخر في صمت وسارا خلفه خارجين من القصر متوجهين إلى بيوتهم للراحة من السفر الطويل...

أما صلاح الدولة، فقد نال اليوم أكثر مما يتمنى، ولا زالت هديته الكبرى في بيته، تنتظر فارسها على حصان أبيض...

* * *

ناظرة إلى حذائي سيدها المتربين من السفر ومن التراب العالق في الجو في الخارج همست...

- ما دخل جوفها شي يا سيدي... الزاد زي ما هو...

هز رأسه وهمس بمصرية عامية لا خطأ فيها...

- نامي إنت وما أشوف ظل حد منكم الليلة...

- أمرك يا جناب الأمير...

هرولت تتعثر في ثيابها في الممرات المصفرة من ضوء شمس المغيب الغائم المتسلل من خلف الأتربة والمشربيات... يتسلل معه إلى روحها خوف على سيدتها الجديدة من شيء لا تعلمه...

((... تعلم أنه الخوار الليلي الحيواني في حجرة الأمير المحرمة... تعلمي عن قشور العقارب في بقايا طعام الأمير الذي لم يره أحد يأكل علنًا قط...))

لكنها مجرد خادمة قليلة الحيلة، ستدخل حجرتها المرفقة بالمنزل الفسيح وتحتضن أطفالها... تخبئ مسامعهم في صدرها عن الهول الصادر من الحجرة المحرمة...

يظن الأطفال أنها الذئاب أو حيوانات البراري... تؤمّن على ما يعتقدونه وتنام كمدًا داعية في سرها للمغيث أن يغيثها ويحمي أطفالها...

انتظر صلاح الدولة هنيهة أمام باب مخدعه المغلق... يتنفس في هدوء ويسمع خطوات مسكة تبتعد... يسمع رغم بعد المسافة باب أقفال حجرتها تنغلق...

ينظر إلى الباب المزدان بنقوش النحاس البارز في شرود، ثم يقرر أن يغتسل أولًا... يخطو خطوتين في اتجاه معاكس ثم يعود أدراجه فجأة... يفتح الباب في هدوء...

جالسة تحت «الناموسية» العملاقة، متكورة على نفسها كقطة وليدة في الشتاء... كانت كورتشينا النظيفة المعطرة في ثوب حريري يصل إلى ركبتيها بينما شعرها مجدول بشرائط حريرية يصل إلى منتصف ظهرها...

شاردة في الجو المصفر عبر تعشيقات الأرابيسك...

- إيم تاجوهون... مانكيك...

لا يبدو عليها استجابة ما... يتقدم منها في بطء وهو مبتسم... يركع أمام السرير ويتناول يدها في كفيه...

- إيم تاكوهون.... ملكتي...

تنقل عينيها إلى عينيه في شرود..

- حبيبتي..

مازال يشعر بروح مختلفة تتلبسه عندما ينطق الأرمينية... هي اللغة الوحيدة التي سمع بها أغنية مهد حانية من أم مجهولة...

يخرج من جيبه خاتم الأمير علاء الدين الماسي... يقدمه لها في قطيفته...

- هذا أثمن ما أملك الآن... ولك مني أثمن منه كل يوم تقضينه معي.. سأجعل كنوز العالم تحت قدميك...

تأملت الخاتم اللامع في صمت وظلت في هذا الوضع وكأنها تخترقه بنظرها ولا تنظر إليه...

وضع صلاح الدولة الخاتم على الوسادة ثم وقف أمامها يتجرد من أسلحته ما ظهر منها وما بطن في طيات ملابسه... فقط علق السيف الدمشقي على الحائط في حرص بينها ترك باقي أسلحته على المنضدة مبعثرة خطرة كمشاعره...

كان قميص الحرير الذي يرتديه غارقًا في دم جاف أسود وقد كاد أن يثقب من مكان الرصاصة التي اخترقته...

انغلق الجرح لكنه لازال ينبض بألم حبيب كلما ضغط عليه... لكنه قد شفي تقريبًا...

لطالما كانت جروحه سريعة الاندمال...

عاريًا إلا من عمامته، أخذ إبريق الماء الفضي الضخم وقطعة من القماش المخصصة لتجفيف الأيدي بجواره، مد يده بها إلى كوريتشينا...

- نظفيني... لن أتطهر سوى على يديكِ...

نظرت لوجهه ولم تعقب...

أطار عمامته من فوق رأسه وفك رباط شعره فانساب يغطي عينه اليسرى...

صب الماء في جنون فوق رأسه... ماءً باردًا لكنه لم يكن أبرد من مياه أركاس...

((.. لم يكن أبرد من ماء الحوض الحجري... ولا من لمسات سيدة الجبل.. تختلط بسيل من همهمات لعينة تخترق عقله لا يجد لها مصدرا..))

- هاك الماء... اغسلي وسخي... طهريني..!

كان يصرخ لكن نبرة يأس تسللت إلى صوته... يأس وخوف لم يستشعرهما من قبل...

أمسك يدها ووضع فيها قطعة القماش... جذبها وشرع يمسح بيدها بالقماش على صدره...

على جرحه الملتئم...

قطبت كوريتشينا جبينها وسحبت يدها في قوة فسقطت من فوق السرير على ظهرها من الجهة الأخرى...

جرى المملوك المبتل وأحاطها بذراعيه... ظلل شعره الفاحم وجهها الدامع وتساقط عنه الماء كدمع مصفر متسخ...

- مانكيك... حبيبتي... انسِ كل ما رأيتِ مني... لقد كنت ملكي منذ الأزل، فقط اعذري تأخري عنك... أتذكرين نظراتك لي من خلف الخراف والماعز... أتذكرين يوم أعطيتني الخبز؟ أنت فقط من لم ير في خادم الشيطان... لقد رأيتني بفطرتك... انظري لي الآن بفطرتك... انظري لي...

نظرت إلى عينه البنية البادية من خلف شعره... صمتت للحظات كأنها تفقد روحه... تبحث عنها...

- فطرتي لم تعد تر روحًا بداخلك تنظر إليها...

دفعته وقامت مندفعة نحو الباب المغلق عليهما... طوقها بذراعيه مانعًا إياها من التقدم أكثر فشهقت من الألم...

- لن أدعك تذهبين... أنت لي...

حملها وألقى بها على السرير مرة أخرى... شرع يصب الماء فوقه في جنون وهو يغمغم...

- ها أنا أتطهر... انظري...

فرغ الماء من الإبريق فألقاه أرضًا وهو يضحك... فرد ذراعيه بحذاء كتفيه ونظر إلى السقف... يقهقه فيتساقط الماء عن شعره فوق الإبريق الساقط أرضًا...

يختلط صوت الماء بدقات قلبه المتسارعة...

- انظري وتحققي... لا تشوبني شائبة... فكيف تقارني بيني وبين راعٍ قذر؟ هههههه... أعلم فيم تفكرين... تعتقدين أنني قاتل؟ لقد رأيتِ كل شيء... هو من أطلق النار علي أولًا... نقتل أمثاله في الحرب فنغدو أبطالًا...

- لم يبدأ هو... أنت من أخذتني من...

وثب فوق السرير وعيناه مشتعلتان في جنون... يجثو على أربع ويواجهها بعينين مزدوجتي الألوان...

- هو من أخذك مني... ما لي سيظل لي حتى أعود... لقد أحببتني...

- لم.....

كمم فمها بكفه واتسعت عيناه، همس كفحيح الثعبان صدر من بين أسنانه المنغلقة على بعضها...

- إياك أن تتفوهي بكلمة... إياك...

((.. تراها كانت تبكي كلبها أم.........))

هزت رأسها في جزع موافقة على الصمت فأزاح يده عنها ببطء... ملس على خدها ببطء نازلًا إلى عنقها النابض بدقات الهلع المحبوس في صدرها...

ظلت يده هناك على رقبتها... ينظر في ثبات إليها وتتسع ابتسامته...

انتصب واقفًا على ركبتيه أمامها... أشاحت بنظرها عن عورته... مال بجذعه للخلف مخرجًا علبة صغيرة من الأفيون تحت حشية الفراش... تناول قطعة منه وتركها في فمه هنيهة... يتحسس الخيط الأحمر حول مرفقه...

لم يجذبه طلبًا لسُكر الدماء... اليوم له خمر خاص...

من دون مقدمات مزق بأسنانه الثوب الحريري لكوريتشينا فصرخت وضمت إليها ساقيها... انسالت دموعها تحفر أخاديد الخوف من جديد على خديها...

- فوتش... فوتش...

- مانكيك!

خرجت كلمة «حبيبتي» بلغته كالفحيح حرفيًا من بين فتات الأفيون في فمه... جثا فوقها يلعق الدموع من على خديها... يلعق رموشها بينما تكتم صرخاتها تحت أنفاسها المتهدجة...

في الخارج لازال الكون يزفر أنفاسه المريضة... يدخل آخر مصري إلى بيته محتميًا من غضب الخماسين الأهوج...

تسكن الشوارع إلا من حفيف الأشجار الممزقة بطعنات الهواء...

تختلط الأصوات بأنفاس كوريتشينا... بخوفها... تجري دمعاتها الحارة في جوفه فيغمض عينيه...

تجثو النشوة عارية تحت قدميه...

تندفع الدماء في عروقه ملتهبة كبركان شهواني متدفق...

اليوم يترك الحمم تفور وتغمر كونه الخاص المظلم...

كون له صوت الحرير وقدم آرارات...

* * *

قبيل الفجر تنبهت مسكة التي لم تكن قد نامت بعد على خبطات متتالية على باب حجرتها... ألقت الشال على رأسها وفتحت فإذا به واحد من خصيان سيدها صلاح الدولة...

بدى على وجهه الأسمر علامات النوم وخطوط الحصيرة مازالت منطبعة على خده...

- سيدي صلاح الدولة طالبك حالًا...

هرولت خلفه في ذعر يأكلها قلبها على سيدتها الجديدة... هي لم تنم لحظة من صوت الصرخات المكتومة والخوار الوحشي...

تتخيل في طريقها القصير أشلاء الشابة الجميلة متناثرة على حوائط الحجرة ويأمرها سيدها بجمعها بيديها...

تتخيل سيدها والدماء تغرق فمه وصدره...

على باب مخدعه وجدته واقفًا يرتدي كامل ملابسه وأسلحته ويبدو شاحبًا، ربما بسبب ضعف الإضاءة... انصرف الخصي الشاب بانحناءة سريعة وظلت هي واقفة ترتجف أمام سيدها...

في برود وكأنه لا يعني ما يقوله أمرها أن تنظف الحجرة جيدًا وتدفن اللفافة التي ستجدها بالداخل في أرض عميقة... وأن تواظب سيدتها على شرب مغلي قشر الرمان وعرق الإنجبار طيلة اليوم وأن تجعلها تجلس في ماء دافئ مغلية فيه نبتة رجل الأسد...

- اسنديها وخليها تقعد فيه بالقوة...

انقبض قلبها وتراخت ساقاها تحتها... رجل أسد؟ أتنزف المرأة؟ وما الذي ستدفنه؟!

رحل سيدها فدخلت ترتجف لا تجرؤ على رفع عينيها عن الأرض... إلا أن أنفها قد وصلته رائحة الدم الصدئة قبل أي شيء...

- ستي! يا كبد أمك!

هرولت إلى حيث نامت عارية كخرقة بالية في بركة دماء تحتها، بينما شيء ملفوف في قطعة قماش ملقى على الأرض جوارها...

الفوضى والماء المنسكب والإبريق الساقط لم يسحبا عيني مسكة من على وجه كوريتشينا...

صعدت في حذر على السرير بجانبها ووضعت أذنها فوق صدرها... مازال هناك قلب ضعيف يدق...

تراخت متربعة على الأرض تلطم وجهها وتبكي... ترتعد من الخوف والاشمئزاز... تنعي حظها الذي ألقى بها في جعبة الشيطان ذاته...

((.. *الصلاة خير من النوم*...

.. *الصلاة خير من النوم*..))

شرعت تدعو وتبكي بكلمات مختلطة ثم مع أول ضوء للشمس قامت وأمسكت اللفافة بحذر وقلبها يكاد يسقط من فمها...

تشعر بأشياء صغيرة متفرقة بالداخل...

تقلصت أحشاؤها وأضافت إلى فوضى الدماء عصارة معدتها الجائعة...

سمعت أنينًا خفيضًا من خلفها فمسحت وجهها في جلبابها وهرعت إلى سيدتها...

- أمرك يا ست الناس...

- إيم يريخان...

- وسيدنا الحسين ما فاهمة شي...

«طفلي»...

كانت آخر كلمة قالتها كوريتشينا قبل أن تغيب في عالم من الصمت...

* * *

خرجت مسكة والدموع تغسل وجهها من زفرات الربيع الحارة المتربة، تحتضن اللفافة

وتحاذر أن يسقط شيء منها...

((... يارب... يا عالم بالحال... ماتوقع نواضري عليه...))

تجري حتى تصل إلى أطراف حدود الأرض المخصصة لسيدها... تلهث بلا انقطاع وتسعل ترابًا...

تحفر وتضع اللفافة على أعمق ما أمكنها ثم تهيل عليها التراب... تجلس معفرة فوقها وتلطم خديها كعادتها في صمت...

((.. حسبنا الله ونعم الوكيل... يحسرك رب الخلق على ضناك حسرة ما يردها مال الدنيا...))

تكاد تبصر في الرياح الغبراء سيدة متشحة بالسواد تتكئ على عصا... ترفع السيدة ذراعيها إلى السماء وتجهر بدعاء اختلط بصوت الريح لكنه أبدًا لن يذهب هباءً...

- حسبنا الله ونعم الوكيل... يحسرك رب الخلق على ضناك حسرة ما يردها مال الدنيا...

تسقط السيدة على الأرض فتتناثر مختفية مع الهواء الساخن...

تبصق مسكة في صدرها وتتمتم...

- يا نجي الألطاف... بسم الله الرحمن الرحيم...

تجري عائدة إلى أولادها... تفكر أن تهرب بهم، ثم تستعيذ بالله من همزات الشيطان اللئيم...

وقبيل أن تصل إلى باب حجرتها المفتوح، تجد رمضان ابنها الأصغر يمسك عقربًا صغيرًا باهت اللون بين أنامله ويضحك...

هرولت إليه حتى كادت تسقط على وجهها... رفعته وضربت يدها على يده فسقط الجسم الأصفر أرضًا وسط كيس من العقارب الصفراء...

صرخت وتراجعت ملصقة ظهرها للجدار فجاء الخصي الأسمر مهرولًا شاهرًا عصاه...

- بتصوتي على إيش يا حرمة؟

- عقارب!

انحنى يتفحص الكيس ومالبث أن التمعت أسنانه في ابتسامة تداري هلعًا حقيقيًا...

- عقارب نافقة يا حرمة... ماتضر ولا تنفع...

- نافقة؟!

اقتربت وهي تفتح عينيها وتغمضها في قوة علها ترى ما يراه...

كانت مجموعة من العقارب خفيفة السم منزوعة الزبان، ميتة في كيس من الكتان...

- جبتها منين يا رمضان؟ انطق...

- سيدي صلاح الدولة عطاهالي...

- ماقالك شي؟

- لا...

رفعت مسكة عينيها إلى الخصي فأشاح بنظره إلى الأرض متحاشيًا التقاء الأعين...

- أ... ما أسمع صوتك تاني هنا يا حرمة... مفهوم...

ثم انصرف في خطى واسعة...

لم تكن غبية... فقيرة؟... نعم... مذعورة؟ بالتأكيد... تريد أن تأكل عيشًا في أرض يخدم أسيادها عبيدها... لكنها أرادت أن تعيش من أجل أطفالها...

رسالة التهديد قد وصلت... كيس من العقارب الميتة كي لا تتكلم... وإن تكلمت فهي أعلم الآن بالعقاب...

* * *

بعد وفاة الأمير علاء الدين النجمي، أصبح صلاح الدولة النجمي من قرانصة السلطان قنصوة الغوري...

ترقية لم تكن في حسبان المملوك الشاب، ترقية قدرية تعتمد على ما سمعه السلطان من سيرة صلاح الدولة وخطورته وغموضه...

كانت كل فترة حكم في فترات حكم المماليك لا يتعدى سنوات قليلة، فقد حكم في دولة المماليك البحرية ٢٩ سلطانًا في ١٤٤ عام...

بعضهم حكم فترات طويلة وبعضهم حكم عامًا أو اثنين فقط... كانت

القوة والسلاح غالبًا هي وسيلة التغيير الرئيسية للسلاطين...

كان الزهو يملأ فؤاد صلاح الدولة وهو يتبختر في طرقات المحروسة على الأكمل... يرى الرجال على المقاهي يسمعون السير والحكايات... لا يعرفون ولا يبالون بمعرفة ما يحدث في طبقات الدنيا العالية فوقهم...

((.. الحكم لمن غلب..))

سبحت مقولة السلطان العادل الأيوبي ثم طفت متوسطة بحيرة من الكبرياء تلألأ في نفسه... ولم لا يكون هو الغالب في النهاية؟

السلطان نفسه يعتمد على قوة مماليكه وولائهم لكبح جماح مماليك الأمراء الآخرين... يستطيع أن يستشعر الخوف الصغير يحبو في نفس كنفس السلطان؟؟ خوف لا يشعر به أحد إلا من امتلك غريزة شيطان كصلاح الدولة...

أن يكون من خاصكية السلطان... ياله من منصب! لن يرفض السلطان لأحد من خاصكيته طلب لأن سلطنته وحياته ذاتها متوقفة على ولاءهم ورضاهم...

((.... اعلم إنك تهمني... ستعود لي وإن تأخرت... سأسمعك وإن همست... ما لك سيظل لك حين تعود... عُد لي ثم ارجع لمُلكك... ثم عُد لي وطالِب بمُلكك... من لا يملك سيعطي من لا يستحق... ثم يحكم من لا يستحق ما لا يملك... ثم تأخذ ماليس لك فتستحقه وتملك!..))

تلح عليه النبوءة كلما تقدم أكثر في طريقه الغامض الممتد...

لقد أخذ اليوم موافقة السلطان على الزواج من كوريتشينا...

مر شهر على إجهاض طفل الراعي من رحمها... توقع أن يموت الطفل من السفر الشاق والطريق الوعر، لكنه لسبب ما ظل ينمو ويكبر متحديًا بديهيات الموت والحياة...

وفي غمرة الأفيون والدمع الساخن تنبه لحقيقة غفل عنها...

((.. كيف يموت من لم أقتله بنفسي؟!! الموت يخاف أن يقترب مني ومن ممتلكاتي... الموت يطلب الإذن لكنني لن أعطيه إياه وسأسلبه عرشه... الموت يخافني!..))

كان يعرف ما يفعله... قراءات طويلة في الطب وزيارات متكررة إلى البيمارستان المنصوري أتت ثمارها...

الموت يدور حول السرير وهو يخلص روح من روح...

((.. أنا أميت وأحيي..))

يمزق ابن ستة أشهر ويوقن أن الحبيبة تتطهر فقط ولن تموت...

لن تسكن نطفه رحمًا يتربع فيه ابن الراعي النجس...

وحين أتم مهمته تقزز أن يأكله كما أكل قلب أبيه فلفه في قماش وجلس يطبب حبيبته النازفة...

أسند رأسه على صدرها وشرع يغني...

- كونفو مانكيك كونييل....

كمولود ضخم غارق في الدماء...

اليوم يستعد لعرس لم ير أحد مثله... عرسه على الأرمينية المتطهرة...

* * *

أسدلت مسكة الطرحة البيضاء على وجه سيدتها وشرعت تلف حولها بمبخرة نحاسية...

- بخرتك بالمستكة وبالشبة لجل الأسياد فيكي ما تتشبه...

تدور في حزن على صمت سيدتها الذي دام شهرين حتى الآن...

- بخرتك بالفكة والفكوك... لجل ما ينحسد شعرك المفكوك...

الهدايا مكومة في كل الأرجاء... الخيول المطهمة تسكن في الاسطبلات وتسبح في الأجواء روائح الأطعمة والعطور والعنبر...

تنظر حولها لتجد الأميرات والجواري يضحكن ويتمايلن طربًا على نغمات العود المنبعث من جارية رقيقة كفراشة بينما ترقص أخرى في دلال مرح...

لم تكن كوريتشينا تدرك أي شيء مما يحدث أمامها... كانت تقضي يومها في تقطيع طعامها وإلقائه للكلاب والعصافير...

ومع دخول الأمراء لتقديم الهدايا تختفي الموسيقى وترحل النساء إلى ما خلف ستار هناك... فقط تمسك كوريتشينا يد مسكة تمنعها من الرحيل فتقف صامتة جوارها...

يدخل الأمراء الواحد تلو الآخر يضع في حجرها صرر المال والأحجار الكريمة والحلي، بينما تُرص الهدايا الكبيرة في غرفة منفردة لحين فرزها بعد انتهاء العرس...

بينما يقف صلاح الدولة في أبهى حليه يزدان من رأسه إلى قدميه بالحلي الفضية المطعمة بالأحجار الكريمة...

يتباهى بخاتمه الماسي وسيفه الدمشقي...

تدور صواني الشربات والحلوى بين الجالسين وتتصاعد أدخنة الشيشة الفاخرة المتوجة بالأفيون...

ينظر صلاح الدولة حوله فلا يجد شاهديه... شهاب الدين وقسورة... يلعن بالأرمينية من بين أسنانه ويدخل البيت بحثًا عنها...

يعلم أين سيجدهما...

من قبل أن يصل إلى باب القاعة الفسيحة المرفقة بالغرفة ذات الستار الشفاف، يسمع ما يدل على وجودهما...

يدخل ويفتح الستار... يقف في صمت ينظر إليهما...

- أعلم أنكما حقيرين... لكن أتأمنا الفضيحة في يوم كهذا؟

تسمرا في وضعهما للحظات رأى صلاح الدولة في عينيهما انعدام وعي صريح...

فرق التقاءهما بسيفه النائم في غمده ثم استله ووضع نصله على رقبة شهاب الدين المترنح الباسم بلا مناسبة...

- ثلث من كانوا في الطباق ملعونون مثلكما... الكل يعلم بما يفعلونه لكن الكل يدفن رأسه في رمال النعيم ويؤثر الصمت... الجميع يبحث عن سقطة في سجل غيره... هكذا تسير الأمور هنا... وكلما كانت سقطة متعلقة بالدين كان هذا أفضل... يطمئنون على إيمانهم بكفر غيرهم...

أغمد سيفه ووقف يرمقهما... لقد أفرطا في النبيذ وصارا يتأرجحان كصحنين من «المهلبيجي»...

وعلى البوابة دخل «الدبباتي» ومعه قفص يحوي دبًا بنيًا ضخمًا لا كالدببة الصغيرة سيئة التغذية التي يدورون بها في الموالد...

تقدم مملوك صغير موكب الدب سائلًا عن صاحب العرس... لحظات حتى أتى صلاح الدولة خلفه رفيقاه تفوح منهما رائحة القهوة الزكية...

- جناب الأمير صلاح الدولة... هدية السيدة زينب خاتون لجنابك...

وأشار للدب... ابتسم صلاح الدولة واقترب من القفص ينظر عن قرب للعملاق السجين بداخله...

كان الدب خاملًا غير مبال بما حوله شأنه شأن الدببه المروضة التي يستخدمها الدبباتية... لكنه ليس من نوع الدب السوري الصغير المألوف للعروض، هو دب فرموزي نادر مجلوب من بلاد سيام شديدة البعد...

بمجرد تلاقي الأعين البشرية بالحيوانية هب الدب واقفًا على قدميه وشرع يزأر وينثر الزبد في كل صوب...

تأرجح القفص من فوق العجلات وتسمر الكل في مكانه حتى أن قسورة أفاق من سكره وأخرج سيفه...

إلا أن ثبات صلاح الدولة مكانه وابتسامته التي أخذت تتسع طمأنت من حوله، فهو الأقرب للقفص الحديدي...

بعد هنيهة صمت الدب وثبت عينيه في عيني صلاح الدولة وهو مكشر عن أنيابه الناصعة... ثم ما لبث أن جلس مكانه كأن شيئًا لم يحدث...

مد صلاح الدولة يده وداعب الفراء الحالك الكثيف... لقد رأى الدببة حول آرارات من زمن وما كانت تثير في نفسه ذعرًا ما...

ألقى أوامره أن يلغي عرض الدب خشية هياجه وأمر أن يؤخذ الدب بقفصه إلى الأسطبل مؤقتًا...

وسط الضجيج والطبل شهد على الزواج مملوكان شاذان مخيبان، وتوالت الاحتفالات حتى وقت متأخر...

سَر صلاح الدولة شهادة صديقيه الباطلة بشكل خاص... ها هو يسخر مرة أخرى من طقوس دينية لا يعترف بها في قلبه ولا يعبأ بها... أراد القوم زفافًا إسلاميًا وقد حصلوا على واحد... لن يعترض أحد رغم سكر الشاهدين

البين... طالما كان الظاهر حلالًا فالباطن لا يهم أحد...

ظلت صورة الدب تراوده من حين لآخر... شعور مماثل لما شعر به تجاه الأكمل... هذا دب سادي قد لقي ونيسًا في روح الأمير المريضة...

تأكد له أيضًا اهتمام السيدة زينب أرملة الأمير بشأنه حتى تجلب هدية باهظة ملفتة كهذه... هدية تلائمه أكثر من أي شيء آخر...

وفي الحرملك... انصرفت النساء مباركات متعجبات من حال العروس وبقيت فقط مسكة مع كوريتشينا...

اقتادتها الخادمة دامعة القلب إلى مخدعها واستبدلت بملابسها ثوبًا سماويًا حريريًا مقصبًا بالخيوط الذهبية...

بدت كملاك ساقط من السماوات إلى أعماق الجحيم...

جلست مسكة تحت قدمي كوريتشينا تدلكهما بزيت الياسمين...

- سيدي جناب الأمير طيب... هو تلاقيه...

.صمتت ولم تجد ما تكمل به كذبتها فضلًا عن لغتها التي لن تفهمها سيدتها...

الليل طويل وقرع الطبول مازال يعلن الزفاف الحزين...

ومع نسمات فجر الصيف المتأخر نسبيًا... سمعت صوت سيدها يناديها فهبت من جلستها على الأرض جوار سيدتها النائمة...

- ستي... جناب الأمير حضر...

ولم تنتظر جوابًا...

((... خشية أن تمسك الشابة بكفها مستجدية مرة أخرى...))

وهرعت خارجة تستقبل سيدها بانحناءة مرتجفة...

- خدي أكلك من مصطفى...

- تسلم يا جناب الأمير...

وانسلت كالفأر في الطرقات تدس وعيها في أعماق ضربات قلبها كي لا تفكر في شيء...

كان نصيبها من الطعام يكفيها وأولادها شهرين مع التبذير... انحشرت دعوة لسيدها في حلقها، لم تستطع أن تنافقه أمام ربها في علاه...

أيقظت الأطفال فشرعوا يأكلون مغمضي العينين يدعون في صفاء قلب الجاهل لجناب الأمير الكريم...

لم تذق ذلك الطعام ولا غيره، فقط جلست في الركن تذرف تضارب أفكارها من مقلتيها ولم تنم...

* * *

يعبر النوم كطيف أمام عيني كوريتشينا فلا تستطيع الإمساك به... احترقت أعصابها يوم رأت الهول في روح صلاح الدولة...

تذكر طفولة قريبة حين كانت تجلس أمام النيران في الشتاء تسمع حكايا أخوتها الكبار عن الخزر... وعن سيدة الجبل الرمادية...

يبصق أخوها الأكبر آرتين ويسمح شاربه الضخم في كمه، يجرع خمرًا قاسيًا محلي الصنع من الشعير ويردف بعينين متألقتين بوهج النيران...

- اختطفت الشيطانة الصبي من جده وأمه... يبدو أنها كانت تبحث عنه... قبلها بليلة جابت القرية الخيول الرمادية بلا ركاب ترفس الأبواب بحدواتها المشتعلة... ووقفت أمام باب بيت الصبي... ثم

استدارت راحلة... يحدث ذلك في ذات الليلة من كل عام...

ضحك الأوسط إيشهازين ضحكة مفتعلة وأشار بطرف خفي لآرتين يذكره بوجود كوريتشينا...

- كلها أساطير... وحق الربِّ الحي لو كان غيرك يحكيها للكمته في رأسه معيدًا عقله إلى مكانه...

صمت آرتين وراح يمضغ اللحم المقدد المالح في ضيق لإفساد أخيه عليه حكايته...

دخل الشاب الصغير إيلفين إلى البيت ليجد كوريتشينا تجري مختبئة في فراشها كأنها لم تسمع شيئًا...

جلس جوارها ومسح حبيبات من عرق الحماس على جبينها ثم داعب لحيته الخفيفة الشقراء مجتذبًا انتباهها بصوته الدافئ...

- كورتشي... لا تلعبي مع الصبي في المرعى... لا تقتربي منه...

- و... ولم؟

- لا نعرفه... ولا نعرف أهله...

- آرتين يعرف أمه وجده...

- لا أحد يعرف من هو... وجدته المرأة ملقى وسط فراء الخراف المسلوخ صباحًا... احتفظت به وأبوها فترة من الزمن... ثم جاءت سيدة الجبل وأخذته... أعطاه لها الرجل بلا كلمة واحدة... يقول الرجل أنه وجد الطفل الذي لا زال يحبو وهو يتناول أول وجبة له في حياته وكانت من العقارب!

أغمضت كوريتشينا عينيها في خوف ودست وجهها في صدر أخيها...

تشم رائحة المرعى وصوف الخراف في جسده...

ذات رائحة زوجها فيما بعد... رائحة الأمان والدفء...

مازال أنفها يشتاق تلك الرائحة ويتلمسها بين روائح المسك والياسمين والبخور... مازالت طفلة انتزعوها من عالمها الصغير الحميم وألقوها في بذخ مرعب متسع...

وما بين اليقظة والنوم تشعر بأنفاس صلاح الدولة ولمساته... تشم أنفاسه الخالية من الأفيون لأول مرة...

((.. تشم رائحة الخراف والمرعى....))

تشعر بلمساته... رقته وقوته... همسه وصراخ نشواته المتعاقبة...

((... تشعر بجسد مكورديج المشعر وهمسه... يز كيز سيروميَم..))

تتوالى قبلاته وتشعر بأسنانه الحادة تنغرس برفق في جسدها... فلا تقاوم...

- يز كيز سيروميَم... أحبك...

((.. تضحك وترتمي في أحضان مكرديج تحت الخميلة... يداعب شعرها ويحتويها بين ذراعيه... رائحة الأمان... والحب..))

يقوم صلاح الدولة... تراه بنصف وعي، يضيء جسده القمر المكتمل فيلمع جسده بقطرات العرق... ينزل سيفه أسود النصل من فوق الحائط...

((... يقطع اللحم بسكينه القصير ويطعمها في فمها... يضحك على صوت ضحكاتها الطفولية... يشكر الرب على تحقيق حلمه الوحيد...))

يحز بالسيف عضده ويلعق الدماء...

يجلس متكومًا على الأرض جوار المشربية يضحك في خلل... تشعر أن صوته يأتي من بعيد...

يصعد على السرير مرة أخرى... تشعر بدمه الساخن على جسدها...

تفور رجولته مرة تلو الأخرى متحررة من عقال تَكَبُّرِها...

يصهل الأكمل في الإسطبل ويركل بابه الخشبي القصير... يجذب رباطه ويدمي جسده الأبيض...

يهتاج الدب واقفًا في قفصه... يهرع مسؤول الإسطبل النائم في الركاب خانة وسط السروج فيقف عاجزًا لوهلة لا يعلم سر هياج المخلوقين دون باقي الحيوانات في الجوار...

تزحف العقارب من مخابئها البعيدة خارجة بلا هدف...

وتمسي مسكة الباكية المذعورة تهمهم بلا انقطاع

- يا خفي الألطاف... نجنا مما نخاف...

* * *

يختص المماليك بشاطئ في جزيرة الروضة في النيل، خاص لا يدخله سوى الأمراء... يمارسون فيه السباحة بشكل دوري كجزء من دعم تدريباتهم العسكرية...

مؤخرًا، لم يعد يحب صلاح الدولة السباحة...

منذ عاد من رحلة أرمينيا الأخيرة وهو يخشى غمر جسده في الماء...

تنتابه هلاوس غريبة لا تمت لحياته السابقة بصلة، هلاوس غريبة لا ينتصر عليها سوى هلاوس الأفيون...

لا يستحم إلا تحت وطأة الأفيون...

لكن السباحة في النيل أمر لا يجب اختباره دون كامل وعي.

يسبح صديقاه في النيل من ضفة إلى أخرى وبالعكس حتى تنهك عضلات أجسادهم... يخرج قسورة والماء يتقاطر من لحيته وشعره... يجفف جسده ويرتدي القمجون... لا ينسى إعادة ارتداء سلسلته الذهبية وإخفاءها في ملابسه...

ارتداء الذهب محرم على الرجال... لذا يخفي قلادته دومًا...

- أمازلت تخشى الماء؟

- لا أخشاه... فقط أكره ما لا أعرفه...

- سمعت أن هناك أقوامًا يقرأون الماء... يقولون أن له ذاكرة خاصة لكل ما يمر به وحوله...

يصمت صلاح الدولة ويتذكر حوض الماء الحجري عند سيدة الجبل... هي تقرأ الماء فعلًا... لعلها أعطته بعضًا من موهبتها الغريبة...

كان يسمع في الماء همهمات بلغات عديدة... بعضها عربي وبعضها لم يسمعه قط... يرى أناسًا سمراء وقمحية وبيضاء... يسمع قراءات القرآن وترانيم الكنائس... كل هذا في لحظات معدودة متداخلة...

أثارت تلك الأصوات جنونه يوم أن صب الماء على جسده مطالبًا كوريتشينا بتطهيره...

أحيانًا ما يرى رؤى كاملة محددة عن أناس لا يعرفهم... يشبه ذلك ما رآه من حياة كوريتشينا السابقة حول نهر أركاس في الحوض الحجري...

ينضم شهاب الدين إلى جلستهم... ينظر إلى عيني صاحبه المزدوجة اللون، الحائرة فيخشى سؤالًا يلح في الهرب...

- يحدث كثيرًا أن تموت الأجنة في بطون أمهاتهم... عليك بشراء جاريتين

يحملان بدلًا من زوجتك... هكذا تفعل نساءنا كي لا يذبلن سريعًا من كثرة الحمل والولادة...

- لن يحمل طفلي جارية نجسة...

- لا أعرف ما وجه النجاسة في ذلك... يمكنك أن تحضر جارية من بلدك إن شئت...

يقوم صلاح الدولة منسحبًا من الحديث اللزج الفضولي... فقط هو يريد طفلًا من كوريتشينا... يريد أطفالًا تحمل ملامحها وحبها له...

((.. أتبكي الكلب أم تبكيني.....))

يركع أمامها كل ليلة منذ عامين، يصب الخمر على ساقيها ويرتشفه من فوق أظفارها... فقط هي لا تعي شيئًا مما حولها...

ينكزه شيطانه أن يضربها ثأرًا لكرامته المسفوحة عند قدميها... لكن شيئًا فيه مازال نابضًا بالإنسانية...

شيء فيه يحب... لكنه حب من نوع فريد...

جاءه رسول يحمل استدعاءً من السيدة زينب أرملة الأمير علاء الدين...

لم يرها منذ عامين أو أكثر قليلًا... جرفته الحياة بين هم الأجنة المدفونة في حديقة بيته، وبين تدريبات شاقة تفضح قلق خفي في عيني السلطان قنصوة الغوري...

انتهى عصر التحالف مع العثمانيين بجرّ المماليك إلى حرب بحرية غير متكافئة مع البرتغاليين أنهكت ما تبقى لهم من قوة...

والآن يرى زحف العنقاء العثمانية بجناحيها لتغرق أملاك المماليك في ظلها المعتم...

يركب بغلته متوجهًا إلى قصر الأمير علاء الدين...

تتكاثر الغربان على حمار نافق ملقى تحت شجرة... تعيد الأجنحة المرفرفة السوداء ذكر العثمانيين وكابوسهم المقيم شرقًا...

يذكر رواية سمعها تحكي أن تيمورلنك قد أرسل لعدوه العثماني بايزيد بن السلطان مراد الأول خطاب شديد اللهجة تذيله بصمة كفه الحمراء المخضبة بالدماء، ممهورة بإمضاءه مزخرف بخط الطغراء...

يرتبط من يومها في عقله تهديد العثماني بخط الطغراء الدامي في ذلك الخطاب رغم أن التهديد كان لهم وليس منهم...

الدائرتان المتداخلتان في ذلك الخط يمثلان جناحي العثماني الممتدة في جشع شرقًا وغربًا، بينما ترفرف الأشرعة الثلاثية المميزة لقمة الكلمات المكتوبة بذلك الخط، معلنة سيادة الأسطول العثماني على البحار كما أعلنت عن سيادتها للأرض بجناحين مشؤومين...

ليس الطغراء بابتكار عثماني... فقد سُرق من شعوب أقدم ككل شيء يسرقونه من المماليك الآن وتم إخفاؤه بين طيات الزخرفة المبالغ فيها ثم نسبها لأنفسهم...

كان يكره تهديد العثماني لحلمه بالسيادة وكرسي السلطان العالي... تقتل شعاراتهم الدينية الخادعة بإقامة دولة الخلافة كل أمل له في أن يكون سيد مملكة موعودة من النيل إلى الفرات... إلى أرمينيا...

ترجل من فوق بغلته وأوثق معها أفكاره السوداء ليعود إليها لاحقًا... ثم دخل يسدد نظرات لا يعلم سببها إلى الغرفة التي بات فيها أول لياليه كمملوك صغير...

((... ترى أوداء عبد الله مازال تحت الثرى؟؟...))

في حجرة مغلقة تنتظره السيدة زينب ترتدي أفخر ثيابها... تفوح منها رائحة أزهار الأرنج والريحان...

بدت أصغر من سنها بعشر سنوات... لكنه تصرف عجيب منها أن تبدي له كل تلك الزينة...

أفلت قلبه دقتين وجلتين توالت بعدها دقات الدهشة لعده ساعات إثر كلماتها...

- صلاح الدولة... تعلم أن لا رجل بيتنا هنا... وقد طلبت منك أن تسأل عنا، لكنني أرى أن الحرج قد منعك من ذلك... فنحن نسوة قبل كل شيء...

فاضت نظراتها بشهوة عارمة يمنعها الكحل الأسود من الانفلات... مازال جسدها مشدودًا عفيًّا فقد تركت الإنجاب لجواري الأمير كي تحتفظ هي بسطوتها الجنسية عليه... تعلم مكمن قوتها وها هي تستخدمها الآن مغلفة بالغنى والسلطة...

- ورأيت أن أرفع عنك الحرج... لقد أحل لك الله من النساء مثنى وثلاث ورباع... وأنا لن أخالف شرعًا لو طلبت منك الزواج... ما قولك...؟

يخيل إليه أن هؤلاء القوم لم يقرؤا سوى الآيات الخاصة بحل النساء وجمع الغنائم فقط... يعرف أن صمته سيدفعها للدفاع عن نفسها مستشهدة بأن السيدة خديجة كانت أكبر من نبي الله محمد وقد طلبت منه الزواج...

((... لكنها لم تغره ولم تكشف له مفاتنها...))

يجدون مبررات شهواتهم في ذلك الدين... كلهم مراؤون كاذبون...

((... كلهم عثمانيون.....))

لكنه رأى ما خلف تلك الزيجة من منافع لطموحه... السيدة عاشرت واحدًا من كبار الأمراء المماليك وتعرف أسرارًا وخبايا ومؤامرت يسره أن تكون تحت يديه... وهو يملك ما يستنطقها به...

ابتسم وهز رأسه موافقة...

وفي الخامس من ذي القعدة في العام الثامن عشر وتسعمائة هجريًّا والثالث عشر وخمسمائة بعد الألف ميلاديًّا... تزوج صلاح الدولة النجمي من السيدة زينب الجنداري بموافقة السلطان قنصوة الغوري ومباركته ومنحت له السيدة زينب القصر وملحقاته وثمانية جواري عذراوات...

والأربعة أعوام المتبقية من عمرها قبل مقتلها شديد العنف والغرابة!

* * *

عامان تاليان من النجاحات المستمرة في حياة صلاح الدولة وترقية كأمير خمسة مقدم عشرة، بل وعمله في منصب حساس كنائب للأمير طومان باي الدوادار، وفي منصبه يكون على اطلاع بكل مراسلات السلطان...

لم يخلُ العامان من ثلاثة أطفال ذكور يدفنهم جوار أخويهم، نقل مكان دفن أطفاله إلى الحجرة التي بات فيها أول ليلة في القصر... يذكر كلمات قديمة بعيدة... بعيدة...

((ابتلعت في جوفها أبنائي الثلاث وتأبى الشبع دون جثتي... الفاجرة...))

وجد يومها بقايا متحللة من ثوب عبد الله... بدت تلك الأيام بعيدة بعيدة، وضع رفات طفليه الأولين القليلة في القماش المهترئ وأعاد دفنهم...

كلما مات له طفل يذكر وجه عبد الله... يذكر نفوره منه في أيامهم الأخيرة...

أتراه مات أم هو فقط لم يعد مرة أخرى إلى مصر؟؟

يقضي ليالٍ طويلة في صحبة كتب التشريح وجثث نساء جلبها له خدامه، يشرح أرحامهن بحثًا عن العلة؛ يبحث عن سبب لموت أبنائه...

ينتهي به الأمر غارقًا في الأحشاء يمزق ما تبقى من الجثث اليائسة بأظفاره وأسنانه...

يجهر بكفره ولعناته فيسقط مغيبًا بين براثن الأفيون...

لم يمس الجواري فلم تحمل منهن واحدة... سمع كثيرًا عن معرفة تلكم الجواري بفنون عجيبة من الهوى فعافت نفسه أن يعاشر عاهرة حتى وإن كانت عذراء...

أما السيدة زينب فعشقت تقييده لها عارية في سريرها وجلدها ثم إعطاءها ما تشتهي ثمنًا لمعلومات أو توصية منها عليه...

لم يمسها إلا وعقله مغيب بالأفيون والنبيذ... يراها من خلف وعيه المترنح عجوز شمطاء متهدلة رغم جمالها الشديد...

تلعق قروح الأفيون عن جسده وتطيبها فيكافئها بجولة ثانية وثالثة تختلط فيها نشوتها بصراخ ضربه وجلده وفورة غضبه على الموت اللعين، سارق أطفاله وقاتل روح حبيبته في جسدها الحي...

يتلذذ بتعذيب زينب وتعلو سقف طموحات ساديته معها يوميًا...

حتى نقل الدب من ضيعته إلى القصر...

يربط الدب بسلاسل من عنقه ويديه وقدميه في زنزانة حجرية، ينزل إليها مع زينب كلما طلبت منه حقًا شرعيًا...

يطل الجنون من عيني زينب مع نشواتها المتتالية وهي نائمة أرضًا تكاد تطولها هجمات الدب المقيد... يعلو زئيره فوق صرخاتها وعواء صلاح الدولة الحيواني الرهيب...

يصل هياج الدب وثورته كاملًا غير منقوص إلى وعي صلاح الدولة فيتضاعف إحساسه بالقوة والسيادة...

لا يدري أمشاعره هي من تحرك الدب وحصانه الأكمل، أم العكس... يتعجب كثيرًا من صلته الخاصة بهم... هناك شيء خبيث يربطهم بعضهم ببعض...

وهناك جنون مشترك يجمعه بزينب...

السيدة المجنونة خرجت للقوم زاعمة أن إحدى الجواري قد حملت سفاحًا فشكلت محكمة من أتباعها وقررت إقامة حد الزنا عليها...

يعلم صلاح الدولة أنها بريئة لكنها فقط كانت ضحية بشرية تمنع من تسول له نفسه ممن في القصر الكلام بالسوء عن سيدهم الجديد...

جلدها الجلاد بعد أن دفعت للقاضي عشرة قطع ذهبية مع توصية بألا يقتلها...

جرتها ليلًا من شعرها يتبعهم صلاح الدولة غير المبالي إلى الزنزانة الحجرية والدب الحر الجائع منذ أسبوع...

ألقتها بالداخل وأغلقت الباب...

يراها صلاح الدولة تقف على أطراف أصابعها وشعرها ينسدل حتى أسفل ظهرها كطفلة تشاهد السيرك...

وكان هو في غنى عن المشاهدة...

يشعر بالدب يتقاذف جسد الفتاة الدامي على الحوائط... يعشق الدب اللعب بضحيته قبل أكلها...

يشعر بذعر الفتاة والروح تقطر منها مع كل ضربة من مخالبه...

يجذب الخيط الأحمر ويلعق الأفيون...

((.. أنا الموت في زنزانة حجرية... أنا القوة الغاشمة... أنا أحيي وأميت...))

تضعف الصرخات فيراها تنسل من بين القضبان كجناحين أسودين...

تدور الحوائط من حوله ويبتعد الوجود لتحل محله عنقاء ضخمة مزخرفة بطغراء عثمانية... تنقر رأسه وتمزق عمامته... شعره الطويل في منقارها الأسود تنثره في كل صوب...

الدماء تغرق عينيه فيتحول الكون إلى الأحمر القاني تلتمع فيه رايات العثماني وتدور مدافع غريبة لم يرها من قبل في كل اتجاه تفجر وجوده فيسقط في قاع الظلام...

* * *

وجوه المصريين المصفرة المهمومة بلقمة العيش وكيفية جمع الأموال للمحتسب، كانت جميع السلع غالية لا يقدر أحد على مناقشة الباعة فيها فيقولون وقتها:

«علينا مال للسلطان»

فانشغل كل في رزق لا يأتي وفقر لا ينصرف...

أما الغش فحدث ولا حرج، فكانت الأموال الذهبية تغش بالنحاس والرصاص علنًا...

وكأن الناس لا يكفيهم همهم، فراح السلطان الغوري يعيث في أرض مصر فسادًا فيضع يديه على التركات الأهلية ويأخذ مال اليتيم ظلمًا...

فتمنى الناس أن يخرجوا من بلادهم إلى غيرها من شدة الظلم الواقع عليهم...

يشتد دعاء الناس وارتفاع أكفهم إلى السماء، بينما تشيد أمام أعينهم وتعلو مأذنة الأزهر ذات الرأسين! يموت الأطفال جوعًا خلف البناء الجديد لجامع الميدان عند حوش العرب!

طال الصمت خوفًا من البطش... وصار الناس يدعون سرًّا بالبلاء النازل من عند رب العالمين ليأخذ حكامهم الظالمين ويبدلهم خيرًا منهم...

البعض كانوا يأملون في حكم تحت راية الخلافة... حكم تحت جناح ابن عثمان الزاحف ببطء واثق إليهم من الشرق...

يقولون أن ابن عثمان هو خليفة المسلمين...

يقولون أنه سيطبق الخلافة بحذافيرها وسيكون ابن الخطاب بينهم...

يسمعون غير ذلك عنه... لكنهم ينكرون أن يصدر من خليفة المسلمين مثل ذلك...

لقد حمل العثمانيون راية الخلافة وفتحوا تحت لواءها أوروبا وسادوا العالم شرقًا وغربًا، لكن البدايات الطيبة لا تعني دومًا نهايات طيبة... فتحولت الفتوحات الإسلامية إلى حروب ومجازر باسم الإسلام...

بينما البعض يفوض أمره إلى الله معلنًا أن حكم المماليك أهون، فمن نعرفه أفضل بالتأكيد ممن لا نعرفه..

ومع إطلالة العام السادس عشر وخمسمائة بعد الألف... جاءت الأنباء بنية

السلطان سليم العثماني الاستيلاء على حلب والشام... ومصر...

وأصاب الغم والكدر السلطان قنصوة الغوري...

يجلس مهمومًا في قلعته بالمقياس يتقدمه بطنه الضخم... يداعب لحيته السوداء المستديرة في حيرة... يشتت انتباه صلاح الدولة النظر إلى يديه السمينتين المزدانتين بخواتم الياقوت الأحمر والفيروز والزمرد والماس وعين القط...

لقد ظل الرجل يتمرغ في نعيم مصر حتى وقعت الوحشة بينه وبين سليم شاه بن عثمان فراح يهدد الأخير ملكه العظيم...

((فجأة... فجأة... هه... انتبه... تكشر عن أنيابها وتطالبك بالذي أخذته! ما أسكتك كل تلك الأعوام يا ابنة العاهرة هه؟! يتضح أنها... أنها نداهة غاوية... تظهر على حقيقتها فتقلب عليك مائدتها وتغرس في جسدك السكاكين...))

الهرج والفوضى التي يسببها المماليك الجلبان تضعف من مقدرته على اتخاذ القرارات...

تشاغل صلاح الدولة عن حضور صلاة الجمعة ثم عاد مع وفد من أمراء المماليك بعدها، والذين جاؤوا في محاولة لإرضاء السلطان عن مماليكه الجلبان مثيري الشغب. ثار الغوري على غير عادته وقام صائحًا فترجرجت الحوائط بصوته الجهوري

- أنا ما بقيت أعمل سلطانًا... ولوا عليكم من تختاروه غيري!

ساد الوجوم الجميع وقرروا المبيت عنده لتهدئته... خرج صلاح الدولة إلى الساحة المفتوحة ليلًا للقلعة وجلس خلف شجرة جميز هناك يحاول أن يتمالك نفسه من شعور بأن الأرض تميد من تحت قدميه...

هو ليس مصري ومن سبقوه ليسوا كذلك... لكنهم خاضوا الحروب طيلة الثلاثة قرون السابقة وصدوا الأعداء عن تلك الأرض، فلا يحق لأحد أيًا كان أن يستلب أرضهم منهم...

كان يتوق إلى حرب حقيقية يشعر بعدها باستحقاقه لهذه الأرض...

لم يهتم كثيرًا في الصباح حين علم ما فعله المماليك الجلبان من نهب دكاكين الحلوى والخبز وغيرها، بل وأمضوا ليلتهم في خطف عمائم وشداد الناس...

لقد شعر بذعر القوم وخوفهم من بطش أسيادهم... شعور بعث في جسده نشوة سرعان ما انطفأت من توتر أفكاره وكوابيسه اللعينة...

لم تكن تلك هي المرة الأولى ولن تكون الأخيرة... الفوضى هي اسم اللعبة...

في الأيام التالية انهار السلطان الغوري تمامًا فشق ثيابه وأغمي عليه... وحين أفاق ظل يردد

- ما بقى لي حاجة بسلطنة... فارسلوني أي مكان تختارونه وولوا أميرًا كبيرًا...

خلع الرجل نفسه من السلطنة بعدها، لكن الخليفة أعاده مجبرًا مرة أخرى...

وحين تهتز السطوة والجبروت، يهتز قلب صلاح الدولة...

أي قوة ترغم سلطان على الانهيار بهذا الشكل؟ أي مسؤولية تثقل كاهل رجل مات ضميره مع ما مات من ضمائر حكام سابقين عليه؟

سقط في دوامة من مطالبات المماليك بحقوقهم المكسورة عليه وغلو معيشة الناس...

تخبط شهورًا بين إلغاء ضرائب وإرجاعها، بين خلع المناصب على الأمراء وخلعهم منها...

وبين إخماد فتن المماليك الجلبان، وعودة الاكتواء بنيرانها...

وبين القلعة والقصر والضيعة، تنقل صلاح الدولة المهموم، فهجر ليالي زينب السادية فتزايد حقدها على كوريتشينا التي لم ترها، لكنها شعرت بأن قلب أميرها يميل ميلًا إلى ضيعته وزوجته الأولى...

وما بين حمل وإجهاض، أمضت كوريتشينا البائسة لياليها تهمس بصلوات خافتة بنصف وعي، تصنع صلبانًا من أي عصوين متعامدين تجدهما... تركع مستجدية الرب في لحظات وعي متفرقة منها، ثم تسقط فتحملها مسكة المتصعبة المخلصة...

يقضي صلاح الدولة ليلته الأخيرة معها، نائمًا على فخذها... يغني أغنية مهد قديمة...

يتناوب على مخيلته ذكرى أطفاله الست المدفونين جنبًا إلى جنب فوق ثوب عبد الله، حتى الصباح...

* * *

في قيظ شمس يوليو المتوهجة، عرض السلطان الغوري الجيش ولمدة أربعة أيام ثم نادى لهم أن السفر لملاقاة ابن عثمان أول الشهر!

اغتاظ صلاح الدولة من تصرف السلطان المرتبك، فلم تصل الأخبار الأكيدة أن ابن عثمان قد وصل إلى حلب ولا حتى تحرك من بلاده، فلم يكن هناك من داع إلى العجلة وعرض الجيش في أربعة ايام... إذ ربما تصل أخبار ذلك إلى العثماني فيعزون عرض العسكر في أيام قليلة إلى قلة عددهم...

وتبين صحة رأي صلاح الدولة، إذ اضطرب المماليك لدى سماع ذلك،

ارتجت القاهرة ولم يجد المحاربون ما يكفي من خيل وبغال يتحركون عليها، فصاروا يهاجمون الطواحين ويأخذون البغال التي تعمل على إدارة رحاها، فغلقت الطواحين وامتنع الخبز والدقيق عن الأسواق...

وكثر دعاء الناس على السلطان...

اختفى التجار خوفًا من سرقة المماليك لبضاعتهم، وصار القوم يبحث كل عن نجاة نفسه فقط...

وفي يوم السبت الخامس عشر من ربيع الآخر، خرج السلطان الملك الأشرف أبو النصر قنصوة الغوري، قاصدًا البلاد الشامية والحلبية...

خرج الموكب المملوكي الأخير من شارع المعز، عابرًا باب الفتوح في جو كئيب مظلم...

يمتطي صلاح الدولة الأكمل، يسمع همسات الناس في صدورهم من خلف الجدر ودعواتهم الحارة عليهم بألا يعود أحد منهم...

تقلص قلب الأمير الشاب وشرع يدور بعينيه حوله... يمسح الجدران الحجرية ويتشمم هواء الصيف الساخن...

يرى كل شيء حوله ويسمعه كأنها المرة الأولى...

والأخيرة...

* * *

وتوالت ثلاثة أنهار حتى وقف جيش السلطان الغوري في مرج دابق تحت شمس ملتهبة وجو معفر مترب...

في ثيابه البيضاء، راح السلطان يرتب جنوده بنفسه... فكان على ميمنته أمير المؤمنين السلطان العباسي، وحوله أربعون مصحفًا في أكياس حرير صفر

على رؤوس جماعة من الأشراف، وفيهم مصحف بخط الإمام عثمان بن عفان رضي الله عنه...

ومن حولهم جماعة من الفقراء وهم خليفة سيدي أحمد البدوي ومعه أعلام حمر، والسادة الأشراف القادرية ومعهم أعلام خضر... وخليفة سيدي أحمد بن الرفاعي ومعه أعلام الخليفة... والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة بأعلام سود... وخلف السلطان بنحو عشرين ذراعًا، العلم السلطاني متخشبًا بين صاريته والقائم المفرود عليه، لا يتحرك من قلة النسيم...

وكانت ميمنة العسكر تحت قيادة سيباي نائب الشام، والميسرة تحت قيادة خاير بك نائب حلب...

استمرت المناوشات بين الطرفين لعدة أيام، لكن صلاح الدولة كان في أفضل حالاته... الحصان الأبيض غارق في الدماء المسودة الجافة المتسللة من تحت دروعه، يقف بجانبه سيده ليلًا يلعق الدماء من على جسده...

بدت أن الغلبة للمماليك...

لكن في صباح اليوم التالي أمرهم السلطان الغوري ألا يحاربوا، فهُم خاصته... وأن يتركوا المماليك القرانصة كي تحارب...

فوصل الخبر إلى القرانصة فاختفى عزمهم غضبًا...

يومًا بعد يوم يدرك صلاح الدولة قوة الكلمة... فبعد تلك الكلمات وتأثيرها، ارتجت الأرض من تحتهم جميعًا وكادت آذانهم أن تدمى من صوت مدافع العثماني...

كان الجيش العثماني مسلحًا بالمفاجآت... فرغم معرفة المماليك بالمدافع من قبل العثمانيين بأكثر من ستين عامًا، إلا أنهم لم يهتموا بتسليح الجيش بمثل هذه النوعية من المدافع بحجة أن ذلك يتطلب تعديلًا جذريًا في تنظيم الجيش

وأساليبه القتالية، مما يحوله إلى جيش مشاه ويلغي السهم والسيف والخيل والفروسية!

دوت صوت مدافع العثمانيين الخفيفة متعددة الاتجاهات والتي يراها صلاح الدولة للمرة الثانية بعد رؤيا الأفيون الأخيرة لها، وللمرة الثانية هاجت الخيل وقتل سيباي نائب الشام فانهزمت الميمنة...

كان الهول يتساقط عليهم كسفًا، يتحرك الأكمل في قوة مفاديًا راكبه السهام المنهمرة وطلقات المدافع...

يتعالى الغبار فيحجب الرؤى... يطوح صلاح الدولة سيفيه ذات اليمين وذات الشمال يحصد الرؤوس دون تميز...

يرى الموت في ثيابه السود شامخًا يعلو الغبار...

يجز على أسنانه وو يخور كثور هائج... مبارزة غير متكافئة مع الموت... أيهم يحصد أكثر... أيهم ينجو...

تتراجع الميسرة وتنكسر... الخائن خاير بك كان من أول الهاربين...

تنفجر القذائف حوله فتتطاير أشلاء زملائه...

صوت الغوري الجهور يخترق حجب الغبار...

- يا أغوااااات! هذا وقت المروّة! قاتلوا وعليكم رضائي!

فلم يسمع له أحد قولًا وصاروا ينسحبون فارين من الهول...

تتلاقى الأعين للحظات... الذعر متبدٍّ في الوجه الشحيم القاسي للسلطان...

الموت يحوم وترتج بضحكاته أرض المرج...

يذكر السلطان ملجأه الأخير، فيلتفت إلى الفقراء والمشايخ...

- ادعوا إلى الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعاكم!

فلم يجد من يسمع ولا من يجيب...

يفكر صلاح الدولة في جدوى كل هذا... إلههم ليس معهم... المصاحف تتساقط أرضًا من أكياسها وتنهار الرايات الملونة تطؤها حوافر الخيل...

كذا الحروب تبدأ في سبيل الطمع وتنتهي في سبيل الله... تلك هي الحقيقة وليس العكس...

يذكر الناس آلهتهم في النهاية فقط... عندها يجدون الحقيقة المفزعة... لن يستجيب لهم أحد...

((... لأن لا رب لهم...))

أنزل الأمير تمر الزردكاش العلم السلطاني وطواه وتقدم إلى الغوري منحنيًا...

- يا مولانا السلطان... إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا.....

((..... الموت قد أدركنا... العنقاء تقذف اللهيب على الرؤوس وتعلن سلطانها المميت....))

-..... فانج بنفسك واهرب إلى حلب...

يرى صلاح الدولة هلوساته المتجسدة في موت متشح بالسواد تتحرك وتقف على رأس سلطانه الغوري...

يعدو نحوه على جواده فيصيبه سهمان في كتفه وظهره... يمد يده يكسرهما ويستمر في توجهه المستميت...

((... ليس السلطان... الملوك لن يموتوا على يد خائن مثلك... الملوك لا يموتوا أبدًا... أبدًا...))

يضربه رمح يخترق فخذه وقد زال عنه الحذر فيسقط عن جواده أمام جواد السلطان...

يتحامل على نفسه واقفًا شاهرًا سيفه الدمشقي البتار... يزمجر في وجه الموت...

لكن السلطان يتشنج ويرتخي نصف جسده...

يسقط ملوي الشفاه متخشب الجسد... يدرك صلاح الدولة من فوره أنه الفالج... يأتون بماء وسط الهرج في طاسة من ذهب ويرشون وجهه... يحاول الشرب فتتساقط المياه من جانب فمه...

تنهمر السهام من كل صوب يتلقاها صلاح الدولة على درعه...

تختلط الكلمات في عيني السلطان الزائغتين...

((.. الموت... الموت اللعين..................))

فينتفض... ثم يسكن...

- مات السلطان الغوري!!!

ألقى صلاح الدولة درعه في حنق وخلع ملابسه ودروعه التي تقيه فاتحًا صدره للموت...

تناقلت الألسن الخبر من فوره فزحف عسكر بن عثمان على من كان حول السلطان...

أغمد صلاح الدولة سيفه ووقف كالشيطان يخور، يقفز فوق خيول

المعتدين ويسقط الفرسان أرضًا... يمزق حناجرهم بأسنانه ويلقيهم تحت سنابك الخيل...

ظهر الذعر من فعلته في الصفوف فصار الفرسان يقتلون من حوله حتى غلمان السلطان...

يدوسون المصاحف المتناثرة حول السلطان القتيل ويمزقون الأعلام غلًا...

حتى ما بقي إلا صلاح الدولة والدماء تغرقه بالكامل... وخلفه الأكمل المدرع ينفث التراب من منخريه...

تحلق الفرسان حوله والسخرية على وجوههم...

((.. لن يهجم... لا أعلم ما هو.. لكنه لن يهجم...))

يسمع أفكارهم ويشم الخوف... هم لا يعرفون «ما» هو... فقط يعتمدون على كثرتهم...

صاح أحدهم بشيء ما فراحوا يرمونه بالسهام في غير مقتل...

يدورون حوله ويضحكون في عصبية... يتلذذون بنصر غير متكافئ...

ولدهشتهم، يتلقى الأمير المملوكي السهام فلا يتحرك... يغمض عينيه وابتسامة مخيفة على ثغره...

الألم رفيقه المخلص... فأهلًا به...

((.. فلنتركه ونرحل... هيا....))

سمع تلك الفكرة المتوجسة ففتح عينيه على اتساعها...

وضحك ضحكة طويلة انقلبت لها وجوههم...

ثم استل سيفه وراح يبقر بطون الخيل فيسقط الركاب... يتكاثرون حوله ويسقطونه أرضًا...

شريانًا دافقًا مقطوعًا في عنق جواد يرش الرذاذ القاني فوقهم...

يفتح عينيه فيرى الموت بسيفه العملاق...

يرى الفارس العثماني شاهرًا سيفه...

يرى تضافر الطغراء تسود السماء من فوقه...

((... أنا الموت... لن أموت.....))

يهوى سيف عثماني على رقبته، فتتدحرج وتلتف بالشعر الأسود الطويل المخلوط بالدماء... وتسكن أخيرًا جوار السلطان القتيل...

* * *

يرى جسده مفصول الرأس على مرمى بصره من بين خصلات شعره السوداء الملتفة على وجهه... نسران ضخمان ينهشان شيئًا من رقبته...

تركيزه مختل تمامًا لا يدري أهو ميت أم على قيد الحياة...

لا يتنفس... لا يستطيع أن يغمض عينيه أو يحركهما... لا يشم شيئًا مما حوله... فقط يرى جسده المسجي وأصابع الغوري الممدد خلفه والمزدانة بالخواتم...

الساحة خالية بينما يعبث الهواء بأوراق المصاحف الساقطة من حوله...

لحظات وكف كل شيء عن الحركة...

تجمدت رفرفات الأوراق المقدسة وتجمدت قطرات الدماء المتساقطة من فم الطائر في الهواء...

كل شيء ثبت في وضعه... إلا الغبار المتعالي في الأفق...

((.. سيأتي الموت شامتًا.....))

الآن فقط يسمع أصوات حدوات حصان واحد قادم من الشمال...

يرى ثلوج كالألماس تندفع من تحت حوافره إذ يقترب بحمله العجيب...

سيدة الجبل بشعرها الفضي يطير خلفها فيبدو بلا حدود...

((... سأسمعك وإن همست...

... عُد لي وطالِب بمُلكك...))

يقف الحصان ويزفر من أنفه... يصهل فتبدى أسنانه المدببه العجيبة...

يصهل فيدور حوله الأكمل في فضول، دون خوف...

يدور حديث لا يحتاج إلى ألسنة ولا صوت...

((... ماذا حدث؟ أهذا هو الموت؟ ...))

((.. هو موت... لكنه ليس الموت...))

((.. كفاك تلاعبًا بالأحرف والكلمات....))

((.. في مستقبل بعيد... سيكون هناك أنواع من الموت... وكلها ليست الموت بذاته المظلمة الأبدية..))

((.. ما أنت؟....))

((... كنت هنا منذ زمن بعيد... وسأظل هنا لفترة لا أعلمها... كيان قديم أنا... قديم جدًا...))

تدور حول جسده ورأسه، تختفي عن ناظريه خلفه ثم تعود وتظهر...

ازداد سرعة جوادها فيحفر من تحته دائرة من أبخرة الثلج الكثيفة تضم رأسه والجسدين المنطرحين أرضًا...

((... قيامًا ستقوم... لكنك لن تبعث حيًّا.. ستحيا كما لم يحي من قبلك بشريًا...

لن تكون كالبشر...

ولن تنتهي حياتك مثلهم..))

للحظات شعر بالأبخرة المثلجة الحارقة تزحف إلى جسده فتحيطه لكنه لا يتجمد... تتقدم الأبخرة من رأسه... يشعر بالبرودة الحارقة... ترتفع رأسه في الهواء محمولة على أسياخ من جليد يشق الأرض، وكذا يرتفع جسده...

وخارج دائرة الأبخرة يصهل الأكمل ويحاول العبور فلا يقدر... يضرب بحافريه الموجودات المتجمدة من حوله في يأس...

الاحتراق البارد العجيب يشعل لذة خفية في عقل الأمير... يشعر كأنما قد روي من لظى آرارت المتجمد!

((.. لن ترويك إلا الدماء... ولن يشبعك إلا اللحم... ولن يسعدك سوى أنين البشر..))

صوت سيدة الجبل يتردد في عقله المنتشي...

رأسه تلتحم في جسده فتفور الدماء من موضع الالتقاء...

((.. سيكون هناك طوفان ثانٍ من زخرف الأحرف وطغرائها... ولن ينجو أحد...

لن يفرق بين مؤمن وكافر.. سيغرق الجميع...

فكن أنت الطوفان!!...))

ارتفعت حوافر الثلج إلى عنان السماء لثوان... ثم سقط جسده الملتحم برأسه على الأرض فجأة وخبت الأبخرة فابتلعت الأرض جوانبها...

((.. سينمو جسدك من أجساد الأحياء وألمهم... لكن لا أحياء هنا سوى حصانك...

التهمه!..))

((..لا ... ليس الأكمل.....))

((سينمو جسدك من أجساد الأحياء... ولا أحياء هنا... إلا ابن الغوري!))

((.. لقد سقط من فوق حصانه ميتًا...))

((.. لم يمت بعد... هناك عده أنواع من الموت... وليس كلهم بموت... وعيه قد توقف لكن مخه لازال يأمر قلبه بالنبض...))

يحرك صلاح الدولة أصابعه... تتحرك قدماه في وهن شديد... شعور مريع بالخواء يجتاحه...

يزحف على ركبتيه مجتازًا المسافة الصغيرة بينه وبين الغوري...

ينظر خلفه إلى سيدة الجبل فلا يجدها... فقط الأكمل يقترب في حذر متشممًا جسده المغطى بالدماء...

يقطع ملابس السلطان عنه... ويغرس أسنانه في صدره...

* * *

عند وصول كتاب الأمير علان الدوادار الثاني، بما وقع في معركة مرج دابق، قام العزاء والصراخ في كل الأنحاء يبكون سلطانهم الفقيد والشهداء من الأمراء والعسكر...

يبكون من شعور بالذنب يوخز جوانبهم من دعاءهم على الجيش في خروجه...

عاد شهاب الدين وقسورة متقرحي الأفخاذ يركبون على بغلة منهكة، عاريين إلا من عباءات قديمة مزرية...

بعد تفرق الجيش هربا مع من هرب من الأمراء والمماليك إلى حلب، فقام عليهم أهل حلب فقتلوا جماعة منهم ونهبوا سلاحهم ومالهم... فقد أطال المماليك السلطانية في وقت سابق السلب والنهب في أهل حلب واستباحوا نساءهم، فجاءت هزيمتهم فرصة للثأر منهم...

فر من بقي منهم من حلب إلى دمشق وظلوا هناك فترة وجيزة حتى يستجمعوا شتاتهم...

يتحسس قسورة صدره كعادته فلا يجد قلادته الذهبية... يشرد مرة أخرى وهو يذكر موت السلطان الغوري... جاءه شهاب الدين بعدها لاهثًا ينعي إليه موت صديقهم صلاح الدولة وقطع رأسه...

شعور غريب بأن ذلك كله حلم...

شعور العبد بعد موت سيده القاسي... مرارة غريبة لم يتوقعاها وقد انكسر قيدهما أخيرًا ولم يعد لهم ارتباط بذلك المملوك العجيب...

وفي الضيعة وقفت كوريتشينا تلقي الطعام من النافذة للكلاب، محبوسة خلف أسوار من شرود وجنون... تحيا عالمها الخاص في أرمينيا مع زوجها الحبيب... تتخيل أنها لازالت تطعم الدجاجات في انتظار عودة مكريدج...

تشم رائحة الخراف والمراعي الخضراء في ابتهالاتها إلى الرب...

لم تكن تعي ما حولها إلا وهي راكعة على ركبتيها تصلي وتمسك بصلبانها الصغيرة يدوية الصنع...

تمصمص مسكة شفتيها وتعتصر قلبها قلة الحيلة...

تقف خلفها وهي تطعم الكلاب... لطالما أحبت الكلاب ولطالما أنفقت بسماتها القليلة في وجودهم...

ترى سيدها شهاب الدين يترجل من فوق جواده في الحديقة...

وصلتهم أخبار الجيش المنهزم، ووصلهم خبر موت السلطان واختفاء جثته كأنها لم يكن...

لكن سيدها صلاح الدولة لم يأت... ولم يصلهم عنه أخبار...

تمنت في قلبها ألا يعود...

((... جناب الأمير طيب... بس تلاقيه......))

لم تجد له مبررًا لما يفعله، بل لم تجد في عقلها فهمًا لكينونة ما يفعله من الأساس!

يطلب مقابلة كوريتشينا...

يدخل منكسًا رأسه... يتحدث الأرمينية بلهجة غريبة لكنها مفهومة على الأقل بالنسبة لما أراد أن يقوله...

- سيدتي... لك عزائي الخالص... لقد استشهد أخونا صلاح الدولة في دفاعه عن الأرض والسلطان...

خرجت كوريتشينا من جمودها واتسعت عيناها... اعتصرت الصليب الخشبي في يدها حتى أدمتها...

تنقل مسكة بصرها بين سيدتها وشهاب الدين في جزع... نظراتها لا تحتاج إلى مترجم...

- مات؟! صلاح الدولة... مات؟!!
- لك عزائي يا سيدتي...
- كنت... كنت أظنه لا يموت!!!

ابتلع شهاب الدين ريقه، همس بكلمات لم تغادر شفتيه...

((... كلنا ظننا ذلك.......))

انحنى لها وقرر الانصراف قبل أن تقول شيئًا آخر... لابد وأن قسورة قد أخبر السيدة زينب الآن...

ما أن انغلق الباب خلف المملوك حتى هوت كوريتشينا على ركبتيها... تبكي وتضحك...

تقبل الصليب في يدها فتحمر شفتاها من دماء كفها المجروحة...

ولم تستطع مسكة أن تحتمل الخبر، فتربعت أرضًا وشقت جيبها في صمت اهتزت له جنبات الضيعة... صرخة مكتومة بدت منها وهي بعد لا تدري بمدى الحزن المكبوت فيها...

لم تكره مسكة أحد قط، لكنها فقط تخاف... كعادة المصريين، امتزج الكره بالضمير فتولد الخوف بدلًا من الكراهية... ونمت له أطراف من خضوع وخنوع وكبت...

دقائق مرت على المرأتين كل تنعي بلغتها، ثم انكفأت كوريتشينا على وجهها تفرغ معدتها...

نظرت كوريتشينا لمسكة فبادلتها مسكة النظرات الوجلة...

أترى طفل صلاح الدولة السابع والأخير ينمو في أحشائها الآن؟!!

* * *

بكت زينب في صمت حتى زالت شمس ذلك اليوم...

تأملت التجاعيد الدقيقة الزاحفة على كفيها... تحللت من ملابسها وتفحصت جسدها في انعكاس الماء في حوض الاستحمام...

لقد ولى الشباب ولن يعود...

تقترب حثيثًا من الخمسين وقد قرب نفوذها أن يزول... مات صلاح الدولة الشاب الفتي وفقدت معه آخر حيلها في التشبث بالحياة...

لطالما كرهت المماليك... كرهتهم وتمرغت في نعيمهم تمعنًا في عذاب نفسها... تهب جسدها سرًا لأي مملوك شاب، يجلدها بالمتعة ويهين روحها باللذات المحرمة...

امرأة منحت جسدها للذة العذاب...

أبقت جسدها بعيدًا عن الحمل والإنجاب لتعزز سيطرة جمالها على الأمير علاء الدين... تمتلئ نفسها زهوًا بعد كل لقاء معه... يركع أمام بهائها كعبد ذليل...

لكنها لازالت تكره المماليك، وتكره حبها المخادع لصلاح الدولة...

تعلم أنه لم يحبها قط، رغم ما منحته... في نومه يهمس باسم اللعينة الأرمينية...

نغصت بوجودها الخضوع الذي تمنته في صلاح الدولة وقلبت عليها المنضدة... صارت هي العبدة تحت سيد لا يبالي ولا يرحم...

أمضت ليلتها في كنف الذب الجائع الهائج... تضحك في جنون وتنتشي... فتبكي وتلطم الخدود...

وفي الصباح تبدو شديدة القوة والتماسك...

لقد قرب دخول ابن عثمان مصر، ولهذا فلتعد عدتها...

* * *

وفي خلال الشهرين الذين أعقبا الهزيمة الشنعاء وما حل بمن في مصر، كان صلاح الدولة يستكشف حياته الجديدة العجيبة...

فتح عينيه على السماء الزرقاء فوقه والطيور الجارحة تدور في حلقات...

يسمع حفيف أجنحتها... يشم رائحة الموت المتناثر من حوله...

يقوم وفي عقله ذكرى حلم غريب عن سيدة الجبل... عن موته وبعثه من الموت...

ينظر حوله فيجد أمتعة الجيش والسروج والخوذ والسلاح متناثرة كما هي... لم يعد أي من الفريقين لنهبها...

يتحسس نتوءًا حول رقبته فتلفت نظره الخواتم الخمس للسلطان الغوري تطوق أصابعه...

ينظر إلى موضع سقوط السلطان بجانب حصانه، فلا يجده... فقط ملابسه متناثرة تذروها الريح في كل صوب...

((... سينمو جسدك من أجساد الأحياء... ولا أحياء هنا.. إلا ابن الغوري!))

يهز رأسه غير مصدق... يهرع إلى أقرب سيف، يمسحه في قطعة قماش ملقاة وينظر في انعكاس وجهه عليه...

رقبته يطوقها جرح اسودت أطرافه...

يرفع السيف إلى حيث يمكنه رؤية وجهه... شعره ملتصق بالدماء تهوى منه خصلة تغطي عينه اليسرى...

أزاح الخصلة بيد مرتعشه... لقد انمحت الألوان كلها من عينيه فصارتا بيضاوين من غير سوء!

ألقى السيف وراح يدور حول نفسه... يدوس في الأجساد الممزقة المتعفنة في جو حار مترب خانق...

يأخذ سيفه الدمشقي الملقى جواره ثم ينظر حوله فيرى الأكمل...

يقترب منه في حذر... يمد يده ويمسح شعره الأبيض الغارق في الدماء...

يصهل الجواد ينزل على ركبتيه الأماميتين في وضع غريب ويحني رأسه...

((... إنه يسجد لي...))

يقوم الجواد فيركبه صلاح الدولة دون سرج... يختطف بطرف سيفه رداء ملقى ويرتديه...

يدور بلا هدف حول موضع المعركة وتدور في عقله الأفكار...

ماذا حدث... أكان هذا حلم أم حقيقة؟

كيف سيعود بصورته تلك؟ لم لا يحتاج للتنفس؟! لم لا يستشعر نبضًا في قلبه؟!

وأخيرا ولى وجهه إلى جبل قريب يعرفه جيدًا...

* * *

وفي القاهرة شاعت الفوضى وطاف العربان يسرقون وينهبون بلا رادع...

فخرج الأمير الدوادار طومان باي في خمسمائة مملوك وأغار عليهم فهربوا بما سرقوه...

وتضاعف نفوذ الزيني بركات بن موسى وتضاعفت حرمته وتنافذت

كلمته فوق ما كان أيام السلطان الغوري... ورغم إعلان الأمان في البلاد، إلا أن الفوضى والمصالح ضربت أطنابها، فأفرج الأمير طومان باي عن المساجين ومن ضمنهم زمرة من ذوي النفوذ في السابق وكبار اللصوص والمفسدين...

على جانب آخر تحول ولاء العديد من أمراء المماليك إلى السلطان العثماني، ولم يتذكروا شيئًا من إحسان الغوري إليهم ولا انتمائهم من قبل إلى مصر...

وانشغل المصريون في أهوال أيامهم فلم يعد هناك أمل من أن يكف الدهور ولا أن يعود الماضي المستكين...

بدأت مصر في الترنح فكثرت السكاكين من حولها، كل يحاول أن يغترف قدر استطاعته قبل أن يتحول ولاؤه دون تفكير لمن يحكم...

وصارت كلمة السلطان قايتباي الشهيرة «الحكم لمن غلب» هي شعار لوأد الضمائر لمن لا يزال يملك الضمير...

* * *

استيقظ إشعيا الذي لم تكد عيناه تغمض على طرقات ملتاعة على بابه الخشبي...

لقد قارب المائة عام وصار النوم شحيحًا لا يزيد عن سويعات قليلة قبيل الفجر...

قام من رقدته وتوجه إلى الباب وهو يصيح بصوت مهتز ممطوط...

ـ شو... لشو عم تخبط هيك... راح ينخلع الباب...!

فتح الباب وتدريجيًا انبسطت عضلات وجهه في تعبير لم تصفه لغة من قبل...

تبخرت الكلمات من فوق لسانه للحظات وهو ينظر إلى تقاسيم وجه

صلاح الدولة وملبسه... توقف عن عينيه اللامعتين في الظلام وهمس...

- يونيل!!!

تفكر صلاح الدولة حينًا، بأي لغة سيحدثه؟ الأرمينية؟ التركية؟ الفصحى؟ المصرية؟!!

كانت راحته الأولى في الأرمينية لكن الرجل لا يجيدها ففضل استخدام اللهجة الأقرب للفصحى التي كان يستخدمها معه في الماضي...

((... لغة عبدالله.......))

- تذكرتني؟ رغم ما تغير من هيئتي؟

- ما أظن راح أنسى ها الوجه...

- ألن تدعوني للدخول؟

للحظة ظن صلاح الدولة أن الرجل سيرفض... كان الذعر يملأ قسماته العجوز المغضنة خصيصًا من منظر عينيه البيضاوين...

- شو اللي حصل؟

- تلك أجابة أريد أن أعرفها منك...

ومع بزوغ الشمس، هرب الدم من وجه أشعيا تمامًا وظل ينظر إلى وجه صلاح الدولة دون حراك...

قام في بطء ومد يده نحو رقبة صلاح الدولة... تحسس الجرح الناتئ المحروق... لا يبدو كدليل منطقي لرواية الشاب...

أحضر ساعته التي تشبه البوق وطفق يسمع صدره...

وسقطت السماعة من يده على الأرض الترابية...

بيد مرتعشة أمسكها ولف من خلف المملوك، هم أن يضع السماعة على ظهره لكنه توقف وظل يحملق في ظهره...

لقد تغير الوشم...

ضيق العجوز عينيه وتحسس الوشم مرة أخرى...

- ماذا حدث؟

- لقد تغير وشمك...

- ... كيف؟ ما شكله؟

- لساته الجبل مقلوب، لكن الحروف الأرمينية تحولت لعربية بخط الطغراء العثماني... وشمك بيشبه العنقاء يا يونيل...

أحضر العجوز صحنًا نحاسيًا لامعًا ووضعه خلف ظهر الشاب فنظر الأخير من فوق كتفه إلى الكتابات المعكوسة...

الجبل المقلوب يعلوه كلمات مزخرفة تعطي إيحاءً بشكل طائر... عنقاء..

- إشعيا... لا أفهم شيئًا... أرجوك فسر لي ما حدث...

- ومن وين لي هالعلم...

- كل تلك الكتب وتزعم أن لا علم لك؟ أنت تعرف سيدة الجبل وتعرف ماذا تريد... تعرف معنى وشمي... لا تتخابث!

ابتعد العجوز متحاشيًا النظر إلى الشاب الغاضب... أخذ يجمع شعره الأبيض المفكوك خلف رأسه برباط مصفر قديم...

- ع شو راح جاوب؟ ما في أسئلة...

- لا... يوجد مئات الأسئلة ولن أتركك حتى تخبرني..

وجد إشعيا صلاح الدولة خلفه في لحظات وهو يضغط على كتفيه، تأوه النطاسي العجوز

وحاول التملص من قبضته...

- أتركني... راح تكسر عظامي!
- أجب إذًا... من البداية... من هي سيدة الجبل؟
- هي... هي كيان قديم...
- وما ذلك الكيان؟

ابتعد العجوز عن صلاح وراح يعبث بلا هدف في كتبه المتراصة حتى سماء الغرفة...

- مذكور في التلمود إنهم نتاج تزاوج أهل الأرض مع بنات الله... الملائكة...
- تخاريف! لا أؤمن بإلهك ولا بكتبك الي تزعم سماويتها... ما تلك الكيانات؟
- إن كنت تنكر إلهي وكتبي... فشو بتريد مني؟

قبض صلاح الدولة على فك إشعيا وزمجر كحيوان جريح...

- أريد الحقيقة... كتبكم زائفة كاذبة... آلهتكم ـ إن وجدت ـ تتعمد إخفاء الحقيقة عنكم لأن عقلكم قاصر غبي... أما أنا فلن أنخدع...
- يوئيل... أنت بتكذب على حالك وبتصدق ما تريد إنك تصدقه...

في كتاب إينوخ، ها الكيانات انذكرت وما لوجودها تفسير... هيك كانت من قبل ما نجي هون... وراح تضل هون لحد ماتموت في يوم!

- أنتم ستموتون... أنا لن أموت... وماذا تريد تلك الكيانات مني؟ ولِمَ أنا؟

جلس إشعيا أرضًا وقد ضاق بأسئلة صلاح الدولة وضاق بكفره...

- وأنا شو اللي عرفني! راح أحكيلك عن الرب وعن إرادته وراح ترفض إنت... شو راح تستفيد من حكيي؟!!!

مسح صلاح الدولة وجهه وأرجع شعره المتسخ للخلف... جلس على المقعد القصير مستلًا سيفه وراح يرسم حروفًا ودوائر بطرفه على الأرض...

- تكلم... ولن أقاطعك...

راحت الرمال تتناقص من أعلى إلى أسفل في بنكام الرمل، فينسلخ الليل عن بدن النهار... وما زال إشعيا يحكي...

حكى له عن كيانات قديمة اختلفت الأقاويل عن كينونتها... لكنها كائنات أقرب للبشر، لها أعمار طويلة تبدو للبشر وكأنها كائنات خالدة...

تلك الكائنات لها مهام خاصة وحيوات متشابكة مع حيواتنا... هي تروس كبار لعجلة الحياة...

لتلك الكائنات علم لا محدود يسبقنا بمئات القرون... لقد انتهت حضارات البشر وبدأت من جديد لأكثر من مرة... وفي كل مرة يبدأون علمهم الذي اندثر من الصفر... لذا لتلك الكيانات علم قديم لم تصل البشرية لربعه...

ترى تلك الكيانات مواهب البشر الخاصة والنادرة، وتنتقي منهم من يحتمل التعامل المباشر معهم، ويوكلون له مهام يساعدونه فيها...

- أهم آلهة؟

- اعتبرتهم حضارات قديمة آلهة... لكن ما في إله سوى يهوه...

بدء الامتعاض على وجه صلاح الدولة، لكنه آثر الصمت وراح يسمع...

حكى له إشعيا عن اليمني عبد الله الحضرموتي... الذي اختارته الكيانات القديمة لمهمة... لكن ضعفه البشري لم يحتمل ما رآه ومات ممزقًا في الصحراء...

يرى أشعيا أن تلك الكيانات تستفيد من تحركاتنا كبشر... تتغذى على طاقات منبعثة من الموت والحروب... من المرض والخوف...

- كل ها التفسيرات من علم الكلام... مجرد تفسيرات لنحاول فهم مثل هيك إشيا...

- علم الكلام... قالت لي أن هناك طوفان قادم من كلمات... كيف تعرف المستقبل؟

ضحك إشعيا ثم صمت قليلًا...

- يوئيل... راح يقع هيدا الكتاب الأسود بعد شوي...

تلفت صلاح الدولة حوله منتظرًا سقوط الكتاب المذكور، لكن رد إشعيا جذب انتباهه مرة أخرى...

- الطوفان الأول كان في عصر النبي نوح... أهلك الكفار ونجا يالي آمنوا بنوح...

الطوفان الجاي ماراح يكون ماي... راح يغرق الخلق بالحكي والكلام...

- كيف؟

- راح خبرك... احضرلي ها الكتاب السميك...

وأشار بيده لكومه كتب ترسخ فوق الكتاب الأسود... جذب صلاح

الكتاب برفق إلا أن الكومة اختلت وسقطت أرضًا... وأمام قدمي صلاح الدولة سقط الكتاب الأسود مفتوحًا...

ضحك إشعيا ضحكة مختلة ممزوجة بقلة النوم وغرابة الموقف... اعتدل في جلسته مضيفًا...

- ماقلتلك راح يقع؟ أنا هيك بعرف الغيب؟ لا... هيك بالضبط ما يفعله الكائنات القديمة... بيوجهوك لتعمل كل اللي خبروك إنك راح تعمله... هيدا منو غيب...

صمت صلاح الدولة ثم انحنى يجمع الكتب فلم يمنعه إشعيا كما منعه من قبل... ظل مثبتًا نظره عليه يرمق وشم ظهره العجيب. يتحدث فيشعر أن صوته يأتي من مكان بعيد... يشعر كون كل هذا كابوس من عقل هرم...

- ـ الغيب تلات أنواع يا يوئيل... نوع ما يعلمه إلا الرب... الموت والرزق ومثل هيك إشيا بيده وحده... ونوع يعلمه خلق ويجهله خلق... شو اللي بيحصل بمصر ها الحين؟ ما حدا يعرف إلا يالي بيكونوا بمصر... هيدا منو غيب عليهم لكنه غيب علينا...

التفت صلاح الدولة له بعينيه البيضاوين وهو ينفض كفيه من التراب رغم اتساخهما في الأصل..

- ـ والغيب الثالث منو غيب... إني قولك راح يحصل كذا وكذا... وأوجه حياتك ليحصل ها الشي...

- تعني أن لا أحد يعرف الغيب الحقيقي؟

- إلا الرب... نعم...

يثور صلاح الدولة عن ذكر تفوق الرب... يغضب عند عجزه عن الوصول للكلية الإلهية الغامضة...

لكن يهدأ حين يذكر أنه على خطى ثابتة نحو الخلود والألوهية... اليوم هو لن يموت... اليوم يختار من يحيا ومن يموت...

وغد يتحكم... يخلق... ويسود...

لقد زرع إشعيا بذور فاسدة مفسدة في نفس الصبي حين أتاه أول مرة... فتح له بابًا من الفهم المغلوط واتباع الهوى...

لن ينس صلاح الدولة يومًا طبقات شجرة الحياة العشر...

لم ينس حلم السيادة...

لم ينس أرض ميعاده ولم ينس يوئيل بن صفنيا الخزري الغامض... ربما فعلًا قد حلت روح يوئيل اليهودي في جسده... ربما هو الآن سيد بلا روح...

- ما أنا الآن؟ ميت... أم حي؟

- ما بعرف يا يوئيل... ما شفت هيك بحياتي... ما بعرف... لكن بتذكرني بالعنقاء باللي بتحترق كل ليلة وتموت وبترجع تحيا من رمادها من جديد...

- العنقاء كائن غير حقيقي...

- العنقاء رمز... يمكن انت كمان بتصير رمز!

- رمز؟

- رمز... الفلسفة هي تفسير كل اللي ما إله تفسير... ما اتذكرت حالة تشبه حالتك في العلم...

- إذن هو سحر؟

- السحر هو علم غامض ما بنعرف عنه كتير ها الحين... واللي كانو

زمان يعتبروه سحر، صار هلأ علم وإله تفسير!

خرج صلاح الدولة من البيت الصغير يغتسل بضياء الشمس من إثم أفكاره... يرنو إلى الحدود البعيدة والجبال... يذكر رحلته إلى الأرض المقدسة فلسطين... يذكر أصوات الحجاج وتراتيم الكنائس...

يكاد يسمع الآذان يرفع من المسجد ذهبي القبة...

أصوات صلوات البشر تقترب حثيثًا من سمعه... يشعر كأنها زجاج مفتت يسري في عروقه مسرى الدم...

يهرول داخلًا ويجلس أرضًا في ركن مظلم... يحتضن ركبتيه كجنين في رحم الظلمات...

يرى إشعيا ويختلس البسمات الصفراء سرًّا...

يعلم ما يحدث رغم عدم إلمامه بكيفيته... يرى إرادة سيدة الجبل ومخططها يتجلى أمام عينيه... يعلم أنها قد أعدت الشاب لطوفان جديد لا يعلم عنه شيئًا...

تسابقت الأيام فوق جبل الطور وسقطت عند سفحه متكومة في خمسة أشهر مظلمة، تجمع فيها ضباب أسود كثيف حول بيت إشعيا النطاسي...

تتكوم قشور العقارب أمام الأعتاب ويعلو حفيف أوراق الكتب بلا توقف...

يدور كائن عضلي شاحب عار بين حوائط البيت المكسوة بالكتب العتيقة... تدور الأحرف في وشمه وتتغير في كل ثانية مع كل كلمة يقرؤها...

يخفت الصوت البشري في حنجرته من قلة كلامه، فيطغى خوار حيواني على كلماته المتناثرة...

تنمو قشور كهيأكل العقارب على وجه المسخ الثائر وأطرافه... تصفر أسنانه ويدور سم العقارب في جسده غير الحي، مغذيًا قلبه الساكن العطش...

ويذوي إشعيا وتغور عيناه ذعرًا...

حضور سوداوي كثيف يخيم على بيته، يجثم على نفسه فيشعره بيأس رهيب... لا يقوى على حجب كتبه عن المسخ المتعطش للكلمات...

تهبط روحه إلى أعماقه وتتضاءل في هلع... مازالت عيناه الغائرتين تدوران متتبعة الهول القابع تحت سقفه...

يرتجف ويتمتم بشفتين راجفتين

- لِتَكُونَ عَيْنَاكَ مَفْتُوحَتَيْنِ عَلَى هذَا الْبَيْتِ لَيْلاً وَنَهَارًا، عَلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قُلْتَ: إِنَّ اسْمِي يَكُونُ فِيهِ، لِتَسْمَعَ الصَّلاَةَ الَّتِي يُصَلِّيهَا عَبْدُكَ فِي هذَا الْمَوْضِعِ...

يتعالى زئير الوحش في الظلمات لدى سماع ابتهالات اليهودي لربه، فيصمت الأخير ويزداد تكوره حول نفسه...

يخشى اقتراب ذلك الذي كان بشريًا منه لإطعامه قسرًا... تسري قشعريرة في جسده عندما يدرك الغرض الذي يطعمه لأجله...

يرقب الوحش تناقص الأطعمة في البيت ثم ينظر إلى أكوام الكتب التي لم يقرؤها بعد، فيزيد من سرعة قراءته... ويزداد الظلام حول البيت...

أرسل من كان صلاح الدولة في طلب إشعيا أكثر من مرة خلال الأعوام السابقة لكنه كان يتعلل بأسباب زائفة كي لا يغادر جبله... لم يكن يعرف اسمه الجديد كمملوك... وما كان ليتحرك إن عرف... توجب عليه من البداية الابتعاد عن مسار حياة ذلك الشخص بالذات...

وعند انتهاء آخر صفحة من آخر كتاب... قام المسخ في منتصف البيت فاردًا جسده القشري... تنشق الهواء الذي لا يحتاجه فدخل في جسده الضباب الأسود كاملًا...

التفت إلى إشعيا العجوز المتداعي وابتسم...

* * *

«من مقامنا السعيد إلى الأمير طومان، أما بعد...

فإن الله تعالى أوحى إلي بأن أملك الأرض والبلاد من المشرق إلى المغرب كما ملكها الإسكندر ذو القرنين...»

«إنك مملوك مبتاع مشترى، ولا تصح لك ولاية. وأنا ملك ابن ملك إلى عشرين جد وقد توليت الملك بعهد من الخليفة ومن قضاة الشرع»

«وإني أخذت المملكة بالسيف بحكم الوفاة عن السلطان الغوري فاحمل لي خراج مصر في كل سنة كما كان يحمل لخلفاء بغداد»

«أنا خليفة الله في أرضه وأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين»

«إن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا، فاضرب السكة باسمنا وكذلك الخطبة، وتكون نائبًا عنا بمصر، ولك من غزة إلى مصر ولنا من الشام إلى الفرات. وإن لم تدخل تحت طاعتنا وإلا أدخل إلى مصر وأقتل جميع من بها من الأتراك حتى أشق بطون الحوامل وأقتل الجنين الذي في بطنها من الأتراك. وأظهر التعاظم وقوة البأس»

«وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا»

من رسالة سليم العثماني إلى طومان باي

* * *

خمس انكسارات متوالية لجيش المماليك أمام جيش ابن عثمان...

يجتاح المد العثماني أرض مصر فيكتسح أمامه المصريين، يفرون من مسلكه إلى قلب القاهرة محتمين بأسوارها المعلقة منها رؤوس عسكر العثمانيين المقطوعة والتي أحضرها عربان السوالمة بين يدي طومان باي... وبعضها قد قطعها السلطان ومماليكه بأنفسهم...

تبث الرؤوس المتعفنة الهول في أنفس المصريين... وتبث الأمان الكاذب...

مازلنا قادرين على صدهم... مازالت كلمتنا هي العليا...

تناقص العسكر من حول طومان باي، ما بين قتلى وهاربين... وخونة...

ومع كل مواجهة ينكشف ظهره أكثر فأكثر وتلوح النهاية أمام ناظريه... نهاية مصر المملوكية قبل نهايته هو...

يدخل ابن عثمان القاهرة في مستهل سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجريًا. نصب معسكره في الريدانية. بينما طاف جنوده يقبضون على من يجدونه من المماليك الجراكسة ويقطعون رقابهم معلقين رؤوسهم في معسكر السلطان.

تكدست الشوارع بجثث متعفنة بلا رؤوس وقد ساوى الموت بين أمير ومملوك وخادم...

تخندق المصريون في بيوتهم وخلعوا الأبواب الكبيرة مستبدلين إياها بأبواب شديدة الصغر كي لا تسمح بمرور أعداد من العسكر العثمانيين أثناء حملاتهم لصيد المماليك وشاع في الناس أن من يوالس على مملوك في بيته ولا يسلمه، يقتل وتعلق رأسه على باب داره...

تنكر أولاد المماليك في زي العامة خوفًا من بطش العثمانيين...

ويشق موكب السلطان العثماني الشوارع فوق أجساد المماليك... فترتفع له أصوات المصريين قاطبة بالدعاء!

ينادى كل يوم بالأمان والاطمئنان، والنهب والقتل دائرة رحاه من جماعته لا يسمعون له...

لكنه كسائر من حكم هذه الأرض، يعلم طبائع ساكنيها... مجبولون هم على الخوف والخنوع... فلا يسأل الجلاد، ويسألون هم عن ركوعهم لسيفه...

صار العثمانية يمسكون أولاد المماليك في الطرقات ويطلبون منهم الفديات الباهظة مقابل الأمان...

وصار العياق والأغنياء يدلون العثمانيين على ممتلكات المماليك وكنوزهم وحريمهم، وكان ممن افتدت نفسها السيدة زينب...

أجزلت العطاء لهم وجعلت على باب قصرها من العثمانيين يحفظونها من النهب والسرقة، لكنها لشيء في نفسها، قررت أن تدلي لهم بمعلومات لم يطلبوها...

ثأر شخصي انقضى ولم يعد له من مطالب سوى الشر والغيرة القابعتين في نفسها...

* * *

«ثم أن طائفة من العثمانية توجهوا من على مصر العتيقة وطلعوا من على القرافة الكبيرة وملكوا من باب القرافة إلى مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها، فدخلوا إلى ضريحها وداسوا قبرها وأخذوا قناديلها الفضة والشمع وبُسُط الزاوية......»

* * *

تجلس كوريتشينا وبطنها منتفخ أمامها تأكل في شرود وقد تحسنت صحتها البدنية، لكنها لازالت تعيش في أحلامها...

الضيعة بعيدة عن الأحداث الجارية في القاهرة لكن وصلت أنباء تطايرت إلى سمع مسكة بزحف السارقين إلى ممتلكات المماليك في أطراف البلاد...

فقررت مسكة الباسلة أن تأخذ سيدتها إلى بلدتها الصغيرة في النوبة...

لا تعرف تحديدًا مكانها فهي لم تزرها قط وقد ولدت هي وأبوها في القاهرة وكانوا خدامًا عند المماليك من عشرات السنين... لكنها تعرف اسم البلدة الصغيرة ومن يسأل لا يضل أبدًا...

أرسلت على استحياء إلى سيدها شهاب الدين تطلب حضوره لشرح الموقف لسيدتها ومساعدتها على الانتقال... لكن المرسال عاد بخفي حنين... لقد تم سلب ونهب بيت المملوك ولا يعرف أحد عنه وأهله شيئًا...

صارت تصلي وتلهج بالدعاء ليلًا نهارًا تدعو المولى عز وجل أن يحميهم عن الضيعة فيكتفون بما سلبوه في القاهرة...

أخذت سيدتها لتتمشى بها كما اعتادتا في حديقة البيت... ترتدي كوريتشينا غطاءً بلون سماوي من الحرير على رأسها وتتوكأ في وهن على خادمتها... يلتف الذراع الأبيض على مثيله الأسمر اللامع في تآخٍ بلا كلمة واحدة...

عندما تتعب كوريتشينا من المشي فإنها تربت على كفّ مسكة، فتتركها الأخيرة وحدها، شاردة، تطعم الكلاب خارج السور والحمائم المطوقة...

جلست مسكة ترمق سيدتها من فوق سطح المنزل ثم كشفت إناء العجين الفخاري الضخم عن عجينها المختمر فتربعت تقطع العجين في غرفة الخبز العلوية.

دقائق مرت حتى سمعت صخبًا من أسفل فبسملت ومسحت العجين في صدر ثوبها ونظرت...

كان خمسة من العثمانيين يحملون سيوفًا وبنادق قد اقتلعوا رؤوس حارسي البوابة وبقروا بطون ثلاثة من الخصيان فاختلطت الدماء على الممر الحجري...

بلا وعي انحنت مسكة مختبئة خلف السور وشرعت ترتجف وتلطم الخدود في صمت وهي تشاهد من فتحة زخرفية في السور كوريتشينا تصرخ وتتراجع خلف شجرة ولا يزال الخبز في يدها والكلاب تخترق السور دفاعًا عنها...

وطارت الحمامات المطوقة في ذعر بلا عودة...

لم تعرف مسكة، أكانت كوريتشينا تدافع عن الكلاب أم العكس... فقط عرفت أن الكلاب هوت أرضًا مقتولة، تاركة كوريتشينا بلا دفاع...

ضمت كوريتشينا بطنها بيدها وسقط الخبز أرضًا... انحنت تجمعه فوطأ يدها حذاء جلدي مترب... سحبت يدها ألمًا فخطا الرجل فوق الخبز دافعًا إياها أرضًا...

كانوا خمسة... التفوا حولها وهم يضحكون... أخرج أحدهم صرة من فضة مسكوكة عليها اسم سليم شاه العثماني...

- لنتراهن على ما في بطنها... أنا أقول صبيًّا...

تراهن الرجال بلغة تركية لم تفهمها لكن الرسالة قد وصلتها حين رأت التماع الخنجر القصير في ضوء شمس الصباح المبكر...

((أبانا الذي في السماوات... فليأت ملكوتك .... فليتقدس اسمك.....

......اعطنا خبزنا كفاف.........

...لكن... احمنا من الشرير...............))

اختلطت صلواتها المرتعشة بضحكاتهم...

رنين سيل الفضة العثمانية تحمل اسم السلطان... ملوثة بدماء يد القتلة المتراهنين...

((وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون...))

تتمتم مسكة بالدعاء ولا تقدر على إغماض عينيها المتسعتين عن آخرهما...

يسيل الدمع حارًّا والخوف يكبل ساقيها بألف قيد...

يشق الخنجر بطن كوريتشينا فلا تصرخ...

لقد ماتت قبل ثوان من قتلها...

ويسقط الجنين متدحرجًا بين ساقيها المنفرجتين...

- صبي! هاتوا ما عليكم!

يقتسمون المال ويقتحمون البيت...

تتسلل مسكة وهي تكتم نحيبها، تبحث عن أطفالها فلا تجد في حجرتها سوى رمضان... تكمم فمه وتعود إلى السطح، تخرج العجين وتضعه على الأرض وتغطيه بحصيرة ثم تتكوم هي وصغيرها تحت الإناء الضخم المنكفئ في الظلام الدامس...

بين الفينة والأخرى تدخل بعض الهواء ثم تعيد الإناء محكمًا فوقهما...

فقط سمعت الأقدام تجول فوق السطح لكنها مالبثت أن غادرت في سرعة... لا يوجد ما يغري بالسرقة...

لم يمض وقت طويل حتى سمعت الخيل تغادر مبتعدة فألقت من فوقها الوعاء وحملت ابنها وجرت... العرق يغمرها حتى إخمص قدميها...

تنادي بصوت مرتجف على أبنائها فتجدهم مختبئين مذعورين وقد حطمت التجربة الدامية عقولهم الصغيرة...

تدور بعينيها في البيت الخالي... لم يتركوا شيئًا أبدًا... وما فشلوا في خلعه من زجاج ملون قد حطموه في همجية وغل...

وحين تيقنت من هدوء الأحوال، تركت أبناءها في حجرتها وتسللت مرتجفة إلى الحديقة...

أخذت تفرك عينيها وهي لا تصدق ما تراه... خبطت على صدرها وهرولت ناحية الجنين الغارق في الدماء...

مدت يدها نحوه فوجدته يرتعش وينتفض... أمسكته من قدميه وقلبته فكاد يسقط منها على رأسه...

- **يا ضناي...**

ربتت في خفة على ظهره فجهر ببكاء تردد في ربوع الضيعة المسلوبة...

تربعت مسكة وسط الدماء تضم المولود إلى صدرها...

تتمايل أمامًا وخلفًا وتبكي بحرقة كاد قلبها أن يتوقف منها...

بصوت شق عنان السماء صرخت...

- يا الله!!

* * *

خرج من في السجون من عثمانيين قد أودعهم فيها طومان باي بينما أقام السلطان سليم الأول في القلعة ونصب مخيم جنوده برملة بولاق...

وفي وسط المخيم نصبوا خيمة كبيرة بها دنان البوظة وأخرى بها الحشيش

وثالثة بها صبيان مردا!

يطوف فوق كل ذلك الدعاء باسم السلطان خليفة المسلمين، يرتفع من المساجد في خطب الجمعة!

ولم يسلم الأمير طومان باي من خيانة أخيرة من العربان أُحضر على إثرها إلى السلطان سليم الأول مكبلًا يرتدي زي العرب الهوارة... مجردًا مما يشير إلى حياته الحافلة الماضية...

بعض من روحه قد تعلقت فعلًا بتراب أرض نما جسده من خيرها... وبعض قد استكان إلى حقيقة مرة... لقد دافعنا عن تلك الأرض وهي ملكنا... سندافع عن أملاكنا وليس عن وطننا...

والفارق كبير...

نظرة الكسرة في عينيه تواجهها نظرة منتصرة شامتة في وجه السلطان... يرفع طومان باي ذقنه عاليًا مداريًا خوف بشري...

المذلة أقوى من الموت أحيانًا...

ظل طومان باي في حراسة عسكر ابن عثمان تظله المهانة ويلطمه العار، قرابة سبعة عشر يوما، لا يصدق المصريون حقيقة أسره...

فضاق السلطان ابن عثمان بعدم تصديق الناس وشعر بانتقاص لقدر انتصاره... والحقيقة أن الدماء لم تروه بشكل كاف بعد والرؤس المعلقة ينقصها رأس مملوكي ذائع الصيت يكسر به من له عزيمة أو أمل...

وفي موكب يتقدمه أربعمائة عثماني اخترق شوارع القاهرة متوجهًا إلى باب زويلة... فكوا وثاق طومان باي ووقف حوله العسكر يحرسونه...

تجمع الناس غير مصدقين لما يحدث... آخر أمل يغتال في أنفسهم وآخر

سلاطين المماليك ينهي تاريخ حافل على مدى مئات الأعوام...

فتح طومان باي فمه فخرج صوته جافًا متشققًا...

- اقرأوا لي سورة الفاتحة ثلاث مرات...

رددها طومان باي باسطًا كفيه أمامه في جلد... ثم التفت للمشاعلي فقال بصوت قوي...

- اعمل شغلك...

غطى المشاعلي رأسه ولف الحبل حوله، رفعوا الحبل فانقطع وسقط طومان باي على عتبة باب زويلة...

كبر البعض على استحياء لكن الخوف والحزن مازال يفوح من الأنفاس...

البعض يقرأ الفاتحة والبعض يدعو ويأمل أن تكون إشارة من الله فيعفو عنه ابن عثمان...

كرروا الشنق فانقطع الحبل مرة أخرى...

وفي المرة الثالثة لفوا الحبل فوق عنقه ولم يغطوا رأسه...

جذبوا الحبل فسمع الجمع صوت انكسار العظام...

فاضت روحه إلى بارئها...

واجتمع صوت القاهرة كلها في صرخة واحدة عظيمة...

* * *

يحمله الأكمل بين الصحاري والوديان... يتخطى أجساد المحاربين المكومة ويجتاز أزقة محاطة بجثث المماليك القتلى...

تلقى رشقات السهام وضربات السيوف من عثمانيين ارتابوا في مظهر درع جواده المملوكي، لكنهم فروا يهيمون على وجوههم من طريق الموت الراكب على جواد...

وأشيع أن جنيًّا غريبًا على حصان يجوب أرض العثمانيين... ترتد عنه السهام وتخترقه السيوف كما تخترق الشمع بلا نقطة دم...

لا يرد الضربات... فقط يقف، يتلقى السهام والبارود على جسده المغطى بثياب إشعيا... للحظات يتوقف الضرب... عندها يكشف غطاء رأسه ويزيح العباءة عن جسده فيتراجع الجميع مبسملين محوقلين...

- الآن فقط تذكرون إلهكم؟! لكنكم ستذكروني ما تبقى لكم من حياة!

يتقدم رجل أو اثنان يضربون عنقه بسيوفهم... ثم يتركون كل شيء معهم تحت قدميه ويولون الأدبار!

لم يدافع عن نفسه وقد ارتقى فوق كل أذى بشري... هو الآن خالد، يتلذذ بخوف الجبناء الفانين...

أينما يعبر الجواد، يليه ضباب أسود يمكث ثلاث ليال فلا يرى أحد يده أمام وجهه...

يصاب القوم باعتلال الأمزجة ويتسرب الخوف واليأس من خلف الأبواب والحجب ليصل إلى جوف صلاح الدولة كاملًا... يغمض عينيه البيضاوين ويتشمم الخوف زفيرًا من الهواء...

علم من حال القوم وهمساتهم ليلًا عما حدث في البلاد... لقد دخل العثماني مصر... احترقت الأرض السوداء بلهيب العنقاء اللعينة وأُريقت الأنفس تحت قدمي سليم شاه العثماني...

((.. ما لك سيظل لك حتى تعود........))

سيستعيد ماله وسيسود... لا يعلم سليم شاه ولا غيره أي خصم يواجهون...

يخترق البلاد وفي رأسه تدور كل كلمة قرأها في كتب إشعيا... بل كل خبرة عرفها إشعيا ذاته ولم يخطها... إشعيا الذي أصبح جزء من كيانه الخالد الخبيث...

دخل قصبة قليوب في ستار من ليل هادئ... يشم رائحة الدم الصدئ والموت تحملها الأنسام من القاهرة البعيدة... ومن صوب ضيعته!

اجتاز المسافة المتبقية في سرعة أطارت غطاء رأسه وفكت شعره فطار خلفه منثرًا ممتزجًا بحلكة السماء...

توقف لحظات بدت له دهورًا أمام البوابة المنتهكة المخلوعة وجثث الخصيان والحراس المنتفخة...

لم يكن له قلب لتتسارع دقاته... لكن شعورًا لم يختبره من قبل أحاط به... غليان في جسده وكأنه موشك على الانفجار...

مرارة سم العقارب ترتد في جوفه فيشعر بها على أطراف لسانه...

وزئير حيواني يهدر من حنجرته...

لقد انتهك العثمانيون حرمة بيته...

بأرمينية خشنة صاح مكورًا قبضتيه فانغرست أظفاره الطويلة الصفراء في لحم كفيه...

- لا يعلمون من أنا!!!!!!! لا يخشون غضبتي!!!

تحرك نحو كومة الطين في وسط الحديقة والتي تختلف عن باقي الأرضية العشبية المستوية...

الكلاب الميتة مكومة بجانبها وكسرة خبز نما عليها العفن ملقاة على مقربة...

((.. اليوم تترك أباها يأكل مع إخوتها الكبار وتقترب منه ممسكة بكسرات خبز...

.... صوتها رقيق أملس كالحرير رغم خوف خفي يَنسِلُ نسيجه...

- مي فاخيت زيير...

في شجاعة نادرة تطلب منه ألا يخف..

يعلو زئيره ويهز رأسه في انزعاج بدائي...

تتراجع الطفلة ويسقط الخبز من بين يديها......))

عملات فضية عليها اسم سليم شاه مخضبة بالدماء متناثرة بين الحشائش...

شرع يحفر الأرض كالمجنون وهو يخور...

يتساقط لعابه المسمم على التراب... يتقطع شعره الطويل الملامس للأرض مع حفره المستمر الغاضب...

ويرى وجه كوريتشينا مغطى بغطاء رأسها الحريري سماوي اللون...

لحظات حتى كشف كامل جسدها ورأى بطنها المفتوح...

صرخ فطارت الغربان هلعًا وقامت الريح تعصف بما تبقى من أوراق على الأشجار...

وطفا سؤال واحد أبدي لن يعرف إجابته أبدًا...

أكانت تبكي كلبها أم تبكيه؟

* * *

مع أول نسمات الفجر، تساقطت أجساد الحراس العثمانيين في صمت إثر ضربات سريعة من سيف أسود نادر...

سارت بين أجسادهم عربة تحمل صندوقًا كبيرًا يجرها حصان أبيض في درع حربي يمتطيه رجل ملثم شاحب...

قصر الأمير علاء الدين مازال يحيطه الحرس... العثمانيين!!

لقد اشترت زينب حمايتهم بالمال والدم...

كانت الأمور أوضح مما يجب... لم ترك السارقون قصرًا مهيبًا كهذا وسلبوا ضيعة بعيدة؟ من دلهم على مكانها من الأساس ولم؟

قتل الحراس في صمت وبراعة وكدس أجسادهم خلف السور... اخترق طرقات القصر التي يعرفها جيدًا ثم ضرب باب مخدع السيدة زينب بقدمه فانهار بصوت مدوٍّ...

قامت زينب وزمت عينيها كي ترى بشكل أوضح... ازدادت الشعيرات البيضاء في شعرها تباعًا حتى ابيض كله في لحظتها...

صلاح الدولة بشحمه ولحمه، ترى مكان التحام رأسه بجسده بوضوح في ضوء النهار الوليد المتسلل من الأرابيسك...

تمامًا كما حكى لها قسورة... لقد انتزع العثمانيون رأسه في مرج دابق وقد رآه جثةً بعينيه بعد انتهاء الحرب!

عيناه البيضاوين والقشور الصفراء تحيط بها... أظفاره الطويلة الصفراء...

وابتسامته الهادئة!!!

من خلفه ظهر الحراس والخدم على إثر صوت فتح الباب يرون ظهر سيدهم وشعره...

- سيدي جناب صلاح الدولة!! الله أكبر!

بصوت حاول أن يجعله عاديًا أمرهم دون أن يلتفت أن يعود كلٌّ إلى عمله... فعاد الجميع في حيرة من أمرهم يتهامسون ويضربون الأكف...

حمل صلاح الدولة الباب الخشبي العملاق المطعم بالنحاس وأعاد ضلفتيه إلى مكانها...

ترتجف زينب تحت غطائها وقد ابتل الفراش تحتها...

ببطء وثقة اقترب منها صلاح الدولة... همس بصوت خفيض كالفحيح...

- أوحشتك؟؟؟

* * *

استيقظ القوم على صوت زئير غريب وصراخ من جهة قصر الأمير علاء الدين سابقًا...

وما أن خرج أولهم من بيته متسائلًا حتى عاد مهرولًا إليه غالقًا الأبواب والشبابيك إلا من خوخة صغيرة ينظر منها ومن خلفه أهله في ترقب وجزع...

أول ما رأى الناس هو أشلاء متدلية من غصون الأشجار في مدخل القصر، تحتها أوصال ممزقة بيد دب ضخم، يقف هائلًا يغرق الدم أنيابه ومخالبه...

دب بعينين بيضاوين مجنونتين!

وهلة بسيطة مرت وبدا أن أهل القصر جميعًا، عبيدًا وحرسًا قد قابلوا خالقهم...

لكن الصراخ الأشد كان ينتظر للنهاية...

خرج الدب حاملًا زينب على كتفه، شعرها الأبيض يتدلى من وراء ظهره...

لم يستطع أحد ممن شاهدوا أن ينقل ناظريه بعيدًا عن الأحداث الجارية المتكشفة من خلف البوابة المخلوعة والأحجار المتساقطة من أثر ضربات الدب المجنونة.

لم ير أحد صلاح الدولة فوق سطح القصر، عاريًا فاردًا ذراعيه على طولهما بجانبه... يتطاير شعره في ريح مفاجئة عاتية...

عيناه مقلوبتان، عضلاته متوترة متشنجة... تفصل قدميه عن الأرضية مسافة نصف ذراع!

تدافعت على الألسنة آيات من القرآن الكريم ولهجت الألسنة بالدعاء...

بينما الدب يمزق ملابس زينب في قارعة الطريق... تصرفات لا تبدر عن حيوان أبدًا...

وقف الدب على أربع ووجهه يلاصق وجه السيدة الباكية الصارخة...

همس فلم يسمعه غيرها...

همس بلغة لم يفهمها غيرها...

- متعة أخيرة من حبيبك؟

صرخ النسوة حياءً وذعرًا في البيوت بينما أغلق الرجال الكوات المفتوحة على الطريق وقد أيقنوا أن ما يروه أمامهم هو كابوس ولا شيء سواه!

* * *

تجمع الرجال يضربون الأكف وهم يتلون القرآن ويتلفتون حولهم... جمعوا ما استطاعوا من أشلاء وجمعوا قدر استطاعتهم أشلاء كل فرد منفصلة. لكنهم لم يستطيعوا أن ينزلوا رأس زينب من فوق النخلة في مدخل القصر...

جعلوا يقذفونها بالطوب شاعرين بالذنب من جراء فعلتهم لكنهم لم يجدوا

سبيلًا لإنزالها غير ذلك حيث لم يطلها أي سلم يملكونه، حتى أتى متسلق نخل أنزلها قرابة صلاة العصر...

وقف الناس يصلون على البقايا وظل جميع سكان شارع المعز في المسجد لم يغادروه...

عاد الدب من تلقاء نفسه إلى داخل القصر بعد فراغه من متعته السادية ولم يجرؤ أحد على اتباعه.

في المساء... خلا الشارع من أي بشري... أمضى القوم ليلتهم في المسجد رغم الازدحام الشديد، يدعو الإمام ويؤمنون خلفه.

انتهى صلاح الدولة من انتقامه شاعرًا بإنهاك غريب... راح ينظر إلى وجهه في المرآة...

مازال يشعر بالإنهاك كالبشر...

مازالت قدراته محدودة رغم قدرته الفائقة على تلبس جسد الدب القوي...

لكن وجهه قد صار أجمل بما لا يقاس بعد التهامه ثلاث جوارٍ شديدات الحسن...

اختفت آثار الضربات كما اختفت الحلقة المتقرحة حول رقبته...

من خلفه حوض الماء الساخن قد تلون باللون الأحمر المسود... ذ

لم يزل وشم ظهره يتغير من دقيقة إلى أخرى... لم ينغص عليه انتقامه سوى أصوات الدعاء في المسجد القديم...

لولا إنهاكه لكان اقتحم عليهم المسجد منهيًا حياتهم.. لولا إنهاكه لكان قد انتهى من العثمانيين بقدوم الفجر...

مازال أقرب للبشر... مازال الدب دبًا عاديًا رغم كل شيء...

علم أنه لن يستطيع أن يكمل حياته في ذلك القصر في ذلك المكان الصاخب... وجوار مسجد لا ينقطع فيه الذكر...

حمل ما استطاع من كنوز في عربة جرها الأكمل حتى الحجرة الصغيرة التي بات فيها أول ليلة له في القاهرة...

نبش قبر أولاده ووضع التراب في صرة من ملابس عبد الله المهترئة ثم في قطعة من حرير أبيض...

انطلق في حلكة الليل وصمته إلى ضيعته، يحمل ثأرًا وغضبًا ورفات النقاء...

موقنًا أن لا أحد يقدر على اعتراضه مهما كان...

* * *

عند خروج صلاح الدولة بعربته التي يجرها الأكمل خارج أسوار القاهرة في اتجاهه إلى الشرق، لم يكن يعلم أنه سيعود مرة أخرى لتلك الأرض... بل لم يكن يتصور ما سيفصله عنها من زمن طويل... ولشد ما يغير الزمن الأرض والعباد...

ترك صلاح الدولة خلفه أشلاء العثمانيين في معسكرهم بعد أن أغار الدب عليهم وفتك بالعشرات قبل أن يردونه صريعًا بالبنادق...

كان ثأرًا صبيانيًا أخيرًا خلف في فيه طعم العجز ومرارة ضعف البشر...

لا يزال بشريًا... لا يزال محدودًا...

لا تزال سطوته على كائنات فانية بدورها تقيده إلى شجرة وارفة من أشواك الثأر والغضب...

ود لو ثأر من تلك الأرض الذليلة وما تحمله من جبناء... ود لو ثأر من كل راية عثمانية ومن كل حرف مزخرف خادع يتكلم باسم إله لا يؤمنون به...

ما زال يحتقر البشر وما زال يهرب من انتهائه القسري لهم...

كان بحاجة لجمع شتات نفسه والاستقرار، والتخطيط لاسترداد ملكه وأرض ميعاده... لاسترداد عرشه القائم على النيران...

ما زال يحلم وإن لم يكن ينم من الأساس... لحظات ينفصل فيها عن العالم فلا يرى سوى عنقاء من حروف مزخرفة... شيء في نفسه يلمح له بطريقه إلى الثأر لكنه لم يكن يملك بعد القوة للإفصاح بدلًا من التلميح...

نظر إلى جبل الطور المتبدي بعد رحلة طويلة ثم التفت إلى الأولاد الخمسة لقسورة والراكبين على العربة، ينهكهم الجوع والخوف والتعب...

هؤلاء هم ما تبقى ممن يعرفهم وقد نجوا بأعجوبة بعد ترحيل قسورة مع مئات المماليك لخدمة العثمانيين في عاصمتهم...

ثلاثة صبية وفتاتان... محمولون مع رفات ستة أجنة وامرأة إلى مكان مجهول وزمن أكثر غموضًا...

* * *

اباياسا ابا فيسكنا ... وي شوب دارينايا ...

((... هل ترى سيكون في وسعنا أن نعتبر كأن سوءًا لم يحدث...))

نوبا ووه مالينتو .. شورتي تول كولوسوتو ..

((.. يا نوبة يا موطن الجميع وحبهم الكبير... مكانك في القلب...))

كافيل بيلا ... اوكين جيرا ....

((.. لا وألف لا .. اصرف عنا البلاء يا رب..))

واي واي شورتيل فاياقي ... مامبي كونن فيافي ....

((.. يا عمرنا انت مستقرة في أرواحنا .. ضربت جذورك في أعماقنا..))

ووه نوبتو... مالينتو.... اباياسا ...

((.. يا نوبتنا

ياحبنا الكبير يا محبوبة الجميع

يا حبنا الكبير يا محبوبة الجميع...))

«من أغنية فولكلورية غير معاصرة للأحداث»

* * *

مسكة المنهكة تسير أمام البيوت الصامتة البيضاء المطلة على نيل شفاف رقراق...

تمسح بيديها على النقوش الدقيقة الملونة على الحوائط والأبواب...

ما زال القمح مكومًا في كومات صغيرة ينتظر التحول إلى حبيبات من ذهب...

الجو مائل للبرودة رغم الصيف القادم، تجذب أطفالها والوليد إلى صدرها متدثرين بحرام صوفي خشن أعطاها إياه التاجر السوداني الذي جاءت معه بعد رحلتها النيلية الطويلة حتى الجنادل...

ما زال الخير في القلوب، ما أن تقع عينا أي ممن قابلتهم في رحلتها على الرضيع بين ذراعيها حتى يعطيها مما أفاض به الله عليه دون سؤال...

حتى أهدتها سيدة من بولاق عنزة لإطعام الرضيع!

هذا الطفل معجزة يرعاه الله من فوق سبع سماوات...

لكنها لا تعرف اسم أحد في النوبة تلجأ إليه، فقط تعرف أن لها أصول في كلابشة لكنها لا تعرف أحدًا منهم...

لم تفكر لحظة في أن تستقر في أية مدينة على طول النيل في رحلتها، كأنها مسيَّرة إلى ذلك المكان... إلى أبعد نقطة تستطيع أن تختفي فيها عن الجميع...

تذكر كلمات أبيها الذي مات شابًا وأمها عن أهل النوبة... عن قدريتهم وإيمانهم المطلق بمشيئة الله ومعجزاته...

لم تحملها قدماها أكثر فجلست حيث هي، تسند ظهرها إلى الجدار...

دقائق حتى صرخ الرضيع جوعًا فأعطته لابنها الأكبر حتى تحلب له العنزة...

انفتح الباب من خلفها كاشفًا عن وجه كهل نحاسي اللون بديع التقاسيم، تنير عينيه اللامعتين ظلمة الليل...

- من؟

- عابرة سبيل... بسأل عن حد بيعرف دار أبو المكارم عبادي؟

- هنا نجع المحتى... فين اللي بتسألي عنه؟ تعالي... ادخلي... تعالي...

لم تفكر في أيه لغة تستخدم... فقط تكلمت بالعامية المصرية ففهمها الرجل مجيبًا بعامية قريبة جدًا تعطش الجيم وتضغط على الحروف...

أشار الرجل إليها - بعد أن أطلت زوجته من الباب في فضول - أن تدخل من البرد...

كان ذلك لقاؤها الأول مع محمد هبة الله من الماتوكيين، هو من سمى

الرضيع يحيا بعد أن سمع حكايته في صبر حتى الصباح.

بين جملة وأخرى من حكاية مسكة كان صوته يعلو حاثًا إياها على أن تأكل وتطعم أولادها، خاتمًا كل جملة من الحكاية بقوله سبحان الله والله أكبر...

وفي عصر اليوم التالي نادى محمد القوم فتحلقوا حول بيته يحتسون شراب الشعير ويسمعون حكايته حتى أذن المغرب...

صلوا المغرب في الخلاء ثم خرج إليهم حاملًا الطفل رافعًا إياه كي يراه الجميع... بدا محمد كملاك أسمر يسربل في ملابس ناصعة البياض يحمل البُشرى لقوم يتقون...

- يحيا... من اليوم هو ابننا كلنا... بيوتنا بيته وأولادنا أخواته... والست مسكة راح تعيش مع أمي في دارها... لو حبت تدوَّر على أهلها كلنا نساعدها... إنما ندعي ربنا إنها تعيش معانا وتزود بركتنا بيحيا ابننا...

أمن القوم على كلامه وانتشر الخبر من بيت إلى بيت... ترضعه النسوة ويداعبه الأطفال وقد أنزل الله محبته في قلوبهم...

هدأت مسكة أخيرًا إذ اطمأنت على الرضيع وعلى أولادها ودخلت في صمت وفجيعة لم تفارقها فلم تعد تتكلم سوى للضرورة وأمضت أيامها تصلي وتبكي وتدعو الله أن يسترها فوق الأرض وتحت الأرض ويوم العرض عليه...

تدعو وتتمنى لو تنمحي من ذاكرتها حياتها السابقة فتعود صفحة بيضاء لم يلوثها ذكرى القتل وظلال الموت...

* * *

مرت الأعوام بين حصاد الذهب قمحًا والفضة كتانًا من أرض نجع المحتى السوداء الكريمة...

اصطبغت ركبتا يحيا البيضاوان بالطمي الحنون وهو يلعب أمام دور الماتوكيين أيامًا والفادجيكي أيامًا أخرى...

يختلف الماتوكيون والفادجيكي رغم اشتراكهم في أرض نجع المحتى، لكن يجمعهم دومًا ضحكات واحدة وأحزان واحدة... وليال عيد واحدة...

وطفل أشقر من هدايا الله في علاه... فقد كان رزقه يسبقه أينما كان، فتفاءل به الناس وتداولوه بينهم...

صدح صوت بكاء أول سن له في فمه الصغير في كل البيوت على السواء، وسهرت مسكة تطببه في مرضه في بيت أم محمد الطيبة...

نطق أول كلماته باللغة النوبية رغم أن لغة التعامل بين الناس ومسكة هي اللهجة المصرية المألوفة لهم ولها...

وسرعان ما توالت على لسانه الكلمات النوبية والعامية المصرية في سرعة وسهولة في سن صغير...

تمنحه مسكة واحدة من بسماتها القليلات وتتمتم لأم محمد...

- أبوه كان بيعرف لغوات كتير... طالع لأبوه...

يعتصر ذكر أبيه قلب مسكة خوفًا وتشعر بثقل في معدتها من مجرد الذكرى...

كان طفلًا هادئًا غير مؤذ... لم يضطر أحد إلى ضربه أو تأديبه لفعل خاطئ إلا مرة واحدة...

وجدته مسكة يحاول الإمساك بعقرب كبير...!

لم تتمالك نفسها إلا وهي تلطمه على وجهه في عنف لم تشعره من قبل...

لقد عاد إليها كابوس صلاح الدولة بكل أبعاده في تلك اللحظة... لا...

لن نترك هذا الطفل يأكل العقارب... لن نتركه ليصير نسخة أخرى من المملوك اللعين...

أمسكت بكفها في ذهول من ضربته وهو ينظر إليها بعينين كبيرتين ينحبس فيهم الدمع...

ركعت على ركبتيها واحتضنته وبكت...

بكت ندمًا وبكت خوفًا من أن يرث شيئًا من طباع أبيه... لكنه لم يمس العقارب مرة أخرى...

صوته صداح شجي، يغني في الأعياد ويعزف نايًا نحاسيًّا غريب الصوت... وسط أصوات دقات الدفوف ورائحة السمك المشوي...

أمضى طفولته يجري بين الحقول... يسبح في النيل ويصطاد الأسماك مع الكبار...

توالت أيام مراهقته عفيفًا شديد الأدب والحياء... أحب الجلوس في المعابد وأطلال الفراعنة... تعلم قراءة الرموز الفرعونية من شاب أكبر منه من الفادجيكي...

كانت جميع الشابات أخوات له، بعضهن بحكم الرضاع، وبعضهن بحكم أدبه وتدينه...

وفي سن السادسة عشر... أبدى رغبته في الزواج لمسكة...

جلس على الأرض تحت قدميها وأسند رأسه على ركبتها النحيلة فداعبت شعره البني وتنهدت...

- كبرت يا يحيى يا بني وصرت راجل... ما فضل إلا انت واخوك رمضان أفرح بكم...

فاجأ طلبه مسكة رغم توقعها إياه في كل ليلة... غاص قلبها في صدرها خوفًا من أن يكون قد أحب إحدى بنات الماتوكيين... فهم لا يتزوجون من خارجهم... لكنه باغتها بهمسه الرخيم وقد أحس حيرتها...

- يو أونين.. ما تجلجي (ما تقلقي)... راح أترك لعمي محمد يختارلي زوجة...

تنهدت راحة وقد أثلج قلبها مناداته إياها بأمي... رفعت وجهه بين كفيها وقبلت رأسه..

- ربنا يباركلي فيك يا بني...

تزوج يحيا من ابنة أخي محمد هبة الله، ليلى... تكبره بعام واحد ذات عينين واسعتين سوداوين وبشرة ملساء أبنوسية... بدت كغزال رقيق نقي...

أحبها يحيا وهامت به حبًّا...

أنجبت له خمسة ذكور لبشرتهم لون البرونز اللامع وتتراوح أعينهم في أطياف الألوان بين البني والأزرق والأسود...

وفي عام ١٥٣٧ وافت مسكة المنية بين أولادها وأحفادها، فخرجت جنازة مهيبة بمحاذاة النيل الكريم لتدفن في أرض النجع الحبيبة... تاركة تربية يدها يعمرون حاملين ذكراها في نفوسهم عبر الأزمنة...

* * *

٣- الحاكم والمحكوم

«فليمضوا إلى فلاة شاسعة وغنية، وليسيروا في مناكبها ولتقهرهم صعابٌ لا قبل لهم بها قبل أن تؤول إليهم تلك الأرض الطيبة... التي يعمرها الرخاء وتسيل لبنًا وعسلًا...»

القس توماس هاكر

(تكفير الخطيئة، ١٦٥٩)

ـ الكلمات الأولى ـ

((الثاني... شوكياه... الحكمة... الزمرد... أوفانيم..))

- إبراهام لينكولن كان شايف إن أي أُمّة مهما تجاوزت قدراتها مجموع أجزائها، هي نتاج ثلاثة عناصر بس... شعبها، وأرضها وقوانينها. العناصر دي ما انفصلتش في بلدان العالم القديم على امتداد تاريخها، لكن الولايات المتحدة مكانش لها تاريخ قديم، مع بداية التاريخ الأمريكي الحقيقي... مكانش في غير الأرض...

والأرض هي الشيء اللي عشت عمري أدور عليه...

الأرض اللي ماتسألكش عن أصلك، السؤال الوحيد اللي معرفتش أجاوب عليه في عمري...

بعد ما سبت مصر ومعايا أولاد قسورة، عشت أكتر من ٩٠ سنة سيد الجبل الطور بدل إشعيا... السكان المحليين فهموا إني وريثه، وكنت بعالجهم مقابل بضائع في البداية... لكن صيتي انتشر وبدأ العثمانلية يطلبوني لعلاجهم! كنت باخد تمن أرواحهم ذهب... تراكيب اكتشفتها في كتب إشعيا تقدر تسممهم

بيطء... حضرت موت كل واحد فيهم رغم إني ما اتحركتش من فوق جبلي... سمعت عذاب أرواحهم وهي بتطلع منهم لحظة بلحظة...

بس ده مكانش كفاية... كنت برضو محدود بقوانين البشر... مكنتش أقدر أتواجد أكتر من ثلاثين سنة كنفس الشخص... سني مابيكبرش... كان لازم أختفي وأضيّع فرص كتير للانتقام...

أولاد قسورة اتجوزوا بعض... وبدأوا يكتروا سنة ورا التانية... بيرشدوا القوافل الكبيرة المعروفة لوجودي لو كانوا محتاجين علاج... أما الأغراب... فكانوا الشيء الوحيد اللي بتغذى عليه.................

* * *

مازال قلبها ينبض رغم انقضاء السنوات في غيبوبة لا شفاء منها...

كل ما يفعله الأطباء هناك هو إبقاءها على قيد الحياة بعد أن فشلوا في إيجاد سبب لغيبوبتها...

يوميًا تجلس رقية بلا ملل بجانبها مدة النصف ساعة المسموح بها... تحكي لها موقنة بأنها تسمع وتشعر... وترد...

- ماما... خايفة أوي على خالد... الشغل والشهرة أخدته مننا... ماشوفتوش من تمن شهور، بشوفه زي الغُرب في التليفزيون ومكالمة تلات دقايق كل كم يوم... الناس دي غريبة أوي... مغرقينه شغل وتدريبات في النادي تقوليش هايحارب...

تملس رقية على شعر رفعة الشاحبة... تقص أظفارها الهشة الشفافة برفق...

- اللي زاد وغطى، عايز يتجوز واحدة من الناس اللي فوق أوي... ربنا يسعده... البنت شوفتها مرة من بعيد... حلوة يا ماما... بس مش

سهلة... تحسي إنها بتحبه آه، بس في حاجة جواها عايزة تطلع بس مش عارفة... إحساس غريب...

تمضي الوقت في الحكايا... تمسح انفطار القلب دمعًا من عينيها...

((.. ماما... ياترى إنت هنا ولا خلاص...))

* * *

انتهى خالد من تدريب المبارزة (الشيش) وخرج يتصبب عرقًا من خلف القناع أسود الشبكة... خلعه واحتضن إمام يربت على كتفه ويدعوه للجلوس...

- تشرب إيه؟ عندهم بيناكولادا حلوة أوي... عارف مالكش في القهوة الإيطالي...

- أنا مش جاي أشرب... جاي أشوفك... مش عارف أتلم عليك... أخبارك إيه وإيه حكاية المبارزة دي... ليه يعني؟

- ماعرفش يا إمام... كله جزء من شخصية خالد البطل... وبرضو رياضة... تصدق حبيتها أوي... كأني مولود بسيف في إيدي!

- طب الحمد لله... أفتكر بعد ما وقفت الكينولاج وجع معدتك اتحسن مش كده؟

- اتحسن... بس ضهري...

تلفت حوله ومسح قطرات العرق بمنديل معطر...

- ضهري يا إمام... مش قادر أعيش كده... وكله كوم وال... الطوفان كوم... إنت قلتلي إن زيادة الهلاوس من الكينولاج... خالص... ولا أثر إني بطلته من شهور... دي زادت...

- مش عارف أقولك إيه... إنت مش فاضيلي تعمل تحاليل تاني واكتبلك بدائل...

- إمام... إنت عارف إن اللي فيا ده مش مرض جلدي بس... المهم... عندي لك خبر حلو...

- خير... فرحني بدل الغم اللي إحنا عايشين فيه...

- أنا هاخطب نورين...

امتقع وجه إمام واتسعت عينه، خلع نظارته وشرع يمسحها في ارتباك...

- والله؟ .. أ.. أ... ألف مبروك... إنت.. كلمتها؟ يعني.. وافقت؟

- مش هاتصدق... هي اللي فاتحتني في الموضوع وقالتلي إنها كلمت جدها وخليته يوافق...

- جريئة هي... بس مش عيب يعني الواحدة تختار عريس كويس... مبروك يا أخويا...

صمت مبتلعًا كل مخاوفه عن سمعة السيد فخر الدين جدها ذائع الصيت... رجل خبيث زلق غير معلوم التوجهات ولا النوايا... نافذ سياسيًا من خلف الكواليس...

صمت كي لا يتهمه خالد مرة أخرى بإيجاد منغصات لفرحته... صمت ودعا الله أن ينير بصيرته في زواجه وعمله...

مرت فترة طويلة منذ أن التقى إمام بخلود في أولى حلقات تحية للمصريين... خائفة مرتبكة جلست في نفس الصف تقضم أظفارها وتشاهد خالد يتألق كمحترف وسيم...

علم أنها هي الصحفية المسؤولة عن تلميع خالد بمقالاتها وتلقائيتها على

مواقع التواصل الاجتماعي... ومن لا يصدق الفتاة التي أنقذها خالد تحية شخصيًا؟

بعد انتهاء الحلقة وقفت في الصف كي تسلم عليه... ثم انصرفت قبل أن تصل... يعلم إمام أن خالد رآها... ويعلم أنه تجاهلها عامدًا في قسوة وحيمة... لم تعد خلود فتاة الميدان هي من تليق بخالد تحية الشهير.

سار إمام خلفها وتبادل معها بضع كلمات... حياها على مقالاتها ودعته لشراء كتابها الذي أصبح قديمًا...

ثم افترقا...

عرف عنها الكثير من كتاباتها... ليال طويلة قرأ فيها كتابها المرة تلو الأخرى... يرشف حساسيتها وبساطتها وتلقائية تفسيراتها... يتشرب ثقافتها ويفكر في تعبيرات وجهها وهي تقضم أظفارها...

يقارنها بنورين... ويصمت...

- سرحت في إيه؟ إنت معزوم على الخطوبة في جراند حياة الخميس بعد الجاي...

- إن شاء الله آجي... مبروك يا خالد... بس... رقية أنا قابلتها في المستشفى السبت اللي فات وماقالتليش حاجة... إوعى تكون خطبت وماخدتهاش معاك...

- ياخالد الناس دي ماعندهاش رسميات زينا... البنت كلمت جدها ووافق... قابلته وحدد هو ميعاد الخطوبة... الحكاية حصلت بسرعة...

- تمام... ربنا يوفقك... طيب... مش عايز حاجة؟

- سلامتك يا إمام... إمام...

- نعم...

- ماتزعلش مني...

- ماقدرش...

ابتسم ابتسامة في مرارة الحنظل وتمشى في شمس النادي عابرًا البوابة الفاخرة... وقف لحظة ثم التفت للنادي مرة أخرى...

كأنها قد عبر ثغرة بين عالمين... الدعة والخمول في الجانب المشرق... والهم والانكسار في الجانب المظلم من العالم المزدوج...

لم تكن مسألة غنى أو فقر... مسألة انعزال تام... انفصال في الشكل والمحتوى بين الصفار والمح في ذات البيضة... صفار يتغذى على مح آخذ في الانكماش...

على بعد من مرأى رواد النادي، يخوض في باعة جائلين بارت بضاعتهم من قلة الرزق...

ركدت اللحوم وازدهرت تجارة العظام...

يدعون الله من ألسنة تشققت جفافًا، يضعون الطمي الجاف على رؤوسهم من أرض بارت من قلة الماء... ويصرخون... ياوب...

حتى الدعاء صادروه منهم باعتبار الدعاء للخالق حكرًا على الأرستقراطية الدينية... يُزجَرون ويُرجَمون كفرًا...

عندما تختفي أسباب الحياة من حول الفقير، يعلم أن لا ملجأ إلا الله... ولن يستطيع أي من كان أن يحول بين عبد وربه في علاه...

أشهر من حروب الشوارع الطائفية أنهكت ما تبقى من همم، لم يعد هناك أمل في شيء... وشرع الناس يترحمون على من ماتوا باعتبارهم حسني الحظ...

يتحينون الفرص بل ويفتعلونها للحاق بمن سبقوهم...

- لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين...

يردد إمام دعاء النبي يونس في ظلمات ثلاث...

الليل رغم النهار...

والغرق رغم الجفاف...

والذنب، إلا أن رحمة الله وسعت كل شيء...

* * *

تقف نورين خلف السيد الجالس ممسكًا بكأس النبيذ، مشاهدًا آخر لقطات إخبارية وردت في قنواته العديدة...

تتحاشى النظر إلى عينيه هذه الأيام... شيء شيطاني قد فاق حدود الشيطنة المألوفة في ناظريه... سطوته آخذة في الازدياد... يجمع وثائق قديمة تثبت أملاك اليهود في مصر... وثائق أرسل من يسرقها سرقة معترف بها تحت إشراف عبيده المخلصين منذ سنوات قليلة...

يمتلك فعليًا أجزاء من الأرض المريحة المسماة مصر... يمتلك أراضي حول السد المقام على نيلها جنوبًا في أثيوبيا...

وقد جف النيل...

في رحلتها من وإلى منزلها لشراء مستلزمات الخطبة، ترى المياه استحالت طميًا بنيًا راكدًا... وجوه المصريين تحولت طميًا بنيًا راكدًا...

تتساءل عن الرابط بين هذا وذاك...

تشاهد الخبر الشهري المعتاد منذ أشهر طويلة...

«.. حيث وقف العشرات صفًّا أمام كورنيش النيل الممتد بطول مصر، لا يتزحزحون ولا يبالون بتهديدات الشرطة باعتقالهم... يقفون، ثم بلا أية مقدمات يسقطون موتى... يبين التشريح عدم إصابتهم بأي أمراض مشتركة تؤدي إلى وفاتهم بهذا الشكل......»

ماذا يحدث؟ ترى الكآبة تعلو وجه جدها فخر الدين... لم يعد يعبأ بتصنع الضحكات... يتحسس مسدسه القابع في درج مكتبه في شرود... دخلت عليه أمس فوجدته يدس ماسورة المسدس في فمه...

- جدو..! بتعمل إيه!!!!

ينزل المسدس ببطء ويضعه في الدرج مرة أخرى... يلتفت إليها بوجه متبلد...

- عايزة حاجة يا نورين؟

- حضرتك... حضرتك ليه عملت كده؟

- معرفش... حاسس إن قلبي وقف من زمان... واللي بعمله ده تحصيل حاصل...

- مالك يا جدو...؟

- ماعرفش...

حالة كآبة غريبة أصابت أفراد الحاشية كما أصابت المصريين على حد سواء... تلك أحد العصور المظلمة للسيد كما حكت لها الجدات وهي بعد طفلة...

مستسلمة هي لإرادة السيد... ستتزوج خالد تحية... كبحت تساؤلاتها في قلبها وصمتت... ستكون هي أول من يتزوج من خارج العائلة... ومن مصري أسمر!

تتساءل عن علاقة السيد بهذا الشاب... تتساءل عن مخططه... فتبتلع تساؤلاتها وتصمت...

تعترف بميلها لخالد بشكل خاص... هو أول من أمال قلبها بعد السيد... شعور مريح صافٍ بالقرب منه يجتاح كآبة أيامها...

ويذكرها بقوة أعلى سماوية لا تعرف لها مسمى...

تحاول استرجاع نورين قبل خالد فلا تستطيع... هذا الشاب يخبئ سرًّا كبيرًا...

- نورين... جهزتم الحفلة؟

- أيوة يافندم... والحاشية كلهم بعتنالهم كروت الدعوة... كمان بعتنا لكبار السياسيين والفنانين في البلد...

- حد في الحاشية سأل عن السبب؟

- لا يا فندم... محدش بيسأل عن إرادة السيد...

((.. ليه ما تسألش؟؟ ليه؟؟؟ ....))

- نورين... إنت أذكى من إنك تسألي...

يفلت قلبها دقتين متتاليتين... لا يقرأ السيد أفكارها بالتأكيد، خواطرها الخاصة لا تصل إلى عقل السيد، إنما يصله منها ما تفضحه عيناها فقط... عيناها تفيضان بالتساؤلات والحيرة...

- يافندم... السؤال اللي عايزة أسأله لحضرتك... إيه حدود اختلاطي بأهل خالد وأصدقائه؟ الدكتور إمام عازمنا في منطقة شعبية على العشا...

- روحي... انطلقي... مالكيش حدود... بس خليكي عارفة حاجتين...

المايك في هدومك مايفارقهاش... وإنك عذراء لحد ما تتجوزوا... مفهوم؟

ـ أمرك...

* * *

((الخامس... جبيوراه... الصرامة... الياقوت... السيف والسلسلة... صبراقيم))

ـ .... أولاد قسورة بقم هم الحاشية بتاعتي دلوقتي... من خمسميت سنة، عبيد مطيعين... واللي بيحاول يستخدم عقله أو يعمل نفسه شجاع، بيبقا عبرة لغيره...

حاجتين يحكموا أي بشري منكم... الخوف، والطمع...

لحد ما في يوم، لقوا مسافرين إسبان... يهود... هربانين من محاكم التفتيش، لفوا أوروبا واتنقلوا من بلد لبلد لحد ما وصلوا الطور... عارف كانوا بيسألوا عن مين؟ عن أي حد من عيله كوهن!

واحد فيهم كان مصاب وافتكروه خلاص، هيموت... عالجته وطولت فترة علاجه... كنت محتاج أسمع منهم عن أوروبا... عن العالم البعيد هناك...

ولما زميلهم خف... شكروني وإدوني عشر قطع ذهب هي كل اللي بيملكه الرجل اللي عالجته... بس كنت عايز أكتر...

كنت محتاج لسانهم... لغتهم...

مانزلوش من فوق يومها... أنا اللي نزلت وهم جوايا... وعرفت من أجسادهم اللغة الإسبانية زي أهلها...

وعرفت منهم إن في أرض جديدة وعالم جديد ورا المحيط...

في آخر ١٦٠٦... ودعت التاريخ القديم... والجغرافيا القديمة... لحياة جديدة... من إنجلترا، وتحت اسم آنجيل ديلمونت، من المغامرين الأشراف، محدش سمع عنه قبل كده... بس شافوا دهبه يومها فافتكروه! ومعايا ٤٠ من عبيدي اللي دفعت تمن سفرهم بعد العشاء الأخير ليا بالستات والأطفال قدام عينيهم المرعوبة... الطمعانة، وتحت حراستي الخاصة.. تابوت والدتك كورينثنا، وأوعية رفات أخواتك الستة! ركبنا السفينة ديسكفري... اللي كانوا على السفينة ميَّة وخمسة... اختفى منهم ٣٩ في الطريق! كان لازم آكل علشان أحافظ على شكلي الآدمي... وعلشان أعرف أكتر...

فاكر التاريخ ده كويس أوي... ١٣ مايو... خطيت أول خطوة في الأرض اللي اتساوينا فيها كلنا أخيرًا... وطن اللي مالوش وطن وأرض المنبوذين... سموها جيمس تاون...

المكان كان بعيد عن هجمات الإسبان، لكن كان قريب جدًا من الموت... المستنقعات والملاريا... وآنجيل ديلمونت!

عبيدي روجوا لحكاية البعوض والملاريا ومية الآبار الضحلة المالحة إنها قضت على المستوطنين... بعد خمس شهور مافضلش من حمولة التلات سفن إلا ٣٨ رجل!!!

مكانش الجوع اللي دفعني لقتلهم... سرية حياتي هي اللي مكانتش عايزة شهود... كل واحد حشر نفسه في حياتي أو سأل أو قال إني... إني إبليس... لقى نهايته على إيدي...

في الوقت ده بدأت أشوف حقيقة تانية أكدتلي إني صح...

لما الملك جيمس الأول صرح بترخيص إنشاء شركة فيرجينيا اللي سفرتنا لأمريكا، نَص ميثاق الشركة على إن هدفها بناء أسطول تجاري لإنجلترا... وزيادة عدد البحارة المتمرسين وزيادة حجم تجارتها واكتشاف المعادن

الثمينة... وبالمرة كده سطر في الآخر... وإدخال الوثنيين للمسيحية!

تصدق يا خالد إنهم ما بعتوش مُبشّر واحد! خطتهم لتنصير السكان الأصليين كانت من خلال عمليات تلقين اقتصادي... اسمع دي.. «... بغية توطين رعايانا وتفريق شمل السكان الأصليين... في سبيل الله! ونشر الدين المسيحي... وتطوير عمل وريع المزارع في ذلك البلد عمومًا وتحقيق مصلحتنا الخاصة وضمان أرباحنا»..

الكلام ده مش مألوف؟؟ سمعته فين يا صلاح سمعته فين يا صلاح... سمعته مليون مرة على لسان كل غزو باسم الدين... تحقيق مصالحنا... بس نهدي الناس برضو.. نقتلهم ونحبسهم وننفيهم... علشان مصلحتهم!!! لا الحقيقة البشر يستاهلوا أكتر من كده... أغبياء أغبياء علشان كل مرة بيصدقوا نفس الحيلة الرخيصة!..........

* * *

تربعت خلود بجوار خالها مشتركين في أريكة صغيرة ضمت ثقل جسديهما في حميمية احتاجتها خلود كثيرًا...

لحظات من الصمت يرقبها خالها من تحت نظارته السميكة وهي بعد صامتة... تقضم أظفارها وتشاهد بشرود إعادة حلقة تحية للمصريين...

- مالك يا دودي... في إيه؟

نظرت إليه بلا كلمة لنصف دقيقة، اغرورقت فيها عيناها بالدموع ثم ارتمت على كتفه تزفر الكلمات مع أنفاسها الحارة...

- خالو... أنا... أنا وحشة أوي... و... وأنانية...

- ليه بس يا حبيبتي... إيه اللي حصل؟

- عايزة أسيب شغلي في الجرنال... عايزة أرجع خلود بتاعة زمان... كنت بقول اللي أنا عايزاه... أي نعم محدش كان بيسمعلي ولا يقرالي... بس مكنتش بكذب...

- في إيه بس؟ لسه مها ضاغطة عليكي في شغل الجريدة...؟

جمعت خلود شعرها خلف رأسها ومسحت عينيها في كُم قميصها ثم أوسدت فخذ خالها ناظرة إلى السقف متحاشية النظر المباشر - كعادتها - إلى عيني من تحدثه...

- ماما ضاغطة عليا... بس من إمتى وأنا كنت بستسلم لضغط ماما؟ الوضع عاجبني... بقا في ناس بتقرالي... وناس بتجيلي حفلات التوقيع... عندي كتابين والتالت في السكة... مرتبي كويس أوي وحواليا الناس مش لاقيه تاكل... كل ده عاجبني ومش قادرة أسيبه... بضحك على نفسي بإن ماما ضاغطة عليا...

- دودي... في لحظة من حياة أي كاتب بيبدأ يبقا مشهور... ممكن يتزلق من خانة كاتب لخانة كاذب من غير ما يحس... القلم مغري زيه زي السلاح بالضبط... مجرد ما بتطلع من السلاح أول طلقة وتصيب، ما تقدريش توقفي حتى لو كنت بتضربي عاطل على باطل... شفتي الكم سنة الأخيرة كم كاتب تحول لكاذب ودخل فخ السياسة بمجرد كلمة في حدوتة حكاها؟

- عارفة يا خالو... أنا أكتر واحدة متابعة وشايفة... رمضان خلاص على الأبواب... مديت إيدي أبدأ أقرا القرآن علشان الحق أختم في رمضان... عارف... مقدرتش أمسكه... حسيت إن إيدي مش طاهرة حتى وأنا متوضية... فاهمني يا خالو؟؟

قطب خالها جبينه وأطرق أرضًا... من منا وصل حياؤه من الله أن يتوضأ

نفسيًا قبل أن يمس كلماته..؟؟

- حبيبتي... أجمل حاجة فيكي إنك صريحة مع نفسك... بصي يا بنتي... الخلاصة... أي كلمة تكتبيها أو تقوليها تبعدك عن كلام ربنا بقا بلاشها خالص... مش محتاجة حساب...

- ساعات بقول لنفسي كملي في الطريق ده... ولما تبقي مشهورة وكبيرة ممكن تكتشفي الكذب والزيف براحتك...

- ماتضحكيش على نفسك... لما تبقي مشهورة من السكة دي هاتبقي إنت الكذب والزيف شخصيًا! قومي اغسلي وشك واتوضي وامسكي كتاب الله واقريه المرادي بشكل مختلف... اقريه بقلبك وخليه يطهرك يا بنتي... البنت اللي قالت كلمة حق في يوم، عمر ما الحق هايسبها... قومي...

* * *

رأى إمام أول حالات «الموت المفاجيء على النيل» في عيادته في الصباح... طرق الباب عم رأفت صاحب كشك السجائر سابقًا... فتح إمام وابتسم، لكن عم رأفت لم يبتسم...

- عم رأفت... مالك خير؟

- ......

- إيه؟ السكر تاعبك؟ ماقلتلك نظِّم أكلك طالما مفيش أنسولين... والله دورتلك مالاقتش ولا أمبول يوحد الله...

- ....

- طب تعال...

وقف الرجل بلا حراك... أمسك إمام يده وأدخله... ظل واقفًا وأبى أن يجلس...

- يا دكتور...

- نعم يا عم رأفت...

- أشوف وشك بخير...

- ليه؟ مسافر...

- آه... ومش راجع...

- هاتروح فين أمال؟

- هروح للحكم العدل...

- لا إله إلا الله... ونعم بالله...

عينا الرجل يطل منهما اليأس والمرض... تصميم يبدو فيهما وكأنه اتخذ قرارًا لا رجعة فيه...

- لما قالوا السجاير حرام بطلت أبيعها... وبعدين العيال مابقاش معاها فلوس تجيب بوزو وكازوزة... فبطلت أجيبها... الناس مابقتش تشتري المناديل الورق وبقت تمسح في كمها... فبطلت أجيبها... أكياس الشامبو أم نص جنية قلِّت وبقت بجنية... فبطلوا يجيبوها... أصلًا الميه مابقتش بتيجي إلا نص ساعة كل يوم...

((... الرجل بيهلوس... لا إله إلا الله... كلنا حالتنا ضنك واللي بيقوله عارفينه... بس جايلي ليه؟ إشمعنى أنا؟؟))

- ولاد الكلب سرقوا خشب الكشك إمبارح في الضلمة لما الكهربا قطعت... روَّحت لقيت المية جت... جيت أشرب لقيتها روقت طينة

في قعر الكُباية... بطلت أقرف... بس ماشربتش... كلاويا وجعتني...

أخرج الرجل كيسا يحوي علبًا فارغة لأدوية قديمة...

- والدوا خلص ومبقاش في منه تاني... وقلبي وجعني رغم إني معنديش القلب... قصره... أنا جيت أقولك تقول لصاحبك بكفايانا كلام يا بيه... زمان كنا بناكل من الكلام ده... دلوقتي الكلام بقا فيه سم...

استدار الرجل مبعثرًا في طريقة علب الأدوية الفارغة المصفرة...

- طيب استنى بس يا عم رأفت...

- كفايانا سم بقا...

وخرج الرجل لا يلوي على شيء... وفي المساء علم إمام أن الرجل كان ممن وقفوا يلقون خطايا أسيادهم في طمي النيل ويلقون ربهم بلا خطايا سوى خطيئة الصمت...

لم يكن عم رأفت قريبًا لهذه الدرجة منه، لكن كلماته الأخيرة طعنته برمح الحق والمرارة...

((.. كفايانا سم بقا..))

* * *

((.. التاسع... يسود... التأسيس... الكوارتز... العطور... كيروبيم...))

- .... مابين حياة وموت وأوبئة وفشل ونجاح... قدرت أدير إقطاعية كبيرة زادت في لمح البصر لما رجعت أوروبا في السر ومعايا سبعة من عبيدي سنة ١٦١٦ ورجعت باسم ريتش ديلمونت أخو آنجيل! لسبب بسيط... إنهم ساعتها عملوا نظام حقوق الرأس لجذب مستوطنين جدد... كانوا بيدوا كل رجل يتحمل مصاريف

سفره خمسين هكتار... وخمسين تانية عن كل قريب أو خادم أخده معاه! ورجع ريتش ومعاه ٣٥٠ هكتار زائد أملاك إنجيل...

كل المساحة دي اتزرعت تبغ... وبعد تمن سنين... مات ريتش بعد ما باع كل أملاكه لأخوه إنجيل! بعت كل شيء لنفسي...

ياه... كانت أيام ماتتعوضش يا خالد... التزوير واختلاق الشخصيات كان أسهل كتير من دلوقتي...

لكن سخافة البشر وفضولهم هو اللي خلاني أعيش في الضل وما أقدرش أعيش في مكان واحد كتير... وده اللي منعني من الدخول في المجالس النيابية رغم أحقيتي فيها كوني من أغنى المالكين هناك...

* * *

((.. إن أذنب القلب فالأشواق لا عجبا ... وإنما العجب أن أحيا بقلبي خاليا

فإن رضيت لعمري أن يحيا بلا حياة ... فوا أسفا على عمري وحاليا

أموت بدائي ولا أصيب مداويا ... ولا فرجا مما أرى من بلائيا

إذا كان داء العبد حب مليكه ... فمن دونه يرجى طبيبا مداويا

مع الله يمضي دهره متلذذا ... مطيعا كان أو كان عاصيا

يقولون عبد جن من بعد صحة ... وما بي جنون يا خليلي باديا

إلا أني غريب ملقى على الثرى ... أرعى نجوم الليل سهران باكيا

عدمت النوم والصبر والهنا ... وفارقت إلفا كان مني مدانيا

أرى الحب داء قد تمكن بالحشا ... وليس سواك لي طبيبا مداويا..))

على دقات دفوف المولوية يدور الراقص رافعًا يدًا إلى السما ترجو العطاء الرباني، يده الأخرى منخفضة إلى الناس يهدي إليهم من رحمة الله وكرمه...

يدور كما تدور الأفلاك في السماوات...

يدور كما يدور الناس طوافًا...

يدور كما تدور الأليكترونات حول النواة...

يدور.....

- كل سنة وإنت طيب يا خالد... بكره أول رمضان...
- وإنت طيب يا إمام...
- كل سنة وإنت طيبة يا آنسة نورين...
- وحضرتك طيب...
- شكلكوا بخلا... هاتعملوا خطوبتكم في رمضان...!
- ياعم بليل... بعد الفطار...

تدور عينا نورين في المكان العتيق... قلب القاهرة المملوكية كما حكوا لها عنها... هنا مشى السيد... وهنا امتطى الأكمل...

تعقل بداخلها لا يصدق حكايا الجدات الخرفات... ميل أنثوي لسيدها يتجنب التصديق بأنه ليس رجلًا عاديًا... ليس بشريًا...

((.. ليس إلها ....))

ترى الكلمات محشورات متدافعات على شفتي إمام... عيناه تطلان بفيض من الحنان والخوف... نمط مصري شائع كما علموها...

- مش ناوي تعمل برنامج جديد يا خالد ولا إيه؟

- وماله البرنامج ده؟ الحمد لله محقق نجاح كبير أوي...
- والله يا خالد أول ما البرنامج بدأ كان كويس... بس دلوقتي فرغ من محتواه وبقا تكرار ماسخ... ومؤذي... خلاص اللي بيحكمونا تحت غطا الإسلام اتغيروا رغم إنهم لسه موجودين... إنما اللي فينا هو هو... نفس النظام القديم هو هو... ده أولى إنك تنتقده... الناس بقت مشحونة ضد بعض ومش ناقصين حد يفضل يشحنهم من جهه واحدة...

قطبت نورين جبينها وتظاهرت بالانشغال بإزالة أوراق النعناع عن الشاي... هذا نمط آخر من المصريين... حنون... خائف... يرى التحول يحيطه ويخشى الاعتراف به... يحاول إحباط أية محاولات للتغيير... مصري قديم عاشق لسريان النيل البطيء الممل...

عندما بدأ خالد برنامجه، اعتمد على مقدمة برنامجه المسجلة في الإستوديو مع الجمهور، ثم دمج الفقرة المسجلة بالمؤثرات البصرية لينتقل خالد إلى الشارع... يجلس على المقاهي ويقابل جمهور حقيقي... بمهارة لم يعرفوا سرها، استطاع خالد أن يقرأ عقول المحيطين به من الناس

وأن يدمج مخاوفهم وحنقهم بالفكاهة... بضع حلقات وبدأ الناس يتساءلون... كيف يعرف خالد ما يدور في داخلنا؟ حلقتان ثم اعترفوا أن خالدًا هو فقط واحد منهم... يشعر بكل ما يشعرون به ويفضحه على الهواء... يسخرون معه من مشكلاتهم... يتحدثون بحرية في حضرته... يشتمون معًا... يلعنون معًا... يشكون معًا... يشعرون برابط خفي بينه وبينهم...

((.. يتحللون معًا من هيبة الدين دون تحللهم من هيبة المتدينين..))

ينتظر الناس مساء السبت أن يجدوا برنامجهم تحية للمصريين وسطهم في الشوارع...

يتنظرون... لكنه لا يجيء...

بدأ الموسم الثاني للبرنامج لقاءاته المصطنعة... ممثلون يحفظون سيناريو معد مسبقًا، يتظاهرون أنهم من الشعب... يتحدثون فقط في اتجاه واحد... الإسلاميون والإسلام والإرهاب...

ترى نورين أن المصري مجرد مرآة للإعلام الأقوى... يكره الإعلام البرامج الثقافية... فيكرهون البرامج الثقافية... يقدم الإعلام براجه على مدار الأربع وعشرين ساعة، فيتسمرون أمامه على مدار الأربع وعشرين ساعة...

يكره الإعلام الإسلاميين... فيكرهون الإسلاميين...

((.. فيكرهون الإسلام...))

- أنا معاك يا خالد إن الدين بالنسبة لشيوخ الفضائيات بقا تجارة... بيبيع يخوفوا به الناس أو يستدروا تعاطفهم... بس فين البديل؟ تقدر تقولي قناتك بتقدم إيه بديل؟

- ال... البدائل كتير... خلي الناس تتعب وتدور شوية... إحنا بنكشفلهم التيار السياسي مالناش دعوة بالدين...

- لو قلتلك أن كل التجار المسلمين حرامية... هتكره التجار بس ولا هتكرههم وتكره المسلمين؟

- دي حاجة ودي حاجة...

- الاتنين واحد... عارف فزورة كريت؟ واحد من كريت قالي إن كل الكريتيين كدابين، يبقا صادق ولا كذاب؟؟ لازم لما تقول إن دول بيتكلموا عن الدين غلط، توريني فين اللي بتكلموا عن الدين صح...

- مش شغلتي يا إمام... الكتب موجودة والقنوات التانية موجودة...

تنحنحت نورين ورفعت إصبعها في إذن للكلام...

- بعد إذن حضرتك... القناة بتعرض وجهة نظرها... مش ذنبنا إن اللي بيعرضوا وجهة النظر الأخرى بيعرضوها بسذاجة... الموز حلو والسمك حلو... بس ماينفعش أخلط الاتنين في نفس الطبق... ماينفعش أذيع المادتين في نفس القناة... ليه؟ علشان هايقولوا إن القناة توجهاتها علمانية مثلًا فلما تجيب شيوخ ويقولوا إن دول هم الوسطيين هايقولوا إن القناة بتنقي الشيوخ اللي على مزاجها... يبقا إحنا نقول اللي على مزاجنا والناس هي اللي تدور على البديل اللي على مزاجها بحريتها الشخصية...

صمت إمام متفكرًا... بدا له منطقًا سليمًا... لكن نظرة كلية للموقف تجد أن الإعلام المحترف في صف وجهة نظر واحدة... لا يعرف إمام سر كره الإسلاميين للعمل الاحترافي... ما الذي يمنعهم من تدريب إعلاميين كخالد في صفوفهم بدلًا من تلك البرامج الطاردة للمشاهدين...

كره إمام أن يخسر الجولة الأولى بلا دفاع أخير...

- طيب والضيوف المتفبركين؟ دي كمان سياسة قناة؟ بقالك قد إيه يا خالد ما احتكتش بناس حقيقيين وسمعت منهم؟

صمت خالد ونظر إلى نورين مستنجدًا... الطوفان بدأ من جديد وها هو يفقد تركيزه مرة أخرى...

((.. مش ده خالد تحية؟

... تعالى نروح نسلم عليه..

النهاردة مش السبت...

كل أيامنا بقت واحد... تعالى...))

((.. إن أذنَبَ القلبُ فالأشواقُ لا عَجَبا .. وإنّما العَجبُ أن أحيا بقلبي خاليا

فإن رضيتُ لِعُمري أن يحيا بلا حياة .. فوا أسفا على عُمري وخاليا..))

- دكتور إمام... خالد بقا مشهور ولقينا إن خروجه لناس حقيقيين فيه خطر عليه...

- ليه مالغيتوش طب الفقرة اللي على الهوا دي وعملتوها حلقات في الستوديو بدل الضحك على الناس؟

- إحنا بنضحكش على الناس... الضيوف من الناس فعلًا بس بنصورهم في مكان محضرينه علشان الزحمة... يا دكتور حضرتك بتهاجم للهجوم... خالد شخص واحد، ليه بتحمله فوق طاقته؟

- مين قال كده؟؟ أنا بحاول أعرض عليه تعديلات من وجهه نظري وهو حر طبعًا... وعايزك تعرفي إن القناة هي اللي محملة شخصيته كإعلامي فوق طاقتها... الناس بقت بتعتبره سوبر هيرو... بطل منقذ بس للأسف... بطل بينقذ بالكلام بس... وكلنا تقريبًا بنسكت ضمايرنا بالكلام...

نمت حبات العرق على جبين خالد... تدور عيناه حوله كأنما يريد معرفة مصدر الطوفان القادم... مصدر الكلمات اللتي تخترق عقله المرة تلو المرة في إلحاح عجيب...

طيلة الأعوام الفائتة، استطاع خالد تدريب تعبيرات وجهه كي لا تكشف لحظات الطوفان التي يمر بها أثناء تسجيل برنامجه... لطالما كان الطوفان هو موهبته التي بنى عليها نجاح تحية للمصريين...

((.. لطالما كان نوره الخفي هو من بنى حب الناس له وشعورهم بالألفة... لطالما استغل النعمة في إنزال النقمة على الخلق..))

يظل منعزلًا طيلة الأسبوع بين تدريباته الرياضية والنوم وقراءة أو مشاهدة آخر التقارير عن برنامجه...

لا يبحث أبدًا عن حقيقة تزلزل قناعاته أنه يفعل ما يجب عليه فعلًا وزيادة... الحقيقة مسؤولية أمضى السنوات الأخيرة من عمره في إيهام نفسه أنه يتحملها...

((... أمه... حق الشهداء... العدالة... الحرية... الحب....))

الشيء الوحيد الذي لم يستطع السيطرة عليه هو الكلمات على ظهره... تسوء الحالة رغمًا عنه... تتنوع ألوان الكتابات على ظهره ويسيل منها الصديد أحيانًا... تسوء حالته النفسية رغم نجاحه الشديد... تصر الكتابات على تذكيره بواجبه الذي يتقاعس عنه يوميًّا... تصر على تنغيص خداعه المستمر لضميره والنور المكبوت في ظلمات حياته الجديدة...

((... خايف أروح أكلم الأستاذ خالد يضربونا... ممكن معاه حرس ولا حاجة...

... لا يا عم روح... خالد ده بتاعنا...

... محدش بتاعنا.......))

يقترب رجل خمسيني محني الظهر... يختلس ابتسامة ونظرة سريعة... يبتسم خالد ويهز رأسه... يشير الرجل بإصبع مرتجف نحوه...

- أستاذ خالد...

- أيوة... أهلًا بك..

يتقدم الرجل محنيًا... يمسح يده في صدر قميصه ثم يمدها لخالد...

- أهلًا يا خالد بيه... نورتنا وحياة ربنا..
- أهلا بك...
- يا باشا كنت عايز أكلمك في حاجة... عارف إن ده مش تسجيل البرنامج... بس نفسي أكلمك...

تتنحنح نورين وتتسع عيناها تحذيرًا لخالد...

نورين هي المسؤولة عن إعداد تقارير البرنامج والآراء حوله لخالد، هي من ينتقي ما يجب عليه رؤيته وتحجب ما دونه. هي المسؤولة عن عزله عن الناس بأسباب ملفقة، وما أكثر أسبابها وعلاتها...

لا يجب أن يختلط خالد بالمصريين... يتركون له إمام على مضض ويؤكدون له يوميًا ضيق أفقه وأحادية تفكيره بطريقة بسيطة محترفة...

- أ... طيب حضرتك ممكن تبعت إيميل للبرنامج بمشكلتك... نورين اديله......
- إيميل إيه بس يا خالد بيه... هو عاد حد قادر يقطع من قوته ويدفع اشتراك إنترنت؟ حتى محلات النت قفلوها بعد ما قتلوهم كام عيل من بتوع البلاي ستيشن علشان حرام... أبعته منين بس...
- طيب اتفضل قول...

تتنحنح نورين مرة أخري وتخرج كارت أسود مذهب عليه اسمها...

- اتفضل يا حاج... كلمنا طيب في التليفون وأنا هوصل رسالتك لأستاذ خالد...

رفع إمام حاجبيه ورمقها تعجبًا... ابتسم في سخرية ثم استأذن قائمًا متأبطًا الرجل الخمسيني...

- ماتتعبوش نفسكم... أنا هشوفه عايز إيه...

انتظرت نورين لحظات حتى اندمج إمام في الحديث مع الرجل..

- خالد... أنا زهقت... ممكن نقعد في مكان تاني؟
- ليه بس يا نور... المفروض تنبسطي بالجو السياحي ده... على فكرة المكان ده مش شعبي، ده أثري... في فرق...
- مش مهم... بس مش مبسوطة... قاعدين في الشارع كده والزحمة دي... دكتور إمام ذوق فعلًا ويحبك...
- أخويا والله العظيم الرجل ده...
- نفسي بس يسمع وجهة نظرك بصدر رحب شوية... دماغه نضيفة... مشكلته بس إنه بعيد عن جو الإعلام والقنوات... مش فاهم اللعبة ماشية إزاي...
- إمام دماغة نضيفة وفاهم بس زي ماتقولي شكاك وواخد الدنيا على صدره..

عاد إمام مقطبًا جبينه ومن خلفه تجمع المارة وتشجعوا على الاقتراب أكثر...

مسحة مخيفة في الوجوه لم يعتدها خالد... نظرة تشبه نظرات موتى يصرون على الحياة، أو أحياء يشتاقون للموت...

((... ماردش عليك..

بس ما اتضربتش... الحمد لله...

... أكيد هايتصرَّف...

... مين قال إنه هايتصرَّف...؟

... إحنا مستنيينه يتصرَّف ولازم يتصرَّف...))

لأول مرة يسمع خالد تلك النبرة في أصواتهم... الاحتياج... انتظار جودو الذي لا يجيء...

انتظار المهدي غير المنتظر...

انتظار المخلص المحتاج إلى الخلاص..

يقترب الناس أكثر... يمدون أيديهم للمسه... يتطور الأمر سريعًا فتقوم نورين متحفزة متراجعة إلى الخلف... تخرج الصاعق الكهربي من حقيبة يدها في ذعر...

- محدش يقرب... بقولكم محدش يقرب...

لا تبدو المبالاة على الوجوه... يمدون أيديهم ويقتربون أكثر... يبتسمون في رجاء يمزق القلوب...

- ماتخافيش يا آنسة نورين... اتفضلي إنت على العربية وأنا هاتصرف...

تتسمر عينا خالد على الوجوه... يشعر بشيء دافئ يسيل من كتابات ظهره...

الصديد مرة أخرى...

((.. أستاذ خالد... أخيرًا..

... الحقنا يا أستاذ خالد... بنتي بتموت من.........

.... الميّة... أرضنا نشفت.....

.... اغتصبوا مراتي ومعرفتش أعمل حاجة...

... أنا مش كافر والله العظيم..

.... رمضان كريم.. رمضان بقا طول السنة الله أعلم إمتى هانفطر...

... منابر السلطان كل كم شهر بتدعي باسم..

... ولما رحت القسم حبسوني وعذبوني... حتى بص حضرتك...))

((... أموت بدائي ولا أصيب مُداويا ولا فَرَجا مما أرى من بلائيا

إذا كان داء العبد حُبُّ مَليكهِ فمن دونه يُرجى طبيبا مُداويا

مع الله يمضي دهره مُتلذذا مُطيعا كان أو كان عاصيا

يقولون عبد جُنّ من بعد صِحة وما بي جنون يا خليليّ باديا

إلا أني غريب مُلقى على الثرى أرعى نجوم الليل سهران باكيا..))

يحول إمام بينهم وبين خالد بجسده... نظرة عدم التعقل تخيفه هو شخصيًا... الوجوه الضامرة والمشية المترنحة تذكره بعم رأفت...

((.. قصره... أنا جيت أقولك تقول لصاحبك بكفايانا كلام يا بيه... زمان كنا بناكل من الكلام ده... دلوقتي الكلام بقا في سم...))

يسمع خالد همسات أفكار رأفت في ذهن إمام... يدفع الناس إمام فيسقط فوق خالد وينكسر الكرسي الخشبي...

تهرع نورين إلى داخل حمام المطعم وتخرج هاتفها المحمول...

- فريد تعالى حالًا... الناس هجموا علينا وهايموتونا...

تدافع القوم ولازالت بسمتهم على وجوههم لم تتغير... بسمة مجنونة حزينة بلا شبيه في بسمات البشر...

((... بحبك أوي يا أستاذ خالد...

... إنت اللي خلصتنا من تجار الدين... خلصنا بقا من فقرنا وجوعنا...

خلصنا من اللي بيضربونا ويسحلونا...

... مالناش غيرك يا بيه..))

- يا جماعة اعقلوا... واحد واحد وهانسمعكم... مش هايمشي غير لما يسمعكم والله...

مد رجل ضخم كلتا يديه غاضبًا وحمل إمام من ملابسه مبعدًا إياه من فوق خالد، ثم تحول وجهه إلى وجه دب يبتسم ومال فوق خالد يتحسس وجهه في حنان مريب!

- خالد بيه... حضرتك بجد؟؟ والله في عز محنتنا كنا بنرفع راسنا ونبص على بوستراتك ونقول فينك... إمتى هانشوفك...
- يابيه ده حمو أبن أختي طلع فوق عمارة المنيل وسرق البوستر بتاعك حطه في أوضته... وكل اللي نفسه يشوفك ييجي عندنا...
- مالناش غيرك يا بيه... إنت اللي بتحس بينا...

زحف إمام حتى وقف أمام خالد مرة أخرى، عدل وضع نظارته وهتف في الجمع...

- جرى إيه يا أخواننا... ربنا موجود برضو... خالد مجرد إعلا..............

تلقى إمام لكزة في معدته تراجع على أثرها خلف الخالد الذي قام متحفزًا غاضبًا...

- بتضربوا الرجل ليه؟ بالراحة ونتكلم مش كده... مش في الشارع... شرفونا يوم ال...

((.. الكفرة اللي بيتفرجوا على الدلدول خالد تحية متجمعين حوالية... ناقص يسجدوله...))

((... ربنا مش هايرضى عنهم أبدًا... دول حطب جهنم... نخلص منهم ومنه علشان يبقوا عبرة لمن يعتبر..))

((.. المكافأة هاتبقا كبيرة وهنغرق فلوس...))

قطع خالد كلماته وتلفت حوله محاولًا معرفة مصدر تلك الكلمات... وقفت سيارة مرسيدس سوداء خلفهم ونزل منها أربعة رجال أمن خاص تعرف عليهم خالد...

دخل الرجال وسط الجمع المتحلق يقفون بين خالد وبين الجمهور الشغوف، بينما استند إمام من خلفهم على صديقه ومن ورائهم نورين المذعورة المحتمية بباب المطعم الزجاجي...

- اتفضلوا يا جماعة كل واحد يروح لحاله... مش عايزين زحمة...

يلوح كل منهم بمسدس فوهته إلى أعلى في إشارة مفهومة للخيار الثاني البديل لانصرافهم...

تدافع الناس نحو الرجال الأربعة كأنهم غير مرئيين... يحاولون تسلق أجسادهم للعبور...

- خالد بيه ونورين هانم وحضرتك... اركبوا العربية وإحنا هانتعامل معاهم...

- مفيش ضرب نار لو سمحتم...

- ما تقلقش يا خالد بيه... اتفضل حضرتك وهانتعامل مع الموقف على قدره...

حمى خالد بجسده نورين بينما سار إمام خلفها ملتوي النظارة...

- مكانك يا... يا بتاع اليو سي بي يا (........)

رفع خالد عينيه ليجد خمسة رجال ملثمين يشهرون الكلاشنيكوف في وجهه... صرخت نورين فالتفتت الحراسة الخاصة نحوها... في تشكيل عسكري بدأوا إطلاق النيران نحو الملثمين بينما بدأوا في استدعاء المزيد من الحرس...

((.. أمـوت بدائي ولا أُصيب مُداويـا .. ولا فَـرَجا مما أرى من بلائيـا..))

تحلق الجمع مرة أخرى حول خالد غير مبالين بطلقات الرصاص، من يسقط منهم يطؤه الآخرون وصولًا لهدفهم...

- إمام... اهرب إنت ونورين... محدش هاييجي وراكم...

- بس يا خالد...

- اهرب بقولك...

دفع نورين إلى صدر إمام فتلقاها الأخير في توتر... مال بجسده يحميها وسار بها بجوار الحوائط ... ثوان حتى وجدا سيدة ترتدي نقابا كحلي تمسك بنورين وتجذبها إلى مدخل أحد العمائر...

- ماتخافيش... تعالي يا أستاذ... تعالوا... إحنا لا من دول ولا من دول...

جاء من خلفها شاب أصلع يطل من مدخل شقة أرضية مظلمة، يحمل شمعة ضخمة في يده...

- ماما... جيني... مين دول؟

- في ضرب نار يا بني... نورلنا... تعالوا يا جماعة ماتخافوش... ده محمد ابني...

دخل إمام ونورين يتحسسان طريقهما في الشقة الضيقة الرطبة المضاءة بالنور القادم من الشرفة...

توجهت نورين في ذعر إلى الشرفة تحاول أن ترى ما يحدث...

توقفت موسيقى المولوية منذ دهر إلا أن صداها مازال يتردد في الآفاق... أغلقت الحوانيت فهم معتادون على مواقف مشابهة...

ترى خالد من بعيد قد جندل أحد الرجال في مهارة واختطف سلاحه، يستخدمه كهراوة لضرب المتكأكئين عليه من المعتدين...

رجال الأمن الخاص يحولون بينه وبين القتل المحقق... لم يأت المدد بعد إلا أن مدد الملثمين في تزايد ملحوظ...

يتساقط فوق خالد أفراد ملثمين من أسطح المنازل المنخفضة محملين بالسيوف... بعضهم لا زال يحاول اقتناصه من علٍ بالكلاشنيكوف...

معركة غير متكافئة بالمرة صدها عنه درع بشري من محبيه الذي أغرقت ملابسه دماؤهم...

((... الحقنا يا بيه..

.. سينا... *احنا نستاهل*...

... *هي موتة ولا أكتر*....

.. *يارب أموت المرادي!!!.....))*

استسلام كامل منهم كأنهم يبذلون حيوات أناس آخرين، يضرب خالد ملثمًا في وجهه بمؤخرة الكلاشنيكوف فيسقط سيفه.. يقف خالد ممسكًا بالسلاح الناري المقلوب بيده اليسرى والسيف بيده اليمنى... يدفع أصحاب السيوف عنه بمهارة شديدة دون إصابتهم بجروح قاتله...

((.. مش عايز أموّت حد... مش عايز أموّت حد..))

((.. واللي ماتوا تحت رجليك دول؟ طب واللي عايزين يموّتوك؟هم اللي بدأوا... ما تبقاش جبان... زمان استبيعت علشان بنت ما تعرفهاش... دلوقتي إنت عارف تستخدم السيف والسلاح اللي في إيدك إزاي... خليك رجل...))

تسلق سور شرفة أرضية منخفض ووقف فوقه لرؤيه أفضل... دس السيف في حزامه بحذر ثم أمسك الكلاشنيكوف يحصد به الملثمين...

من بقي من محبيه لا زالوا يتسلقون السور، يمسكون بملابسه ويجذبونه...

تمزق قميصه من التقاء الكم الأيسر، وانكشف ظهره...

انكشف الصديد المختلط بالدماء يغرق ملابسه وأيدي الجاذبين...

ارتبك وأخفض سلاحه... ظهره يضيء بضوء خافت واضح...

- الله أكبر!!!! ملاك!!!

للحظة سكت الجميع متجمدين في أوضاعهم... يقيمون موقفًا لا يدرون عن أبعاده شيئًا...

الملثمون يخفضون أسلحتهم ببطء وارتباك... يهتف من بدا أنه قائدهم...

- شيطان... ساحر... إشارة من ربنا أهه... اقتلوه ولو كان ده آخر حاجة تعملوها... اقتلوا المسيخ!

* * *

((الرابع... جيدولاه... الرحمة... حجر الجمشت... العصا... تشاشماليم...))

- .... بس أحسن ما في الموضوع هو جنازتي اللي بيعملها عبيدي كل فترة... لذة الدفن فعليًا في تابوت تحت الأرض... بس الكلاب كانوا فاكريني ساحر... بشري زيهم... في مرة سابوني تحت الأرض وماخرجونيش في الميعاد... فاكرين ممكن يخلصوا مني... مش بقولك أغبيا...

للأسف خسروا أكتر من نصفهم في ساعة واحدة... أجبرت اللي فضلوا ياكلوا معايا من جثث أخواتهم وأولادهم وأزواجهم... أصل اللي أكل لحم أخوه مرة مايقدرش يرفع عينه تاني...

الحكاية دي بيحكوها لحد دلوقتي للأجيال الجديدة كأنها حصلت إمبارح...

الخوف... والطمع...

مقابل خوفهم عاشوا أسياد على غيرهم... غناء فاحش ومناصب مهمة في البلد... كانوا هم إيديا اللي بحرك بيها اللي حواليا... للأسف... مر أوي إني أعترف بحاجتي للبشر أمثالهم...

بس كنت بسأل نفسي... فين دوري؟ فين الطوفان وفين مُلكي... هو ده بس؟؟...............

* * *

- خلود... إنت صحفية شاطرة ويسرنا إنك ترجعي تشتغلي معانا تاني... عارفين إننا مش مشهورين ومرتباتنا ضعيفة... بس إحنا لوحدنا خالص... مفيش أي دعم...

لن تراجع... اتخذت قرارها بأن تترك العمل نهائيًّا مع القناة والصحيفة... كانت تتابع يوميًّا على صفحات التواصل الاجتماعي تطورات المشاهدين وتعلقهم المرضي بخالد تحية...

تشاهد عبر الأشهر الطويلة كيف لعبت الكلمات بالأنفس... أقامت حروبًا وألغت معاهدات... أماتت وأحيت... قتلت واغتصبت...

في البداية... كانت كلماته تغرق التعليقات في كل المواقع وكأنه تفاعل متسلسل... يستشهدون بكلماته الذكية المضحكة ولقاءاته مع الجماهير... تحول الأمر بعدها إلى ترقب يظل فيه الناس في الشوارع ينتظرون أن يكونوا هم المختارين لتلك الليلة...

تحملوا مضايقات ومناوشات كارهيه حتى احتدمت بينهم المناقشات إلى تكفير من طرف وتعالي من الطرف الآخر...

لا يزالون يتوهمون أن اللقاءات حقيقية... لا يزالون يسقطون مع سقوط الأنظمة الواحد تلو الآخر... لا يزالون يسقطون موتى... ويسقطون أحياء...

يجتمعون في الظلام يشاهدون التلفاز الوحيد في المقهى ويدفعون ما في جيوبهم مشاركة في المولد الكهربي...

ينظرون إلى لافتته الدعائية ويأملون أن ينتصر لهم أخيرًا...

أعادت خلود قراءة أول مقالاتها عنه بشكل حيادي... فعلًا... خالد هو صنم جديد، لا يختلف قليلًا عن يغوث ويعوق وأصنام العجوة الجاهلية...

إلا أن خالد لا يدري فعليًّا أنه قد أصبح صنمًا... حاولت الاتصال به أكثر

من مرة، إلا إنهم يضربون حوله سياجًا لا تستطيع اختراقه... لقد ابتعد خالد وعاش في الأوليمب بين السحب...

وابتعدت هي أيضًا حتى رأت نفسها من علٍ... رأت أن كمالها لا يأتي إلا بحرية إيمانها بقضيتها وحربها من أجلها... لن تحارب من أجل فرد أو اسم... الأفكار لا تموت...

تنضج مشاعرها رويدًا رويدًا وترى المؤامرة المنسوجة على معظم الفتيات... تتحل من حب يأتي لإكمال نقص يوهموها به... هي كاملة... واثقة في نفسها... لا تحتاج للتعلق برجل حتى تقف وتقيم عودها... الإيمان هو العمود الفقري لأي روح تتوق إلى الاكتمال...

صار خالد هو مجرد رمز ترى فيه حسرتها على شاب نام دهرًا ثم استيقظ على كابوس رهيب ظن أنه هو الحياة كلها... توحد مع الكابوس وصار جزءًا منه يزور الناس في أحلامها على أنه هو الحلم السعيد...

- مش مهم الفلوس... أنا عايزة أعمل حاجة غير مجرد مساندة برنامج مش محتاج دعمي... ساعات بحسهم عايزين يشتروني وخلاص...

- جميل يا خلود... عندنا أكتر من ملف محتاج نشاط وبحث... كل القضايا المهمة بقت خطر على الحياة يا خلود... أي كشف للفساد دلوقتي بقا تمنه الدم... أنا بقولك أهو...

تغيرت كثيرًا السيدة نانيس شحاتة... تجعد وجهها الجميل همًّا، وتغيرت توجهات مجلة إمباور وومن تمامًا حتى أنها قد زادت في الاسم الأجنبي معناه العربي مزخرفًا...

أصبحت أكثر اهتمامًا بالنساء فعليًّا... أكثر اهتمامًا بمصر بشكل عام...

لشد ما تغير المحن البشر...

- في عندنا ملفات التحرش الجنسي بالسيدات... والرجال كمان! هتستغربي أوي من الموضوع ده... في ناس استباحوا أعراض الأولاد الصغيرين والمراهقين... في انحراف جنسي شديد في المجتمع...

كان موضوعًا شائكًا بالنسبة لخلود... تجربتها القصيرة المريرة جعلتها أكثر نفورًا من الحديث في تلك المواضيع... لقد تم استغلال حياتها الشخصية بما يكفي... فيديوهات خالد في الثورة... مقالاتها الداعمة باعتبارها الفتاة المتحرش بها... تكرار آخر لتلك التيمات وسيظلها القراء تأخذ مواضيعها الصحفية على محمل شخصي...

- لا كفايا تحرش... هاهاها... ماتزعليش مني مدام نانيس... أنا تحت أمرك في أي حاجة تاني...

- طب في عندنا ملف بس ده خطر ومحتاج تحرك مدروس علشان ماحدش يعملك مشاكل وانت بتصوري الحالات... ملف أدوية التأمين الصحي اللي أدويته فيها نقص شديد في المادة الفعالة... الناس بتاخدها وكأنها بتاخد هوا وحالتهم بتسوء... في أطباء شرفا بيبلغوا بنفسهم وممكن يساعدوكم كمان... هم أصلًا بيعملوا اعتصامات عند وزارة الصحة بس مفيش لها تغطية إعلامية... والسبب واضح طبعًا...

بدا لخلود أن كل الطرق تؤدي إلى خالد تحية... لازالت والدته في غيبوبة غامضة إثر عقار تجريبي... إلا أن الموضوع لم يعد مقتصرًا على خالد وأمه... لقد أصبحت تجارة في أرواح الناس إلى جانب التجارة بإيمانهم وأديانهم...

يدسون لهم الموت في الطعام والهواء... في الأفكار والأديان... في الدواء نفسه...

تكلمت مع إمام كثيرًا عن هذا الموضوع وسعت معه في محاولة للإبلاغ عن

تلك الممارسات بلا طائل، إلا أن وضعها اليوم ينبئها بشيء... يريد الله منها أن تستمر في ذلك الاتجاه المقدر لها... يضعها مرة أخرى على طريق لما يسره لها وخلقها من أجله...

ربما كانت معرفتها بخالد من البداية فقط من أجل تلك القضية وتلك اللحظات التي تدرك فيها مغزى حياتها الحقيقي...

- موافقة يا فندم... أبدأ إمتى...

* * *

فتحت نورين شفتيها اندهاشًا وألصقت وجهها في زجاج الشرفة المغلق، بينما ضرب إمام جبينه بكفه وتراجع جالسًا على أريكة قريبة...

- بصي يا ماما... ده طلع بجد! طلع خالد تحية بينور بجد...

مسحت السيدة وجهها الغارق في العرق من تحت نقابها وهمست...

- لا إله إلا الله محمد رسول الله... سبحان الله يا بني... أكيد ربنا له حكمة في خلقه كده...

- ده مرض جلدي يا فندم... أنا دكتور إمام أبو زهرة الدكتور بتاعه...

- مرض جلدي بينور؟؟؟؟

- سبحان الله... ده ناتج عن... عن زيادة فسفور!

ارتجال لا يليق بطالب ابتدائي، إلا إنه كان التصرف الوحيد الممكن بعد ما سمع هتافات الناس عن كونه ملاكًا أو شيطانًا...

دمعتان سالتا من عيني نورين لا تعلم سببهما... لازالت كلمات العشق الإلهي تتكرر في عقلها محدثة دوامات هائلة... النور الصادر من جسد خالد يلمس شيئًا في عقلها الباطن...

وعقلها الواعي...

السيد صلاح الدولة النجمي...

قالوا لها منذ ولدت أن أباها مريض نفسي، يتلقى جلسات العلاج في القبو على يد السيد نفسه... السيد طبيب ولا يجب أن يتطلع أحد على الأسرار النفسية لحاشيته المقربين، خصيصًا أولاد فخر الدين...

تسللت نورين ابنه الثانية عشر إلى القبو... تعلم أن أباها بالداخل وجدها والسيد...

العميان يحملون أباها الغائب عن الوعي ويدخلون به إلى القبو...تتسلل بينهم وتضع بطاقة ورقية في كالون الباب كي لا ينغلق...

يقف العميان صفًّا ملصقين ظهرهم بالحائط، يجلس أبوها على كرسي غريب الشكل يتولى جدها شخصيًّا مهمة ربط وثاقه الجلدي...

يخلع السيد عباءته فتراه عاريًّا إلا من سروال حريري مغلق من أسفل على طراز عتيق...

يلف مسبحته الغريبة حول رسغه مع الخيط الأحمر الذي تلف مثله حول رسغها...

يقولون أن رحلة حياته كلها محفوظة في جواهر تلك المسبحة...

يوليها ظهره فترى كتابات بخط الطغراء العثماني تتحرك كالأفاعي على ظهره حول وشم قديم لجبل مقلوب... انطباع عام بأن وشم ظهره لطائر كبير...

يلتفت السيد نحو الباب ويراها... تتسع عيناها وتتجمد في مكانها... يبتسم السيد فتذوب روحها هيامًا...

تسمع صرخات أبيها ولا تراه... السيد يحجب الرؤية بجسده، فقط ترى تعبيرات وجه فخر الدين جدها وترتجف...

هذا الرجل يحتمل ما لا يحتمله بشري، لم لا يعترض؟ لم لا ينقذ ابنه؟؟

يسمون الكرسي كرسي المهرطقين...

تكتم صرختها للحظات ثم تفلت منها فتفتح الباب على مصراعيه... رائحة غريبة تفعم الأجواء وظلام أسود ينبعث من الكلمات على ظهر السيد...

عاصفة خاصة به تعصف بشعره وملابسه... عضلاته مشدودة متوترة وعيناه مقلوبتان بيضاوان إذ التفت إليها وابتسم مرة أخرى!

مرتفعًا في الهواء كان، يمد يده فترى مسبحته تتوهج كأنها الجمر...

يضع يده على جبين أبيها فينتفض الأخير ويزداد الظلام في الحجرة رغم الأضواء الساطعة...

لحظات ثقيلة مرت ثم انتهى كل شيء فجأة... ارتمت على ركبتي أبيها بلا دمع... تهتز فقط بلا صوت أيضًا...

ركع السيد أمام التابوت الأبيض صامتًا... أمسك بالخيط الأحمر حول رسغه وجذبه، غاص في جسده بلا دماء...

مزيج غريب من الخوف والاشتهاء يجري في دمائها الفتية...

لم تعرف لم سمح لها بالمشاهدة... قال لها فخر الدين أن السيد اختارها ليوكل إليها مهامًّا خاصة، أخبرها أن أبيها مهرطق كافر بمولاه والموت البطيء هو العقاب...

يطل الأسى متخفيًّا في ثوب الصلابة واللا مبالاة من عيني جدها...

تذكر ذلك اليوم كأنه البارحة ويعود إليها بمرأى ظهر خالد تحية...

ظهر يضيئه النور وظهر يعمه الظلام...

لقد اختارها السيد للزواج من مثيله... هل خالد من نسل السيدة في التابوت، زوجة السيد؟

كل هذا غير معقول... لتصدقه لابد لها من الاعتراف بكون السيد قديم خالد كما يدعون...

- عمومًا يا دكتور إحنا زي ما إنت شايف... لا بننزل نتفرج على القهوة على الأستاذ خالد، ولا بنقفل التليفزيون لما بييجي فيه وعندنا كهربا... الأستاذ خالد زيه زينا... كلنا بيستغلوا ضعفنا ولقمة عيشنا... ربنا يهدينا...

توجهت نورين فجأة مباشرة نحو باب الشقة في إصرار...

- آنسة نورين... رايحة فين؟

- خالد بيموت وعايزني أقعد أتفرج؟

- أنا جاي معاكي... إستني...

هتف الشاب الأصلع ممسكًا بكم إمام...

- إستنوا... بصوا هناك!

* * *

((.. الثالث... بيناه... الفهم... اللؤلؤ..... آراليم......))

- ..... عارف يا خالد الصحافة بدأت إزاي؟ في أوروبا في العصور الوسطى كان البابا بيكتب على مسورة بيضا أحداث السنة كلها والناس بتيجي تقراها... طبعًا بيكتب اللي يفيد انتصاراته ومكانته والباقي؟ الباقي كأنه ماحصلش... نفس اللي بتعمله قنوات الحكومة

مثلًا دلوقتي... سلطة بابوية متنكرة في شكل حديث!!

وأول ما عملوا جريدة مكتوبة، اللي كان بيكتبها مين؟ تجار الأخبار اللي كانوا بيلبوا رغبات الأغنياء وأصحاب النفوذ... ده غير المعلومات الخاصة من الجواسيس اللي كانت بتوصلهم لحد بيوتهم... مين اللي كان بيتعب ويكتب الكلام ده بخط إيده؟ العبيد... عبيد بيعرفوا يكتبوا اللي بيتملوه وبس...

نفس اللي بيعملوه بتوع القنوات الخاصة دلوقتي! ومشغلين عندهم عبيد بيتكلموا ومايفهموش!

لو عشت قد اللي عشته يا خالد هاتعرف قد إيه الدنيا مابتتغيرش... مملة وسخيفة كأنها نكتة بتتعاد كل يوم على إنها آخر نكتة!

الحاجة الوحيدة اللي بتتغير... العلم... بداية الطوفان كان من الطباعة... الأخبار بقت تنتشر وتوصل لكل الناس... بمغالطاتها ومصالحها... وبدأوا يستغلوا جهل الناس بشكل أكبر من خلالها...

الصحف فضلت خاضعة لنفس رقابة رجال الدين والدولة لحد ما صدرت في إنجلترا الدايلي كورنت سنة ١٧٠٢ صحيفة حرة مستقلة...

* * *

نظر الملثمون بعضهم لبعض ولم يعلقوا... إحساس غريب انتابهم...

((.. نعم؟ هو احنا بنعمل إيه هنا؟؟؟...))

((.... هو عملنا إيه... ربنا يهديه بعيد عننا....))

((..... طب ما كنا نتفاهم معاه ينوبنا فيه ثواب....))

((.. أستغفر الله العظيم... كل دول ناس اتقتلت؟؟؟))

همسات غير منطوقة دارت بينهم... البعض استعد لجولة نارية أخرى بينما

تسمر الباقون مكانهم... حتى رجال الأمن الخاص توقفوا برهة منذهلين بما رؤوه...

- يا جماعة... أنا مش شيطان ولا ملاك... أنا بني آدم... بغلط زيكم وبحتاج زيكم وماليش حد يغفرلي إلا ربنا... أنا معرفش اللي في جسمي ده إيه بس أكيد ربنا إداهولي لسبب... إن كان الخلاف بينكم علشاني فأنا خلاص... اكتفيت...

((.. كفاية سم بقا..............))

نزل خالد وألقى السيف والكلاشنيكوف أرضًا... ظهره متقرح يخفت ضياؤه تدريجيًّا حتى يختفي...

رجل ملثم يطلق الرصاص نحوه فيعود الملثمون مرة أخرى لإطلاق النيران...

أصيب ثلاثة رجال أمن من الإمداد الجديد، زحف رجل جريح ممسكًا بالسيف والكلاشنيكوف وألقاهما تحت قدمي خالد...

((... اقتل... هو ده مصيرك... لازم تقتل... السلام خلاص مابقاش بيعيّش..))

أصيب خالد بطلق في فخذه لم يشعر به، التقط السلاحين وهرول نحو الملثمين يطلق زخات الرصاص في غضب فاقد الأهلية...

طلقات من الجانبين أصابته وأصابت من حوله... يتساقط المصابون من الملثمين على يد رجال الأمن، يهجم أصحاب السيوف من الخلف فيسمع خالد همسات نفوسهم...

((... أهو... ضربة واحدة في ضهره ونخلص..))

يدور خالد والسيف بيده يقسم القادم خلفه، انتهت طلقات الكلاشنيكوف فأداره واستخدمه كهراوة مع السيف واخترق صفوف من بقوا... يضرب على من اعتلى الأسطح لقنصه...

يزمجر كحيوان بري، زخات من أمطار حمراء هطلت من سماء آثمة فوقه... فوق الجميع...

تلقى أخيرًا رصاصات متتالية في صدره تراجع إثرها خطوات للوراء...

((...... إلا أني غريب مُلقى على الثرى .. أرعى نجوم الليل سهران باكيا..))

ثم سقط...

* * *

الكلمات الثانية

((.. الثامن... هود... المجد... الأوبال... الأسماء... بيني إلوهيم...))

- ..... لما وصلني الخبر.. حطيت رجلي على أول الطريق وفهمت أخيرًا فين ملكي... كان في جريدة على قدها اسمها السُلطة بس أنا كنت بتكلم على شيء احترافي... بعدها بسنة مولت توماس جرين علشان يدخل الطباعة أمريكا وأنشأت بالشراكة المادية مع جون كامبل، بوسطن نيوزليتر... ماكنتش شراكتي في المشروعين معلنة... مفيش إله بيحط اسمه على مخلوقاته! الألوهية إنك تحرك من ورا الستار وبس... تستمتع بتخبط الناس وعدم فهمهم...

يوم بعد يوم بشوف طوفان الكلمات بيزيد... اختراع التلغراف... التليفون... الإذاعة... وكل دول كنت بشارك فيهم وبحركهم عن بعد...

عبيدي اشتغلوا فيهم وبدأ يقالهم سلطة على الناس... بدأوا يرضوا بعبوديتهم ليا لإنهم أخدوا تمنها حاجات مافيش بشر يقدر يرفضها... الفلوس... السلطة... العمر الطويل...

* * *

بيب... بيب... بيب... بيب......

لم يفق بعد...

في حراسه مشددة تم نقل خالد إلى مستشفى دار الرعاية، ذات المكان الذي يرقد فيه جسد أمه المنهك...

يؤول الجميع إلى ذات المنتهى...

تم إخلاء الطابق الذي ستجرى فيه العملية لخالد طبقًا لأوامر السيد الدكتور محروم ثابت صاحب المستشفى شخصيًا...

أعلنت حالة الطوارئ في المستشفى وتناقل الخبر القنوات المختلفة عالميًا...

سقط تسعة وعشرون قتيلًا وعشرات المصابين في ليلة واحدة...

فتنة أخرى كغيرها من الفتن اليومية في مصر، إلا أن الخبر كان «خالد تحية... المهدي المنتظر أم المسيخ الدجال» وتحته ما تيسر من صور التقطها سكان المكان بهواتفهم... تلك الصور التي وافق السيد على نشرها شخصيًّا...

خلت طرقات المبنى الثاني من دار الرعاية من الأطباء والممرضات، الطبيب الأكبر صلاح الدولة النجمي قادم شخصيًا لإجراء الجراحة لخالد تحية...

خبر لن يتسرب أبدًا...

يترك السيد حاشيته في صالة الانتظار الضخمة ويسير منفردًا في الرواق الطويل المؤدي إلى حجرة العمليات الخاصة بالسيد فقط...

يعلو الوجوم وجهه... معركة حاسمة مع خصمة اللدود...

((.. لم تعد خصمًا... أنت أضعف من أن تخاصم صلاح الدولة النجمي....))

تهرب خصلة الشعر الثائرة فتغطي عينه الزرقاء الحقيقية، عينة البنية قد خضعت لعملية جراحية أزالت الصبغة منها فصارت زرقاء هي الأخرى...

لم يعد بحاجة لازدواج شخصيته... هو الآن كما هو... بلا مواربة...

يفتح الباب المزدوج، يقف على بعد خطوات منه فينغلق من خلفه...

خالد مسجى على سرير العمليات مغطى بملاءة زرقاء ... ضوء الكشاف الضخم القادم من أعلى يضفي عليه هالة لؤلؤية...

((.. الموت يشهر منجله ويقف على رأس السرير... ينظر بلا عينين لي... أنا... السيد فوق الجميع... كيف يجرؤ بعد انهزاماته أمامي... كيف يجرؤ؟؟...))

يخلع صلاح الدولة بذلته ويرتدي الملابس المعقمة... لا يزال العلم هو إيمانه الأوحد...

يضع فص الأفيون تحت لسانه فيختلط بلعاب قوامه سم العقارب...

((.. تمسد كوريتشينا شعرك الخشن... تقف ندا أمام الموت على الطرف الآخر من السرير... تبتسم لك وتمسح دمعة متلألئة... وتقطب لي...))

((.. أكانت تبكيني أم تبكي ابنها.....))

يضع موسيقى بيتهوفن المفضلة لديه... يرتدي القفاز ويزيح الملاءة عن الجسد الأسمر...

((... يطابق جسدك جسدي تمامًا... نفس النسب إلا أن لونك الأسمر

والضياء في داخلك، هما القرون التي تفصلني عنك... قرون ضللتني كما ضللني نهركم البائد عن لقائك... لكنني وجدتك... ولن أسلمك لخصم ضعيف...))

تيت... تيت... تيت...

لا يزال قلبه ينبض... الرصاصات الأخيرة أصابت الرئة إلى جانب عدة رصاصات أخريات أفقدته الكثير من الدماء...

((.. أعرف ما فعلته معي سيدة الجبل... لو توقف قلبك الآن فسأحييك أبدًا كما أحيتني... لو لم يتوقف فسأوقفه أنا...! لن أدع الموت يتلاعب مرة أخرى بابن سيده!..))

تتحرك كوريتشينا لتقف بجانب صلاح الدولة... بيضاء شفافة ترتدي النور... يمسك المشرط بيده ويضعه فوق الشريان السباتي لخالد...

((... للحظة اهتزت يدي... ماذا لو لم أستطع أن أحييك كما أحيتني سيدة الجبل؟ ماذا لو أنك فانٍ مثل أمك؟؟ لم أجرب من قبل تلك التقنية الغريبة رغم أني نظريًا أملك الأدوات العلمية اللازمة لها... ينظر لي ملاك الموت ويبتسم تهكمًا بلا فم... أضغط أكثر فوق شريانك... برفق...))

ارتعشت يده مرة أخرى... سحبها وطرق بقبضتيه على السرير... لا يزال بشرًا... لا يزال ضعيفًا... لا تزال هلوسات الأفيون تجسد له الموت ضاحكًا مستهزئًا...

تضع كوريتشينا كفها الشفافة فوق كفه وتتجه بها نحو ثقب الرصاصة الأولى...

((... وكأنها تهمس لي... عالج ابني كما عالجت غيره من البشر... هذا هو

*ما تبرع فيه... لو قتلته لندمت وأي ندم... **أسمع صوتها الهفهاف بأرمينية اشتقت إليها..))***

بيد كوريتشينا فوق يد صلاح الدولة، غرس مشرطه في خفة في صدر خالد... يفتح صدره ويباعد بين الأضلع مصلحًا رئته المثقوبة...

تيييييييت.....

يتوقف قلب خالد، يثور صلاح الدولة ويزمجر... يخلع غطاء أنفه وفمه المعقم ويلقيه أرضاً.. يكشف صفي أسنانه وتبيض عيناه... تضع كوريتشينا كفها على موضع قلب خالد وتنظر في توسل إلى صلاح الدولة...

((.. يبتسم هازئًا... يبتسم طامحًا في روح ابني... سأقتل الموت يومًا... سأقتله!!))

يمسك قلبه في صدره المفتوح بكلتا يديه ويضغط... ضربات الكهرباء تنعش القلب الطيب...

دززز...

مرتان يعود بعدها القلب إلى عهد لم يخلفه بعد... دقات رتيبة واهنة...

لمدة ساعتين أصلح بعلمه القديم البشري ما جنته يد البشر... لا زالت كوريتشينا ترقب ما يفعله وتصلي في صمت...

((.. ينظر الموت إلى كورتشينا ويهز رأسه... يتراجع خارجًا مختفيًا...))

تميل كورتشينا وتطبع قبلة على جبين حفيدها ثم تنتثر دخانًا أبيض فوقه... يمد صلاح الدولة يده محاولًا إمساك الدخان، فلا يقدر...

- كوريتشينا...

الدماء تغرق قفازيه... يقف وحيدًا يرمق الخيوط السوداء التي تجمع شقي جروح خالد... يتحسس الكلمات المزخرفة المتبدية في كتفيه...

((... راح أحكيلك عن الرب وعن إرادته وراح ترفض إنت... شو راح تستفيد من حكيي؟!!!..))

يدور في الحجرة...

((.. ما أنا..

ما أنا.... ما أنا!!!!!!))

يركل ما يجده أمامه... تسقط صينية الأدوات الجراحية أرضًا... يركع على ركبتيه ويمسك بالمشارط مجتمعة في كفه... يطعن بها جسده مرارًا في جنون...

((.. أنا لا أموت... لن أموت... ما أنا... ما أنا.....))

يجذب الخيط الأحمر حتى ينقطع... تبلغ الموسيقى ذروتها الهادئة المنومة... ويشق الأفيون عقله إلى نصفين... نصف يسأل ونصف يأبى تصديق الإجابة...

* * *

- ...... رجعت الولايات المتحدة بعد حرب ١٩٤٨..

أملاكي زادت ونفوذي... ماحدش يعرف غير إني رجل أعمال أمريكي من أصل مصري... عندي قنوات وصحف بيديرها حاشيتي...

بعد ظهور الفضائيات عملت قنوات إخبارية وترفيهية عربية... اشتغلت في أي عمل أساسه الكلمات...

ألحت عليا فكرة غريبة... عايز أروح أرمينيا...

مارحتش هناك مباشرة... عديت على نفس البلاد اللي عديت عليها

زمان... فلسطين... سوريا... العراق...

ظل الموت مش هاينحسر عنهم تاني... كل اللي شفته زمان انمحى كأنه لم يكن... طلعت الجبل... زي ما طلعته زمان... لوحدي... وقفت قدام الباب... وماسمعتش أي شيء...

دخلت... الرماد كان دافن كل حاجة تحته... هدوء غريب عمري ما سمعته...

همست... ماسمعتنيش... صرخت... ماسمعتنيش...

الحوض الحجري ميّته نشفت... اللي زاد حاجة واحدة... تمثال رمادي لست شعرها طويل... قربت منه وجيت أشيل التراب من على ملامحه... اتفتت...

سيدة الجبل... ماتت!

((.. في كتاب إينوخ، ها الكيانات انذكرت وما لوجودها تفسير... هيك كانت من قبل ما نجي هون... وراح تضل هون لحد ماتموت في يوم!

أنتم ستموتون... أنا لن أموت...))

جمعت كل الكتب اللي لقيتها ورجعت مصر...

قريتها في ساعات... الكتب بتقول إنها ما أحيتنيش من الموت... الكتب بتقول إني مامتش لحد دلوقتي... الكتب بتقول إن اللي عملته معايا كان علم أسود... زي السحر الأسود... لكن حدوده الرهيبة بتقف عند الموت الفعلي...

بس أنا عارف إني مش هموت... العلم اللي وصلت ليه بعمري الطويل والمعامل اللي تحت إيديا كلهم قالوا إني مش هموت...

اللي عملته معايا سيدة الجبل عند محدش وصله لحد دلوقتي لكن قربوا

أوي... بالكتب اللي معايا هقدر أخليك إنت كمان زيي وتعيش للأبد...

* * *

أصرت رقية على أن يعود إمام وخلود معها إلى المنزل ليشاركاها إفطار أول يوم في رمضان بعد يوم طويل قضوه في محاولات فاشلة لزيارة خالد...

جلس إمام مع زوج رقية، عمرو، في الشرفة يشاهدان المارة ويرمقان رمضان آخر بلا زينة ولا فوانيس... بلا فرح... بلا إحساس...

يسير الناس جافي الحلوق مترنحين في جماعات متفرقة خاليي الوفاض... مكسوري الخواطر...

- وبعدين يا أستاذ عمرو؟ عمر ما المصريين كانوا كده... لا جوع ولا فقر ولا جهل طلع كل القرف ده من جواهم، إيه اللي حصل؟

- اللي حصل إن القرف ده كان مكبوت سنين طويلة وبمجرد ما أتيح له الفرصة خرج في كل اتجاه... خرج في ثورة وخرج في قتل... خرج في إيمان وخرج في كفر...

- ماشفتش إمبارح... الناس مكانتش بتقتل... الناس كانت بتتلذذ بالقتل... حتى اللي كانوا بيتقتلوا، تحس باستسلام غريب للموت كأنهم بينتحروا...

- الناس دي ماتت يوم ما كل تيار استغلهم لمصلحته... فضيوا من جوه شوية شوية بعد ما تم استنزافهم... ثوروا هنا... حاضر... ثورتوا؟ شاطرين... ثورولنا هنا بقا كمان شوية... ثورتوا؟ طب معلش اتمردوا بقا حبة كمان... اتمردتوا؟ طيب منشكرين يا رجالة... كل واحد أخد إزازة زيت وكيلو سكر وأمكم في العش ولا طارت...

- عندك حق... الناس دي فقدت الثقة في كل الناس... حتى عشمهم في الجنة سرقوه منهم...

- كل سنة وإنت طيب... موسم تجار الدين وتجار قمر الدين واحد... الاتنين بينتعشوا في رمضان... كل واحد بيقولك اشتري مني أنا... أنا الأصلي والباقي مغشوش جزر... الباقي مغشوش شيعي وصوفي وأشعري... هايجيلك يوم تقول والله ما أنا شاري... فاهم اليأس من عبثية الحياة لما يحطوا حتى سور بينك وبين اللي خالقك؟

تتسع رقعة العرق حول الوجه في خمار رقية البني وهي تنظف الدجاجات على الحوض بينما تجلس جوارها خلود على كرسي بلاستيكي تنقي الأرز...

- مكانش له لزمة التعب يا رقية بجد... إحنا كلنا مالناش نفس ناكل...

- والله كان نفسي أعزمكم في يوم أحسن من ده... حسبي الله ونعم الوكيل في اللي سرقوا فرحتنا...

تسارعت الدمعات ساخنة على وجنتيها فمسحتها بظهر كفها... قامت خلود فاحتضنتها حتى كادت تبكي هي الأخرى...

- معلش... كله هايتصلح إن شاء الله... دكتور إمام بيقول إن خالد حالته مستقرة وقالوله نقدر نشوفه بكره... قدر ولطف الحمد لله...

- نفسي يسيبه من الشغلانة الزفت دي... قلبي مقبوض ومش مرتاحة وأنا شايفة اللي برنامجه بيعمله في الناس وفيه...

- يقوم بالسلامة إن شاء الله ولازم نتكلم... أقصد... تتكلموا معاه...

- إنت كمان لازم تكلميه... إنت اشتغلتي معاهم وبتقولي إن شغلهم مريب... لازم يصدقك... هو مكانش بيقرا مقالاتك ولا إيه؟

- ما اعرفش... تقريبًا مش كلها بيوصله... أو بيقراها وما بياخدش باله... برضو مقالاتي كانت في صفه وبتبرر له كل اللي بيقوله...

فرغ الرجلان من الوضوء فوقف عمرو بجوار المطبخ يتحاشى النظر المباشر لداخله وهتف...

- رقية... هانتزل نصلي العصر ونرجع نقعد فوق السطح... جهزي الفطار ونفطر فوق أحسن... السلام عليكم...

- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته... مع السلامة...

خلعت رقية خمارها وجففت عرقها ثم تربعت أرضًا تمسك برأسها من الصداع...

- آه... تعبت يا خلود والله... ربنا يهديهم... كل يوم خناق واعتصام وضرب من بعض ومن حكومة بشمتانة في خناقنا وبتنتقم من الكل... كل ما يمشوا حد بيجي الأسوأ منه... ومن غيظنا بنطلعه في بعض... مكتوب علينا الشقا يا رب...

- ربنا مش هايغير اللي إحنا فيه غير لما نتغير إحنا... مش عايزة أقولك بصي لنص الكوباية المليان... بس أنا شخصيًا الأزمات اللي بتمر بيها خليتني أحسن وخليتني أفكر أكتر وأدور على الحق أكتر... ناس تانية الفتن الدينية دي قربتهم من دين ربنا الحقيقي وخليتهم يدوروا عليه... مش بالكفر هانقوم تاني، لا... بالإيمان وبالعقل حتى لو صفصفت على ألف واحد بس قصاد ملايين غلط...

أحبت رقية خلود من أول نظرة... رأتها تزور أم خالد عدة مرات وحدها أو برفقة الدكتور إمام، ثم لهفتها اليوم وحزنها الصادق على ما حدث لخالد جعلها تتمنى أن يعود خالد القديم ويعود حبه للفتاة البريئة الحرة ابنة البلد...

لم تر نورين في المستشفى لا هي ولا جدها... لم تستطع ـ رغم محاولاتها ـ أن تجد مبررًا لتغيبها... تتمنى لو يعود أخوها... تتمنى لو لم تعد وحيدة في وجه مخاوفها وأحزانها...

يسير إمام جوار عمرو متجهين نحو مسجد بعينه...

- ما نصلي هنا وخلاص يا أستاذ عمرو...

- هاهاها... ما ينفعش... ورحت أصلي فيه مرة، خلصت وقعدت أسبح عادي... جالي اتنين واحد قعد من هنا وواحد قعد من هنا... مسكوني من فوق لتحتي... ليه مابتصليش كل الصلوات هنا؟ ليه مش مطول لحيتك وحالق شنبك... ليه بنطلونك طويل؟ قعدتك في التشهد مكانتش مضبوطة! تصدق يا دكتور... مش هاقاوح وأقولك إني مكنتش غلطان في حاجة من اللي قالوه، بس هل دي طريقة ترشد بيها الناس؟ تعاليهم عليا طفشني... عينيهم بتقول إحنا اللي على علم وإنت جاهل... انت مخالف... إنت مش منا ومش هاتبقا منا... أخدتها من قصيرها ورحت أصلي في الجامع التاني... على العموم اللي بصليه واحد في المسجدين والحمد لله برضو بدأت أحسن من نفسي وأقرا علشان لما أقف قدام ربنا أبقا عملت اللي قدرت عليه...

سويعات مرت عليهم بين ذكر وقراءة قرآن حتى المغرب، يدور طفل بأكياس التمر والماء على الجلوس... حزن عميق مع الليل الأزرق المتسلل من النوافذ...

ودعاء يلهج على ألسنة المصلين، لإله واحد يعلم السر وما يخفى...

((... اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس...))

* * *

((... السابع... نتزاخ... النصر... الزمرد... المصباح والحزام... إلوهيم...))

ـ..... ابن خلدون قال إيه؟ قال: إذا استحكمت طبيعة المُلك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم...

كنت شايف أخيرًا العثمانلية بيقضوا على نفسهم بنفسهم... بشوف العنقاء بتنهار وبتشرب من كاس الدم اللي شربته لكل أرض خطت عليها...

العثمانلية يا خالد هم كابوسي الحقيقي... شفت فيهم من بداياتهم صلاح الدولة... الإله... مُلك شاسع وشجاعة... وملجأ للناس... وكنت بتحرق لما عرفت إنهم كانوا بيحاربوا في بدايتهم علشان الإسلام... مهما يقولوا عنهم يا خالد خليك فاكر إن أي دين هو مجرد ورقة يخوفوا بيها الناس علشان يركعوهلهم هم... عمرك شفت حاكم دافع عن دين علشان الفضيلة بس! علشان كده اتكشفوا أول ما حسوا إنهم فوق والناس كلها تحت... أول ما حسوا باللي بحس بيه أنا دلوقتي...

خالفوا الدين اللي كانوا بيتحاموا فيه... حطوا قوانينهم على مزاجهم... بدأ ضلهم يتراجع عن الأطراف... وبدأ التمرد يخضر ويكبر...

كان كل همهم هو هم الملك جيمس بالضبط... الخراج يجيلهم لحد عندهم وماتشوفش داعية واحد هناك... أنا مش مؤمن بأدياتكم بس للحظة اعتبرتها أيدولوجيات وخطط اترسمت صح،

والبشر بجهلهم مايعرفوش يسبكوها... ليه؟ علشان الطمع...

اللي انتو كنتم فيه ولسه هاتبقوا فيه تاني وتالت، هو حكم العثمانلية الجداد... نفس النكتة البايخة، بس من مونولوجيست بيضحك الناس عليه مش على النكتة... العثمانلية بتوع زمان، شاركوا بلاد أجنبية في ملكهم

وادوهم امتيازات كأنهم صحاب أرض... تخيل التخلف؟ تخيل الجهل والغرور الأعمى؟؟

بص يا خالد... دي عقود ملكية أجزاء من مصر... موقع تحتها باسم صلاح الدولة! العثمانلية الجدد والانكشارية الجدد باعوهالي حتة حتة بعقود ملكية أرض زي ماباع اللي قبلها منها لأنجيل ديلمونت... خليلهم الحكم... يمشوا، يفضلوا... يجي مليون صنف بني آدمين غيرهم ما يهمنيش... المهم إن أخيرًا الأرض دي بقت ملكي...

كل بلد اشترت جزء من بلدكم دي باعتهالي... باعتها لصالح دولهم وأمنها!... بلدكم ما بقتش بلدكم... بلدكم بقت عبدة تحت رجليا... هنتقم لكل سيد اتدفن تحت ترابها...

البلد اللي خصيانها وطباخينها وخدامينها يبقوا وزرا وقيادات... مستني منها إيه؟ لازم ترجع لأسيادها بأي تمن... وانتم اللي هاتطالبوا برجوع أسيادها تاني...

حبيبي، المصريين عبيد والسيد اللي مايحكمش عبيده، عبيده ما بيهربوش... لا... بيدورولهم على سيد جديد يحط رجله على رقابهم...

مهما اتعلمتم هاتفضلوا جهلة... العثمانلية دفعوا تمن موتهم ليا مرة بالدهب ومرة بالأرض...

ماتسألنيش أنا مين...

أنا كل اللي بتخافوا منه... وبتجروا عليه...

كنت موجود قبل ما أتولد... وهفضل موجود، مفيش حدود هاتقف قدامي ولا أسماء...

أنا... صلاح الدولة...

مفيش قدامكم إلا إنكم تخافوا... تخافوا أوي...

* * *

أغمضت نورين عينيها الحمروايين ورفعت رأسها لأعلى... لا تحتمل كمية العواصف الفكرية التي تقتلع ثوابت أفكارها وقناعاتها من جذورها... شعور الأعمى في أول لحظات إبصاره... الضياء يؤلم... الضياء يسلخ جلد الزيف من على جسد الحق...

- جدي... أنا عمري ما اقتنعت إن صلاح الدولة إله... إزاي بس؟؟ إنتو بتفكروا إزاي؟ أنا شفت بعينيا فعلًا حاجات غريبة ما تصدرش من بشر عادي... بس ممكنة... تقدر تقولي طيب لو إله هو خلق مين؟ خلق إيه؟؟ ليه مادافعش عن زوجته لما اتقتلت؟ ليه ما لاقاش ابنه السنين دي كلها؟

صفعها فخر الدين فسقطت من فوق الكرسي دامية الشفاه... تنظر إليه في غل وغضب...

- إخرسي... إخرسي خالص ما اسمعش نفسك... ما تسأليش... ما تفكريش... الحاجات دي أكبر من عقلنا مش هانفهمها... لو السيد سمع اللي بتقوليه مش هاستحمل أسلمك بإيدي له...

- زي ما سلمت بابا؟؟ بابا كان مجنون؟ بابا لما كان بيكلم إله تاني فوق محدش بيشوفه كان مجنون؟

- كان ستين مجنون... كان بيشوف الحق قدامه ويرفضه... كان بيسأل ويناقش ويقول لأ على كل حاجة... حتى لما أملاكه أخدها السيد منه ما بطّلش... لما عذبه ما بطلش... يبقا ده كان عاقل؟؟؟

قامت نورين تجفف دماءها بمنديل أبيض سرعان ما تلون بزهرة قانية متمردة...

- مين خالد بالضبط يا جدي؟ خالد ده حفيد صلاح الدولة صح؟ خفته عليه والخطة الطويلة العريضة دي كان لازمتها إيه؟ ما كان جابه وقاله إنت حفيدي وخلاص... ليه التضحية بالناس اللي ماتت دي كلها وليه اللعب باحتياجهم؟

تقدم فخر الدين خطوتين منها مبتسمًا بشفتين مرتعشتين... قناع من القسوة يخفي تحته أب مكلوم... وعبد مُهان... قبض على شعرها وجذبها إليه فكتمت صرختها...

- قعدتي مع المصريين هه؟ عجبوكي؟ صعبوا عليكي الحيوانات الجاهلة الدموية؟ لما خدوا الحرية عملوا بيها إيه؟ جاعوا واتشردوا وقتلوا واتقتلوا... إذا كان هم نفسهم قبل كده قسموا نفسهم خرفان وخنازير، بصعبوا عليكي إزاي؟؟

- مش حيوانات... ماصعبوش عليا لأني ما أعرفهمش... ما قعدتش معاهم... بس قعدت مع خالد... وخالد منهم...

- خالد حفيد صلاح الدولة النجمي... نسل نضيف، سيد عاش وسطهم علشان مكانش عارف قيمة نفسه...

- خالد بعد خمسميت سنة خلاص بقا مصري... عايزين منه إيه؟

جذبت شعرها من يده الضعيفة وعدلت وضع ملابسها...

- ليه اللفة الطويلة دي يا جدي؟ عايزين إيه من خالد؟

- عايزينه يبقا زي جده... محارب سيف ومحارب كلمة... عايزينه يحس

بعظمته وسيطرته على الناس... عايزينه يبقا ابن السيد ويكره شوية شوية عيشة الحيوانات اللي كان عايشها... إنت اللي عايزة إيه إذا كان هو نفسه لما عاش معانا سنة رجع لأصله الحقيقي ومقدرش يعيش في بيئته القديمة تاني... تلات حاجات البشر ما يقدروش يرفضوها...

مد ثلاثة أصابع مجعدة مرتجفة أمام وجهها وهمس...

- الفلوس... والسلطة... والعمر الطويل...

قطبت جبينها وأطرقت بوجهها أرضًا تفكر في رد يخرج بعضًا من تمرد يأكلها مع كل نفس...

صلاح الدولة ليس إلها... هو فقط لم يمت لأنهم يجهلون طريقة موته...

- ليه استغليتوا الناس طيب؟ إيه اللي دخلهم في أمور... أمور عُليا زي دي؟

- مفيش معبود من غير عبيد يا نورين... شفتي بقا إنك ظلمانا؟ إحنا إدينا الناس دي حرية اختيار معبودها بنفسها... الناس مش هاتختار معبود مش شايفاه ولا عارفة هو إيه ولا فين... الناس حتى مكانتش هاترضى بصلاح الدولة نفسه لأنهم ما يعرفوهوش...

والناس أعداء اللي ما يعرفوهوش... إنما هم عارفين خالد... ولما شافوا النور خارج من جسمه آمنوا بيه... هي دي الإرادة الحرة...

- أعذرني... حضرتك مش فاهم حاجة خالص عن المصريين ولا عن البشر... أنا كمان مكنتش عارفة عنهم حاجة ساعة ما جبتوني من أمريكا وخليتوني أجيب رجل خالد... الناس دي حبت خالد فعلًا واتعشموا فيه لأنه منهم وبقا في إيده سلطة يساعدهم... الناس دي مجنونة... زي بابا بالضبط!

أخذ فخر الدين نفسًا عميقًا وتحول غضبه إلى رفق مصطنع... مد ذراعه يطوق رأس نورين ويدفنها في صدره...

- نورين... كفاية كلام في الموضوع ده... إنت اللي باقيالي من ريحة والدك... أرجوكي كفاية مش هاقدر أشوف عذابك بنفسي...

- جدي... معرفش إيه اللي حصلي... ثقة صلاح الدولة فيا هي اللي حسستني إني لازم أفكر... لازم أبقا أحسن من بقيت العيلة اللي ما بتسألش وما بتفكرش...

- هو وثق فيكي... تخونيه؟

- أخون عقلي؟

- عقلك ملكه يا نورين...

- عقلي ملكي مش ملك حد...

خرجت برفق من بين ذراعيه وعبرت الباب الخشبي الأسود للحجرة...

لقد هامت حبًا بصلاح الدولة في مراهقتها... حبًا أكد في داخلها بشريته... حبًا انتقل إلى حفيده قبل أن تعرف أنه كذلك...

تمنت لو تلتقي بخالد... لو تلمس الضياء الخارج من جسده كما لمس الضياء قلبها الميت فبعثه من جديد...

كما استشعرت الظلام في حضرة السيد يجثم على الأرواح مزهقًا إياها... استشعرت النور يوقظ الموتى ويبعث الأمل...

رأت بعينيها لحظة توتر الرجال الملثمين حين أبصروا معجزة خالد الصغيرة... كيف توقف القتال وبدا الإشراق في الوجوه ولو لثوان قليلة... أمل رأته رغم الظلام والمسافة...

لم تحدد بعد وجهتها، لكن للحق اتجاه واحد، من الظلمات إلى النور...

* * *

تتزايد الأعداد ببطء شديد أمام مستشفى دار الرعاية... تبدأ بتلكؤ المارة أمامه ثم الوقوف في جماعات صغيرة...

يعرفون من الأخبار أن خالد بالداخل... لا يعلمون أي طابق لكنهم ينظرون إلى أعلى...

يهتف أحدهم...

- يا خاااالد...

ثوان تمر... يرد عليه صدى الصوت، ثم يخرج الأمن ليصرفوهم فيرحلون...

ويعودون بعد قليل بعدد أكبر... يقفون في زاوية لا تدخل ضمن حرم المستشفى... يقف أحدهم مستقبلًا القبلة فيصلي... يتزايد عدد المصلين خلفه...

يجلس فيجلسون... يتوارون في الشوارع الجانبية كي لا تعتقلهم الشرطة في ظل قانون لا يبيح التجمعات...

يحضر عدد آخر من الشباب من جهه أخرى... يدندن أحدهم بصوت مشروخ...

((... بقيت حاوي... بقيت غاوي في عز الجرح أنا ما أبكيش... بقيت راضي... أطلع من طلوع الفقر لقمة عيش...))

وعلى ضفاف النيل الطيني الذي تطل عليه المستشفى، يقف أناس صامتين... ينتظر القوم أن يسقطوا موتى بلا سبب كما جرت العادة...

إلا أنهم لا يسقطون...

يراقب الوضع أشخاص ملثمون... يجولون في خبث حولهم ثم يرحلون بضمائر موءودة بلا ذنب...

((.. بقيت قادر... أداري الدمعة جوايا ما أبينهاش..))

في الصباح يرحلون... عازمين على الرجوع مرات ومرات...

* * *

بيب... بيب... بيب....

يرى خالد رغم عينيه المغمضتين... يعلم أنه يحلم...

الحجرة المظلمة الباردة ورائحة المطهرات... ألم غير بشري يخترق ضلوعه...

ريقه جاف كحطبة... صوت آذان الفجر القريب...

((.. أنا كده أبقا صايم ولا لأ؟؟....))

لا يسمع الباب ينفتح، لكنه يشعر بضيق صدر وانقباض... جسم آدمي يرتدي ملابس غريبة هي خليط من عدة طرز... تذكره بالقصر فوق المقطم...

((.. كل نفس ذائقة الموت... أستغفر الله العظيم وأتوب إليه... أشهد أن لا إله إلا الله... هو خلاص كده ولا إيه؟؟))

بب... بب... بب... بب...

تتزايد دقات قلب خالد ظنًّا منه أنه الفراق... يقف الرجل أمام قدميه الممددتين تحت الغطاء...

- خالد...

يعرف من يكون... هو ذاته الرجل طويل الشعر في هلوساته...

((.. خالد.....))

((... نعم... إنت مين؟؟...))

((.. أنا السيد... المعبود... صلاح الدولة النجمي...))

((.. مين يا فندم؟؟ معبود إيه... إنت الرجل بتاع القنوات الفضائية الأمريكاني صح..))

((.. أنا هو لو هانتكلم عن اللي عرفه البشر عني... بس إنت مش أي بشر... إنت حفيدي!..))

((.. إزاي؟؟ إنت عايز مني إيه؟؟...))

((.. عايزك تعرف أنت مين وأنا ممكن أعمل منك إيه... عندك وقت تسمع؟ أكيد عندك وقت...))

* * *

بعد انقضاء ثوان بتوقيت البشر، وساعات كما شعر بها خالد، عقد صلاح الدولة ذراعيه وابتسم وهو يكمل آخر فصول قصته...

((... رجعت مصر بعد ما أسطورة العثمانلي انتهت وبقت تاريخ... اللي فضل عنها كلام محدش هايعرف حقيقته أبدًا...

رجعت سنة ١٩٢٨ ... رجعت لاسم صلاح النجمي... رجعت لأرض اتغيرت كتير، بس ناسها لسه عبيد بيجروا ورا نفس السراب...

لقيته شاب طموح... غلبان... لسه مؤمن بالوهم رغم إن الشمس لسه ميداه مابقالهاش شهور... لسه بيدور على خلافة تاني...

بس الفرق إنه كان مصري... عارف يعني إيه أرض... ويعني إيه وطن... وأنا مقلقش إلا من اللي بيفكر... على الأقل هو ده اللي أعلنه في كتبه وكلامه..))

((.. مش هو ده ....؟))

((.. أيوه هو مع إن الأسماء مش هاتفرق... حاولت بمعارفي أغير تفكيره من البداية... أفكك فكرته علشان على الأقل لما يموت، اللي بعده مايلاقيش حاجة يورثها...

غريب أوي تعريفه للإسلام... عقيدة وعبادة ووطن وجنسية وسماحة وقوة وخلق وثقافة وفن!

الرجل ده لازم يسكت...!

ولما اتقتل أخيرًا بعد ٢١ سنة... وقفت جنبه، بس مكانش شايفني... جوه كل واحد من اللي كانوا حواليه، لقيت بذرتي بتتحرك وتمنعه من إنه حتى يصعب عليه...

البذرة دي هي اللي بتخليني قادر ألعب بيهم... فاكر قدرتي على التحكم في الحيوانات؟ بالضبط هو ده اللي خلاني أتحكم في كل حيوان جواهم... وكان سهل عليا بعدها أخليهم عبيد الخوف والطمع... سهل أوهمهم بالخلافة العثمانية الجديدة... بس آخر كم سنة فيها بس... سنين الجشع والغرور...

الأفكار يا خالد بتموت بموت أصحابها الأصليين... ما بيفضلش منها إلا جثة بينخر فيها العفن، بيحركوها علشان يوهموكم إنها لسه عايشة...

خليهم يخلصوا على بعض... مايهمنيش... الآلهة مايهمهاش التفاصيل دي... يهمها بس عرشها حتى لو على أنقاض...

الطوفان هياخد في طريقه المؤمن والكافر... وفوق الجبل هترسى السفينة وفيها اللي أنا بس أختارهم...

العبيد مايقعدوش على العرش... أنا عايزك إنت... إنت ونسلك بس هم اللي خلفائي في الأرض...))

((.. أستغفر الله العظيم... إنت شيطان... ده حتى الشيطان عمره ما ادعى الألوهية... الشيطان مؤمن بالله يا... يا أستاذ صلاح!..))

((.. مين قال إني شيطان.. خالد... سلملي نفسك وجرب، هاتخسر إيه؟ على الأقل ردا لجميلي... بعالجلك والدتك... وبشغلك... وبديك الوهم إنك رجل وبتساعدها... إنك رجل ولك كلمة مسموعة من ملايين الناس... هاتخسر كل ده وأكتر منه؟...))

((.. هاخسر ديني علشان اللي إنت بتقوله ده؟ العمر واحد والرب واحد... أنا... أنا أكيد بهلوس... إنت مجنون... إنت عايزني أتحالف مع واحد ساعد إن الناس تموت من العطش والجوع؟ إنت السبب في إن النيل نشف!! إيه الجبروت ده!..))

((.. الميه يا خالد سجل أزلي... بتسجل كل اللي حصل جنبها وقدامها... مجرى مستمر من الطاقة، نادر أوي اللي يعرف يقرا السجل ده... لكنه موجود...

سألت نفسك قبل كده، ليه المصريين لما بيحزنوا بيقفوا جنب النيل؟ لما بيفرحوا بيترموا في حضنه؟ ليه بفطرتكم كده اخترتم النيل علشان تعملوا جنبه ثورتكم؟

طول ما النهر ده ماشي هايفضل بيهمسلكم... هايفضل يمد فيكم طاقة جواه من ملايين السنين...

كل الحضارات قامت على الأنهار... مش بس علشان الاستقرار، لا... علشان الأمل اللي بيجري فيها...

((... السيفر الأول... كيثير... التاج... الماس... الملاك: قابوس هاقاديش...))

نيل مصر بينشف يا خالد... دورتها الدموية اتسممت وركدت وهي مش حاسة...

ولما تقع... كلكم هاتقعوا معاها... الكلام ده علم مش شعر...

وإنت يا خالد ورثت الموهبة دي مني... عمري ما عرفت أقرا ميه النيل... لما ضعت مني أول مرة زمان... ماقدرتش أعرف مكانك منه... كدب عليا وغرقني في سيل مش مفهوم من كلام وصور... مكانش زي أركاس لما قالي مكان والدتك... الميه بتكدب على الغُرب...

الكلام على جسمك هو زي ما قريت في عقلك وقالك صاحبك... تسمم كلمات مش أكتر... الطوفان يومها في التحرير كان بيتحرك... وجسمك مع كل ضربة بتفتح مجرى دمك للحروف تدخله...

زي ما عملت ساحرة الجبل فيا زمان...

كل واحد فيكم عنده طاقات مايعرفش عنها حاجة... لو ماجاش الوقت المناسب لظهورها هايموت من غير ما يعرف إنها كانت موجودة أصلًا...

((.. السادس... تيفيرث... الجمال والتناغم... التوباز... صليب وردي... ميليكيم..))

الفرق بيننا إنك عايش... جرحك نور... وأنا... جرحي ظلام...

تخيل مع بعض ممكن نعمل إيه؟ خلاص يا خالد... سنين قليلة وأستعيد ملكي... من النيل للفرات... وأستعيد ملك الخزر في أرمينيا... يوم ما هاتقع تركيا أرض العثمانلي السفاح... هاتقع تحت رجليا...

((العاشر... ملكوث.. المُلك... الملح... الدائرة السحرية والمثلث... آشيم.......))

((مفيش حروب ولا سياسة تاني... صكوك الملكية هي اللي هاتحكم مين الملك..))

* * *

أيام عجاف مظلمة تنيرها فقط كلمات الله والصيام له وحده...

الظلام ليلًا بينما تسبح أماكن راقية بعينها في واحات من النور المتلألئ...

يقف أمامها المصريون وينظرون لأعلى... يتجمعون حول النور كفراشات، لأول مرة، تأبى الاحتراق...

تأبى الاحتراق...

لم يعد أحد يموت على ضفاف النيل...

((.. الناس اتقتلت علشان كانت بتدافع عن أستاذ خالد...))

((.. أستاذ خالد بتاعكم ده فتن الناس... قسمهم وفرقهم..))

((.. الناس متفرقة من زمان... أستاذ خالد اللي جمعهم..))

((... اللي هايبص للنور الخارج من جسمه هايفتن فتنة آخر الزمان... هو المسيخ وهايخبركم قريب بين جنته وناره...))

((.. خالد تحية... واحد مصري عادي وربنا إداله معجزة غريبة... هو ما استغلهاش... إحنا اللي خفنا إنه يهز بيها إيماننا المهزوز أصلًا فقررنا نقتله...))

((.. كفايه انقسام..))

((.. لابد من التفرقة بين الكافر والمؤمن في الأرض حتى لا يفتنه في دينه..))

يجرف الطوفان الناس يمنة ويسرة... لا حديث سوى عن خالد... الأمل الذي تبدى للحظات ثم خفت...

* * *

تمر الأيام ويفتح خالد عينيه لأول مرة دون أن يشعر بذلك الألم...

يرى إمام جالسًا بجانبه يقرأ القرآن بصوت هامس خفيض...

- ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ صدق الله العظيم... خالد!

- صدق الله العظيم...

- حمد الله على السلامة...

- الله يسلمك يا أخويا... مش عايز أنام تاني... شوفلي حاجة تفوقني...

- هاتفوق... بتقلل المسكن تدريجيًّا أهو وهاتفوق وهاتبقا زي الفل... وبعدين هو النوم وحش... نام يا أخي وارتاح...

- لما بنام بحلم بكابوس واحد طويل ممل بيتكرر بطريقة سخيفة... بشوف فيه واحد كافر بيدعي إنه إله... يا ساتر... الغريب إن الجدع ده معروف... رجل أعمال أمريكي...

- هاهاها... البنج ومن بعده المسكن يعمل أكتر من كده! معلش...

- إحنا كم رمضان...

- ٦... ما فاتاكش كتير غير إننا أكلنا جوزين فراخ من عند مدام

رقية... حاجة بيتي كده ضحى وجنة مقضينها جري وورا الفراخ فوق السطوح...

- رقية فين وضحى؟ عاملين إيه؟

- رقية كانت هنا الصبح وراحت عند الحاجّة في المبنى التاني تبص عليها... وضحى بقت عروسة أهو بتعمل الفطار في البيت...

ابتلع خالد ريقًا مدججًا بالخناجر ثم أمسك بكف إمام الممسكة بالمصحف...

- إمام... عايز أحكيلك الحلم... الحلم ده فيه تفاصيل عمري ما سمعت عنها... مماليك وعثمانلية وواحد يهودي فوق جبل الطور... ده ولا الأفلام... اسمع...

لمدة ساعة ونصف ساعة متواصلة حكى له خالد في لهفة أحداث خمسمائة عام مرت على صلاح الدولة النجمي... تتسع عينا إمام وتخرسه الأحداث مفاجئة...

- متأكد إنك ما قريتش رواية ولا شفت فيلم فيه الأحداث دي؟

- متأكد... أنا شخصيًا ما أعرفش أي حاجة عن أمريكا ولا الملك جيمس ولا أي حاجة من اللي قالها...

- طيب أنا هكتب اللي إنت قلته ده في ورقة وهدور عليه في الإنترنت وأشوف المعلومات دي صح ولا خيال...

- خلي بالك من نفسك يا إمام...

- ماتقلقش...

ودع إمام خالد متوجهًا إلى منزله مباشرة داعيًا الله أن تكون هلوسات خالد مجرد هلوسات...

* * *

يسرع إمام الخطا ليلحق بخلود التي اتصلت به، متوترة متلهفة، تطلب لقاؤه للأهمية القصوى...

رآها تجلس على السور أسفل مقر عملها بشارع الأنتيكخانة... لا يزال الإفطار بعيدًا... تراب الخماسين يحيل لون شعرها للون القش...

- آسفة يا دكتور، مقدرتش أستنى لبعد الفطار... خالي جاي ومش هاقدر أنزل تاني النهاردة...

- خير يا آنسة خلود...

فتحت خلود كومبيوترها المحمول وغطت بكفيها ما حول الشاشة لتقطع إنعكاس الضوء فحذا إمام حذوها لرؤية أوضح...

- أنا شغالة اليومين دول على ملف الأدوية المغشوشة اللي بتتعمل تحت السلم وتتعبى في علب أدوية أصلية... قابلت بعض المرضى اللي اتضرروا من الموضوع ده... أثناء وجودي في المستشفيات التابعة لوزارة الصحة والمستشفيات التعليمية، لقيت حاجة غريبة... في دكاترة هناك بيدوا أدوية تجريبية للمرضى مالهاش علبة ومكتوب عليها أرقام... زي ما حضرتك حكيتلي عن والدة خالد... معايا منها أقراص في الشنطة... بيجربوا عليهم الأدوية بموافقتهم مقابل إيه؟

- فلوس طبعًا...

- هاهاها... ده كان زمان موضوع الفلوس دي يا دكتور... مقابل كيلو لحمة وكيس فيه تموين مايكفيش تلات أيام!

- وصلت للدرجادي؟؟ الحقيقة إني بعيد خالص عن الشغل في المستشفيات من زمان... مجرد شغلي في عيادتي والوقفة في الصيدلية بليل وخلاص...

- المهم... دورت أنا والصحفيين اللي شغالين معايا عن مصدر الأدوية دي... لقيتها شركة داات للأدوية... كان عندكم حق... كل الدكاترة اللي بتتعامل مع الشركة دي بيفرضوا على مرضاهم أدوية الشركة لأنهم بياخدوا نسبة...

- طيب نتحرك إزاي دلوقتي؟

- هانحاول نثبت إن الدكاترة بيوزعوا الأدوية... هانبلغ وزارة الصحة...

- مش هايسألوا فيكم لأن واصلهم حقهم ناشف... جربنا قبل كده... العبي غيرها...

- طيب... منظمة الأغذية والأدوية؟

- المنظمة سامحة بالتجارب دي ونايبها من الحب جانب...

سعلت خلود طاردة يأسها مع ذرات التراب ثم صاحت...

- نعمل إيه طيب؟؟ مقفولة من كل ناحية!

- إنتم كصحفيين لازم توعُّوا الناس الأول عن خطورة الأدوية دي والأهم تلاقوا بديل تسدوا بيه احتياجهم للأكل والفلوس... ومن قبل تاخدوا الناس دي تعملولهم محاضر... ممكن نصعد الأمر دوليًا... الهدف من كل ده كشف الموضوع وعمل قلق للشركات دي فيخفوا عنا شوية... لكن الحقيقة مش هايمشوا ومش هايخافوا ولا

هايبطلوا... إحنا اللي لازم نقفل في وشوشهم سوق الاستغلال ده...

- يااه... إللي انت بتقوله ده محتاج عمر تاني... بس هو فعلًا في أطباء وصحفيين ومرضى بقالهم فترة بيتظاهروا قدام وزارة الصحة وقدام التليفزيون ومحدش بيسأل فيهم خالص... كأنهم هوا... وبعدين؟

- نبدأ المهم والنتيجة على ربنا... السنادي ولا كمان عشرين سنة... كل حاجة هانعملها النهاردة هاتفرق في حياة ولادنا...

هزت خلود رأسها وابتسمت... ها هو الطريق يفتح أمامها لتستعيد ولو ذرة من حق شعب تم إهدار كرامته فعامله حكامه كما تعامل فئران التجارب... أمل نما داخلها رأت انعكاسه في عيني إمام...

((... في الأيام الضلمة امسك في أي خيط نور وماتستقلش بيه..))

* * *

هدأت الأتربة مع قدوم المساء الربيعي... تشاهد نورين في مكتبها تفريغات كل ما تم تسجيله لخالد في برامجه أو عبر الكاميرات المندسة في شقته بالمقطم...

لم تهتم بمشاهدتها من قبل فكانت تظن أن حياة خالد هي حياة عادية مملة، رأت الآن لحظات معاناته لكبح جماح مرضه الغريب...

الألم والهلاوس... الحروف المنقسمة مختلفة الألوان...

تشبثه وقت شدة الألم عليه بشظية صغيرة بلاستيكية لا تدري ما هي...

تدرك تزايد الاختلاف في الألوان على ظهوره كلما انقسم المصريون فرقًا وشيعًا...

في البداية كانت الكلمات واحدة... ثم انقسمت بمتوالية هندسية أوجعت قلبها الذي ولد منذ أيام فقط...

مسموح لها بالتجوال في طرقات قصر السيد... هي فقط وجدها مسموح لهم برؤية محتويات الأبراج العشرة في كل قصوره عبر العالم، لكنهم أبدًا لا يدخلونها...

يقول تاريخ السيد أن تلك الأبراج ترمز لطبقات شجرة الحياة... اعتكف السيد عشرات السنوات للوصول لقوة كل طبقة... يحتفظ السيد بتلك القوى محفورة في ذاكرة الأحجار الكريمة المختلفة في مسبحته...

دائمًا ما يمزج السيد في أسطورته بين العلم والخرافة...

تعلم أن للأحجار الكريمة مجال طاقة خاص بها وذاكرة تحتفظ بحياة كل شخص لمسها... لكن من المستحيل أن تجمع قوى السيد المستمدة من خرافات في هكذا أحجار...

شجرة الحياة فلسفة وليست شيئًا ماديًا...

هل السيد أيضًا فلسفة وليس شيئًا ماديًا!!!

تنزل إلى القبو... بابه حديدي مبطن بمادة عازلة للصوت... منقوش على الباب أجساد مكدسة معذبة بعضها فوق بعض يتوسط الباب كلمة «داات» بالعبرية...

الهاوية...

الطبقة رقم صفر من شجرة الحياة...

يقف العميان صفين على باب القبو، يميزون جيدًا الأشخاص بوقع أقدامهم... يتحدثون لغة أرمينية قديمة يتقنها فخر الدين ويلقي لهم بها الأوامر...

تفتح فمها لتأمر بفتح الباب، إلا أنها تسمع وقع أقدام تأتي من خلفها...

- جدي؟

- وجهه جامد تختلج عضلة خده الأيمن انفعالًا مكبوتًا...

- إيه اللي جابك هنا؟

- عادي... هي دي أول مرة؟

- لا... آخر مرة...

يلقي أوامر مقتضبة مدغمة للعميان فيندفعون ممسكين نورين يتحسسون ما تيسر من جسدها تحت غطاء إلقاء القبض عليها...

- إيه ده... في إيه؟

- مش قلتلك تخرسي؟ ما خرستيش ليه؟

يفتحون الباب... يتلقون الأوامر بإجلاسها على كرسي المهرطقين... يعمل العميان كجسد واحد... البعض يتلمس الأماكن ووينقل ما لمسه لينفذه الآخرون كأنما يرون بأعين تعكس الظلام لا النور...

يجلسونها ويحكمون الوثاق... الأبر الحديدية في الكرسي تخترق جسدها بلا رحمة...

تكتم صرخاتها... العميان يتحسسون جسدها في اشتهاء...

يصرخ فيهم فخر الدين أن يبتعدوا...

ترى انبعاج مسدسه تحت إبطه تحت سترة البذلة...

((.. مش هايقتلني بيه... الموت السريع مش ممتع...))

يصطف العميان صفًا بعيدًا... شاحبين كالموتى من قلة تعرضهم للشمس...

يتنقلون مع السيد أينما ذهب، إلا أنه يشحنهم بحرًا في قبو السفن...

يدخل السيد فيسجد العميان...

يلتفت السيد لنورين ويلمس وجهها بأنامله...

- أنا عمري ما وثقت في بشري... طبعًا عمري ما وثقت فيكي... بس كنت لعبة مثيرة عندي... بتسليني بجمالك وتمردك اللي مش موجود في حد من الحاشية... بس لما اللعبة تخرج عن دورها في التسلية... يبقا لازم تتكسر...

يحضر فخر الدين وعاءً بلاستيكيًّا يحوي سائلًا رائقًا... يضعه أمام السيد... يرتدي قفازًا مطاطيًّا... تهتز يداه بشده فيبدو عليه عمره الحقيقي الذي تعدى التسعين عامًا...

- القتل مش مسلي ... وأنا طمعان في تسلية أكبر من لعبتي المفضلة... ساعات الواحد بيعمل مخلوقات كده علشان يتسلى وهو بيشوفهم بيخبطوا في الضلمة... مجرد تسلية في عمري الطويل الأبدي... سليني يا نورين..!

يبتعد خطوتين للوراء... الظلام يتسرب من ياقة قميصه الحريري الأبيض... يرتجف الساجدون يأسًا وحزنًا بلا سبب...

يغمس فخر الدين فرشاة بلاستيكية في السائل الرائق... يتقدم منها بوجه خشبي بلا تعبيرات... يثبت رأسها بيسراه، وبيمناه يقرب الفرشاة من وجهها...

تقطر الفرشاة سائلًا حارقًا على ساقها فتتصاعد الأبخرة...

تصرخ أخيرًا...

* * *

انصرف آخر المرضى من عيادة إمام، اطمأن على نوم ابنته ثم أخرج الوريقة التي كتبها عن ما رواه خالد وجلس يبحث على الإنترنت...

كل ما جاء في هلاوس خالد حقيقي بالتواريخ والأرقام... صلاح الدولة النجمي... رجل الأعمال الأمريكي صوره تثبت وصف خالد له...

لكن القصة ككل لا تستقيم... كيف لرجل أن يعيش كل تلك الأعوام؟

علميًّا، لا شيء مستحيل... العملية التي أجرتها ما سماها سيدة الجبل عملية غامضة ربما تحوي الكثير من التضليل في روايتها... لكن علميًّا لا يوجد ما يمنع أن يجد البشر طريقة لإعادة زرع الرأس المقطوع قبل توقف القلب والمخ...

علميًّا لا يوجد ما يمنع العلم من تجهيز الجسد البشري لعلاج الجروح الذاتي وزيادة المناعة وبالتالي زيادة أعمار البشر لمئات السنين...

نظريًّا لا يوجد تعارض مع مسلماته الدينيه والعلمية...

لكن هناك شيء إضافي في شخصية هذا الرجل تدفعه دفعًا للبحث في أرفف الماورائيات الغابرة... إلا أنه فضل الحل الفلسفي...

صلاح الدولة هو ببساطة «صلاح الدولة» كما تعرِّفها قرون من الأطماع والدموية والاستبداد...

صنع شطيرتين سريعتين له ولابنته على سبيل السحور السريع وجلس يبحث أكثر...

ومع أول ضوء للصباح... توصل إلى الحقيقة المفزعة...

صلاح الدولة هو المالك الفعلي لعشرات القنوات والمالك الفعلي لأصحابها الرسميين وهم ينتمون لعائلة واحدة... الصور والمناسبات التي تجمعهم تشهد بذلك...

صلاح الدولة هو مالك يوسي بي والواحة وشركة داات للأدوية...

خالد وأم خالد يعالجون الآن على أيدي قاتليهم...

خالد ينفق شهريًا أموالًا ملوثة بدماء أمه لمداواة جرحها المفتوح أبدًا...

- يارب... عفوك ولطفك يارب... عفوك ولطفك يارب...!!!

* * *

- الكلمات الثالثة -

في قبو أسفل كل مدينة حكمتها الأطماع...

ساحقة الرؤس... المخلعة... العذراء الحديدية... مهد يهوذا... الثور النحاسي... كرسي المهرطقين...

والخوازيق...

((.. يسحقون الأدمغة بساحقة الرؤوس.. تذوي كل فكرة أضاءت يومًا ظلمات الجهل... اسكت... كُف قلمك... وأمسك عنك دقات قلبك... فأنت اليوم ميت..))

((.. ضربة شرقًا... وضربة غربًا... ضربة جنوبًا... تخلعت أطراف البلاد بالمخلعة فتسيل دماؤها فيضًا يفصل القوم جزرًا متباعدة... وفي الليل لن يراك أحد... فأنت اليوم ميت..))

((.. عذراء من لحم ودم تنتهك نهارًا وأنت مقيد... لا تعظيم لحرمات ولا غيره... عذراؤك الحديدية ستنغلق عليك وتنشب في جسدك المسامير... استلم... أغمض عينيك... فأنت اليوم ميت..))

((.. على مهد يهوذا ينقسم جسدك الواحد كافرًا ومؤمنًا... تأبى أوصالك الاندمال... اليوم تنقسم اثنين في جسد واحد... وغدًا... أنت ميت..))

((.. يعبدون ثورهم النحاسي كفرًا، يغلقون عليك أنت المؤمن داخله ويوقدون تحته النيران... يدوي صراخك فيخرون له سجدًا... بألمك يؤمنون.. بموتك يتعبدون... فاحمد ربك إنك ميت..))

((.. كفرك هرطقة... وإيمانك هرطقة... للمهرطقين صنعوا كرسيًا ولعذابهم أقاموا ليال المجون... كلامك هرطقة... وسكوتك هرطقة.. حياتك هرطقة... فالأفضل أن تكون ميتًا..))

((.. خوازيق علنية تعلو فوقها كلمات الحق الموءودة... يتكاثف ذباب الجهل فوقها فلا يتحرك أحد... ينتظر الجميع الأوامر العليا... ينتظرون ولا يدركون أن الحق... ميت...))

ساعات قليلة مرت على نورين فاقدة الوعي...

تحاول أن تفتح عينيها فلا تستطيع...

تتحسس وجهها فلا تجد عينيها! انغلق مكانها تمامًا بالحمض...

تتسارع أنفاسها وتجثو متحسسة الأرضية الباردة من حولها... تنادي بصوت خفيض...

- في حد هنا...؟ جدي....

تلمس يداها دماءً متجلطة فتسحبها تقززًا في البداية... تتشممها فتعلم أنها دماء...

تمد كفيها مرة أخرى متبعة المصدر الآدمي الفارغ من الحياة...

مع رائحة الدماء، تشم عطر جدها الخافت...

- جدي...

تعلم أنها لن تتلقى ردًّا مرة أخرى على ذلك النداء....لكنها أملًا تنادي...

تتحسس وجهه البارد... فمه المفتوح... بقية رأسه عبارة عن كتلة من الدماء المتجلطة والعظام المفتتة...

تئن... تبكي بلا دموع... تتصاعد آهة ملتاعة مذعورة من حنجرتها...

تحاول أن تتنفس ببطء...

((.. اهدي... اهدي... هاه... هاه... اهدي...))

تفتش ملابس جدها عن أي شيء يصلح لأي شيء!

محفظة... سجائره... ولاعة ذهبية... تدسها في صدريتها...

سلسلة مفاتيح... والمسدس الذي فجر به رأسه...

تقوم واقفة وتدسه في سروالها الجينز من الخلف... تخرج التي شيرت من فوقه كي لا يظهر...

تتلمس طريقها عبر الحوائط...

((.. السيف مش متعلق... مكانه فاضي... الباب.....))

تشم رائحة عطره قبل أن تراه فتتراجع في ذعر ملصقة ظهرها بالحائط .

السيد جاء...

- شكلك من غير عينين حلو برضو... شفتي النور يا نورين؟ طيب... شفتي الضلمة؟ مش هايبقا لي غيرها بعد النهاردة...

يرمق الجسد الفارغ من الحياة... يسير حوله ويتفحصه...

- ركبك وإيديكي عليهم دم... الدم حواليه بيفتن عليكي... محفظته خارجة بره ليه ياترى؟ كان ناوي يرشي الموت مثلًا علشان ياخده من غير إذني؟! عيب القميص الأبيض إن مبين أوي إنه تخين... وإن إيديكي فتشته كويس... بس حتى الموت ما غيرش فيه حاجة... طول عمره رجل منظم... قتل نفسه وقام رجع المسدس في الدرج ورجع مات تاني... ده اللي كان بيعجبني فيه!

ترتجف وتضم ذراعيها حول صدرها... أنين متواصل يخرج منها...

((.. موتني بقا وريحني... بطل اللي بتعمله ده...))

- خايفة يا نورين؟ حلوة أوي وإنت خايفة...

يثبت عنقها بكفه إلى الحائط فتتحشرج... يمزق ملابسها ويفتش عن ما ينقص المشهد... يلقي الولاعة أرضًا...

يديرها ويلصق وجهها بالجدار... يخرج المسدس من مكمنه... يلتصق بها أكثر... يثيره خوفها... يغرس أسنانه في لحم كتفها ببطء فيسيل الدم الدافيء... يلعقه...

- المسدس فعلًا في درج خاص جدًّا... بس مش هو اللي وداه هناك... إيه اللي جابه هناك... وليه؟ عايزة تقتليني يا نورين مثلًا؟؟

يتركها فتنهار أرضًا... تحتضن ركبتيها وتمسك جرح كتفها...

تقترب نشوة ألمه من الاكتمال... تحتمل نورين ألمًا لا يوصف... عذاب مختلط وتمرد يعزز سيطرته وساديته...

- كان نفسي تشوفي العرض ده بس ممكن تتخيلي... المسدس على راسي دلوقتي... هاضغط الزناد...

تدوي صوت الطلقات الخمس المتبقية ويغشى أنفها رائحة البارود...

يقترب منها ويمسك كفها المرتعش... تشعر بفتحة هائلة باردة كالثلج تحتل ربع رأسه تقريبًا... تحاول أن تجذب يدها إلا إنه يمسكها في مكانها كي تشعر باندمال الجرح السريع...

- كده مش عايزين المسدس في حاجة...

يلف شعرها الطويل حول ذراعه ويجذبها على الأرض... يمسح جسدها الدماء المتجلطة... يقابله مؤيد فيختلج وجهه لثوان من مرأى نورين... ابنة خاله المهرطق... يد أخطبوط يمنى قطعت...

يتخلص من المفاجأة سريعًا ويعود لدناءته الطبيعية...

- مؤيد... فخر الدين انتحر... إنت مكانه من النهاردة... لبس نورين وحطها في شنطة العربية وأمر العميان ينضفوا القبو...

يتهلل قلب مؤيد وتتسع ابتسامته... يخر ساجدًا لسيده طاعة ورياءً...

- أمرك...

* * *

تجمع كاميرات القنوات المحلية والعالمية تصور احتشاد الناس تحت مستشفى دار الرعاية في سابقة غريبة... لا يهتفون... لا يتحدثون... فقط يقفون ساهمين، ينظر أحدهم من وقت لآخر نحو المبنى الثاني وينادي «خالد»... ثم يصمت...

مازال الواقفون مُأتمين بسريان الطين في قاع النيل، واقفون... لا يسقطون ولا يموتون...

ملثمون يتكاثرون تدريجيًّا بصحبة سيارات نصف نقل مغطاة...

الشرطة مكتفية كعادتها في السنوات الأخيرة بلعب دور جامع الجثث الهاوي، يأتون بعد انتهاء الأحداث بفترة كافية لاختفاء الادلة وقتل الشهود...

المظاهرات أمام وزارة الصحة تتزايد ببطء، لكن بلا مجيب... أيام قضاها المرضى المشتكين والأطباء والصيادلة والصحفيون أمامها بلا أية تغطية إعلامية من أي نوع...

اليوم عرفوا مكان تواجد الإعلام المكثف وقرروا السير نحو مستشفى دار الرعاية وهو الحل الأخير لإيصال رسالتهم عالميًا...

((.. دواكم بيقتّل فينا... مفيش حكومة بتحمينا...))

((.. طول عمره رخيص رخيص... دم المصري في عين خسيس..))

تتردد أصداء أصواتهم في الصمت المخيم على المدينة...

رغم شمس العصر الحارقة، إلا أن الظلام واقع ملموس... زوايا كثيرة في الشوارع لا تصلها الشمس لسبب فيزيائي مجهول...

بقايا أتربة الأمس لا زالت تغطي المباني والسيارات... جو مصفر مترب كصورة من السبعينات...

((.. إحنا متنا من زمان... يوم ما دبحتم الغلبان...))

((.. شالوا الدقن وجابوا البدلة... شالوا البدلة وجابوا الدقن...

... نزعوا الروح من جسم أم، كل يوم بتدفن ابن..))

* * *

ـ الكلمات الأخيرة ـ

بردٌ على اليدِ والقلبِ والعظام...

وبردٌ على النائمِ تحت الصخر...

أبدًا لن ينهض من سريره الحجري...

أبدًا، حتى تخمُد الشمس وينطفئ القمر...

وسط الرياح السوداء تموت النجوم...

وها هُم هنا لا يزالون نائمين على الذهب...

حتى يبسط سيد الظلام يده...

على البحر الميت والأرض اليباب...

تولكين ـ سيد الخواتم

* * *

«فاتق غضبهم، ولا تشعل نارًا لا يطفئها إلا خالقهم... فانتصر بهم فهم خير أجناد الأرض...

واتق فيهم ثلاثًا: نساءهم، فلا تقربهم بسوء وإلا أكلوك كما تأكل الأسود فرائسها...

وأرضهم، وإلا حاربتك صخور جبالهم...

ودينهم، وإلا أحرقوا عليك دنياك...»

لازال الرق المصفر القديم بخط الأمير علاء الدين النجمي محفوظ في علبة من ذهب مع خاتمه الماسي في البرج العاشر من أبراج قصر صلاح الدولة...

يقرأ اللفافة لمرة أخيرة قبل أن يطمئن إلى خنجره المندس في ملابسه ومسدسه وسيفه الدمشقي الحبيب في أماكنهم حول جسده...

يركب المايباخ ويشرب في صحة مصر كأسها الأخير...

اليوم يتوج إلها فوق عرش النار كما في رؤيا يوئيل...

((.. بيقول يوئيل: ما بقي من القَمَص أكلهُ الزحاف، وما بقي من الزحاف أكله الغوغاء، وما بقي من الغوغاء أكله الطيار...

أربعة غازين متعاقبين... لكن هونيك تفسير بيقول أنه كان جراد بالفعل وإن الكلمات الأربع هي أطوار نمو الجراد..))

سيد الأحرف يفسر غزاة مصر الأربعة بتأويله الخاص...

يأكل كل حاكم ما تركة سابقه، نسور تأتي بعد ضباع سبقتها ضواري تنهش لحم الحي...

يأكل كل محكوم ما تبقى من لحم أخيه، فلا يكرهونه...

لقد أشعل كل من تمكن صلاح الدولة من نفسه الخبيثة النيران، فلم يتق الله في أعراض ولا أرض ولا دماء المصريين، وسيأتي طوفان صلاح الدولة المهلك ليسود... ويملك...

((.... من لا يملك سيعطي من لا يستحق... ثم يحكم من لا يستحق ما لا يملك... ثم تأخذ ما ليس لك فتستحقه وتملك!..))

يرى انعكاس وجهه الكامل المكتمل في مرآة السيارة الأمامية...

لم يعد يحتاج أكل الأحياء كي يحتفظ ببهاء طلعته، العلم أصبح عبدًا تحت قدميه هو الآخر... فقط يحتاج الألم والخوف والتعذيب ليحيا المارد بداخله...

يقطع الطريق نحو الباب الخلفي للمستشفى... بناء على أوامره يتم إخلاء المبنى الثاني الخاص بكبار الشخصيات العامة من المرضى والعاملين والأطباء... فقط يبقى خالد تحية...

يحمل السيد بنفسه نورين المكممة.ويأمر حراسه أن يغلقوا البوابة الخلفية بالجنازير ويمنعوا أي شخص من دخول المبنى بأي ثمن...

خطوات تفصله عن الوريث... والأمل الحي...

* * *

يأخذ إمام ابنته ويسلمها لرقية في الصباح، يخبرها أنه ذاهب لخالد في المستشفى للضرورة القصوى...

يطلب منها ألا تذهب اليوم إلى هناك، فأعداد الناس تتزايد ويبدو أنهم ينتوون شيئًا ما فالأسلم أن تظل بمنزلها...

- مش هاستحمل... على الأقل أشوف ماما...

- هاطمنك عليها ما تقلقيش...

- هسيب البنات هنا مع حماتي وآجي معاك...

لا تعطيه فرصة للتراجع، دقيقة واحدة ويجدها قد ارتدت خمارها وحذاءها

البسيط وخرجت تتلمس الخطى نحو المستشفى...

تمر الساعات دون أن يتحرك التاكسي من مكانه...

- بيقولك في مظاهرات قدام المستشفى... الأستاذ خالد تحية اليهود كانوا عايزين يغتالوه... ربك ستر... أصلهم موالسين مع الجماعة بتوع القاعدة علشان يخربوها...

- إيه اللي دخل ده في ده..؟؟ ربنا يسترها معاك الدنيا مش ناقصة إشاعات...

قبيل العصر يصل إمام ورقية... يمنعان إمام من دخول المبنى الثاني بحجة محاولات اقتحام المتظاهرين للمبنى رغم أن ذلك لم يحدث فعليًا...

يصعد إمام إلى رفعة مع رقية...

لشد ما شحبت وذوت تمامًا... لا تشبه بأي حال من الأحوال رفعة التي نقلها للقصر العيني منذ سنوات... لا تشبه رفعة في الصور التي أراها له خالد...

هي فقط شبح لماضٍ كان سعيدًا رغم معاناته وآلامه... ماضٍ كان قويًا ثم هوى...

يحاول إمام الاتصال بخالد في هاتفه المحمول فيجده مغلقًا...

يأكله القلق مما يحدث... لا يفهم شيئًا مطلقًا من خليط الفلسفة والواقع الذي غرق فيه حتى الثمالة...

يذكر كلمات عم الأسيوطي... الرجل الذي حفّظ إمام القرآن في صغره، وتحمل بلا كلل ولا ضيق أسئلة إمام الإيمانية في مراهقته...

((.. بص يا بني... اقرا الكتاب ده... التفكير فريضة أسلامية... افتكر كده

ربنا ذكر التفكر والتدبر وأولي الألباب كم مرة في قرآنه الكريم؟ الفكر مش كفر... والإيمان مش إذعان لأي مذهب بيقول إن هو الصح وبس... كل ما تحس إنك مش عارف ده صح ولا ده صح، ارجع للأصل... للقرآن والسنة... ربنا يا بني ما خلقناش علشان يعذبنا ولا يكممنا... سيدنا إبراهيم فكر ووصل لربنا بالعقل... الحرام بيّن والحلال بيّن يا إمام...))

يشعر بخلايا عقله تحترق...

من هو صلاح الدولة وماذا ينوي فعله من وراء حبس خالد في مستشفى يملكها هو..؟ هل هو حقيقي أم هلوسة... أم فلسفة كلامية اختلطت بواقع مهلهل فسدت ثغراته؟

يرمق المارة المحتشدين الصامتين من أعلى...

مظاهرة صاخبة جديدة قادمة تبغي عدسات الكاميرات...

خلود تتقدم المظاهرة وتهتف معهم بصحبة رجل يبدو أنه خالها الذي تحدثت عنه طويلًا...

حماسها وشجاعتها وإصرارها أثار داخله مشاعر غريبة... الفخر هو ملخصها...

يميل بجسده لخارج النافذة أكثر لرؤية أفضل...

ملثمون يخرجون آلات خشبية كبيرة لا تبدو كشيء يميزه إمام... لم يعرف أن ما ينصب ويوجه تجاه المبنى الثاني هو «منجنيق» خشبي...

فقط انقبض قلبه وفضل أن تعود رقية للمنزل لولا الزحام الشديد والتدافع ما جعله يخشى أن تؤذى وسط الحشد...

حاول الاتصال بخلود يمنعها من التقدم، إلا أنها لا ترد... الصوت والزحام يمنعانها من سماع الهاتف...

يخرج ينظر من مختلف النوافذ... النافذة القبلية تطل من زاوية ضيقة على المدخل الخلفي للمبنى الثاني...

سيارة مرسيدس لم ير لها شبيهًا في مصر من قبل تقف، ينزل منها رجل قوي يمتشق سيفًا تحت بذلته، ويحمل... نورين!!

صلاح الدولة!!

يعود مهرولًا إلى رقية...

- مالك يا دكتور؟

- مش مرتاح... موبايلك معاكي؟ أنا هحاول تاني أشوف خالد وأرجعلك... ما تتحركيش من هنا وما تحاوليش تروحي لوحدك... لو حصل حاجة كلميني...

- إيه اللي بيحصل تحت؟ لولا إن قلبي مقبوض من الصبح ماكنتش جيت معاك وزودت همك...

- ربنا يستر... السلام عليكم...

حاول إمام أن يسير في خطى عادية كي لا يثير ريبة العاملين... يحاول أن يرسم خريطة للمبنيين المتجاورين في عقله... سنوات قضاها في زيارة أم خالد ولقاء الأطباء المعالجين لها في ذات المبنى...

تشترك الحمامات في كلا المبنيين في مسقط واحد...

يهرع إلى الحمامات، يغلق الباب خلفه بالرتاج... نافذة من الألوميتال لا تتسع لمرور جسده قطعًا...

يضرب الحائط بقبضته... يفكر...

يخرج مسرعًا ويصعد حتى سطح المبنى لرؤية أعم وأفضل...

زجاجات المولتوف تلقى على المبنى الثاني والمنجنيق يحوي كتلًا مشتعلة تستعد للسفر جوًّا سابقة لزميلاتها...

المبنى الثاني يحترق!

* * *

هم...

مخربون بلا اسم أو هوية..

ينتمون - في عدم انتباه واضح - لتيار الحاكم أيًّا كان...

يقبضون بالذهب فهو دومًا قابل للاستبدال بأية عملة في حالة سقوط النظام وتغيير العملات...

هم ليسوا مندسين... هم فقط مدنسون...

يقاتلون دومًا فيما يدعيه مستأجروهم بصالح الدولة وأمنها...

دفع لهم السيد ذهبًا ليستكملوا ما بدأه نظام تكفيري كان يدفع لهم من قبل ولكن لمصلحته هو،

وسينفذون...

هم ليسوا أغرابًا أو دخلاء... يعيشون في الجانب الآمن المظلم حيث يكفل لهم الجشع أقواتهم...

قال لهم السيد، احرقوا...

فأحرقوا...

أمرهم السيد بالهتاف، فهتفوا...

ـ الله أكبر!

* * *

توقفت الهتافات فجأة إثر صياح أحدهم...

- المبنى بيولع!

((.. لا ما بيولعش... دي إشاعة...

.. ده تشتيت انتباه...

.. الحقوا خالد...

.. الحقوا المبنى الأولاني لا النار تمسك فيه...

معاهم سلاح آلي...

معاهم مولتوف...

.. معاهم سيوف...

سيوف؟ هاتولنا مرتبة!..

خالد كافر ولازم يتحرق...

.. خالد أراجوز السلطان...

... خالد منتا... الحقوه...

.. مفيش نار...

.. مفيش ميه... النيل ناشف!

.. خلي المستشفى تولع... دول بيضحكوا ع الغلابة ويجربوا عليهم دوا...

دي مستشفى الناس اللي فوق... خليهم يدوقوا..))

يحمل أناس الحصى ويرشقون المبنى بالطوب...

((.. اولعوا زي ما ولعتوا في صحتنا!))

يحمل أناس دلاء الماء والطين يحاولون إطفاء الحريق...

((.. دي أرواح ناس جوه يا جماعة... مش ذنبهم إنهم أغنيا..))

يحاول البعض اقتحام المدخل وضرب رجال الأمن...

((.. عايزين نلحق الأستاذ خالد يا ناس!...))

يحملون مرتبة قطنية ويهرعون نحو حاملي السيوف...

((.. فاكرين التحرير؟؟ فاكرين التحرير؟؟؟؟؟...))

يقذفون كتل اللهب ويرشقون الناس بالرصاصات...

((.. خليها تولع... المهم حقنا وصلنا مقدم... واللي هايفضل هايدفعلنا تاني...))

ـ الله أكبر!

أناس يقفون مصطفين على طول كورنيش النيل... لا يسقطون... لا يموتون... لا يحيون...

* * *

((... السيفروث رقم صفر... داث... الماوية... أن لا تكون... سيفروث غير مرئي... لابد لك من عبوره لتعلم كل الحقيقة الخافية...

- *أهو الموت؟؟.......................))*

* * *

مع كل خطوة ينقلها تتجمد تحت حذائه الأرضيات... الحوائط... الأسقف...

يتجمد الضوء في الهواء ويزفر دخانًا أبيض...

تجمّد... يوئيل... آنجيل ديلمونت... السيد... صلاح الدولة النجمي...

خمسمائة عام من أجل لحظة، نقله لها فلك مشحون من زخرف الكلمات وزيفها... يحمل من كل شر اثنين...

طمع له، وطمع للبشر...

استعمار له واستعمار للبشر...

دم له، ودم على البشر...

إيمان به، وكفر بخالق البشر...

يأس... خوف... خنوع...

((.. سيكون هناك طوفان ثانٍ من زخرف الأحرف وطغرائها... ولن ينجو أحد...

لن يفرق بين مؤمن وكافر... سيغرق الجميع...

فكن أنت الطوفان!...))

يقرأ خالد من المصحف وقد ترك غداءه دون أن يمسه... أدويته تمنعه من الصيام، وحياؤه أمام الخالق يمنعه من الأكل...

طوفان من همسات لا تنقطع تشعره بغثيان...

شعر ببرودة شديدة... ضغط زر استدعاء التمريض ثلاثًا فلم يجد مجيبًا...

- راحوا فين دول؟

صداع يشق رأسه وطوفان من كلمات مشتبكة لا يستطيع أن يفهم منها حرفًا... قام متحاملًا على ألمه ليتفحص التكييف... الملاءة ملتصقة بثوبه...

التفت ليجد الدماء تتفجر من طغراء ظهره مختلطة بصديد... ضوء باهت يجاهد للانبعاث من بين الدماء المنهمرة...

* * *

في الساعة الخامسة والنصف سقط أول قتيل...

لم يعرف أحد هويته فقد انسحق تمامًا تحت الجموع الكارة والفارة...

((.. جهنم وبئس المصير!..

... نحسبه شهيدًا إن شاء الله...

.. القاتل والمقتول في النار!..))

النيران تتصاعد إلى أعلى... النوافذ التي كانت مغلقة ثم تم رشقها بالطوب تنفجر إثر دخول الهواء إلى النيران بالداخل...

ينزل إمام من السطح مسرعا... الجميع يغادرون مواقعهم في هلع خوفًا من امتداد النيرانِ للمبنى الأول... يتصل برقية ويطلب منها انتظاره وعدم التدافع... الموقف بالخارج أخطر...

ثوان وانقطع التيار الكهربي...

إجراءات الأمن تستدعي فصل الكهرباء الرئيسية عند حدوث حرائق كبيرة...

((.. لازم يشغلوا المولدات... كده الناس تموت!..))

يقف حائرًا ما بين الذهاب لرقية والذهاب لخالد أو النزول لحماية خلود... رقية على أيه حال في أمان مقارنة بما يواجهه خالد... خلود معها خالها...

يتوكل على الله وينطلق على ضوء الهاتف المحمول حتى يصل إلى أقرب نافذة تطل على نوافذ المبنى المقابل... يسمي الله ويغمض عينيه عن النظر لأسفل... يلتصق بالحائط ويعبر الإفريز الضيق المطل على الممر الخلفي في بطء...

يجثم الظلام على روحه فجأة... تعتم الشمس كأنها في كسوف كلي...

((.. هاتقع... إنت دايخ وحاتقع... السور ضيق... أقع... أقع...))

يحاول التماسك... ينشب أظفاره في نافذة المبنى الثاني ويتشبث بها...

النافذة باردة كالثلج حتى أن أصابعه التصقت بها...

ماذا يحدث؟؟

* * *

اليأس... الخوف... الظلام...

الموتى يتساقطون... الدماء تغرق المدخل الأبيض للمبنى الأول بينما تفحم مدخل المبنى الثاني تمامًا...

يتدافع الأطباء والعاملون بالمبنى الأول ومن خلفهم مرضى بثياب المستشفى للخروج، فيدفعهم الواقفون بالخارج للداخل مرة أخرى...

ينهال الأطباء بإسطوانات إطفاء الحريق من مبناهم على الواقفين أمام المدخل في محاولة منهم للهروب...

يتساقط الموتى على أيدي المداوين...

((.. الدكاترة بيموّتوا الناس لسه... احرقوا المبنى ده كمان!!))

((.. مش لاقيين مراتب زيادة! مفيش شقة راضية تفتحلنا تاني!..))

((.. البادي أظلم! إكسروا المحلات وهاتولنا سكاكين..))

((.. الله أكبر..))

* * *

تنقطع الكهرباء فتختفي الدماء من أمام عيني خالد... هدوء مريب بالداخل... رائحة دخان وانفجارات تتزايد بعد الصمت الذي خلفه انقطاع هدير التكييف والثلاجة وهمهمته وهو يقرأ القرآن...

انتزع الكانيولا من يده وقام يتوكأ على الحوائط...

ضوء خافت يتسلل من خلف الستائر، ظلام مريب مفاجئ...

برد قارس يجعل الإمساك بمقبض الباب عذابًا...

يقف أمام حجرته في الممر ينظر يمنة ويسرة... ضوء فضي خافت يتقدم نحوه من آخر الممر الطويل...

ـ مين؟ إيه اللي بيحصل؟

طوفان الكلمات المعتاد المختلط في رأسه يصمت فجأة... منذ أفاق وهو يسمع صخب غير مفهوم. الآن يصمت الصخب... صمت تام لم يشعر به منذ أن خطت قدماه الميدان في ثورته...

((.. خالد...))

((.. إنت تاني؟؟؟.. أنا بحلم..))

يقف صلاح الدولة، يرتدي بذلة حالكة السواد فوق قميص حريري خمري اللون يتباهى مع شحوبه...

سيف طويل رفيع في غمد من الفضة يتدلى من خصره لا يتناسب تمامًا مع مظهره المعاصر...

شعره الطويل مربوط إلى الخلف بشريط حريري يتناسب مع لون قميصه...

لا يرتدي الخيط الأحمر حول معصمه...

فتح خالد فمه ليتكلم فتصاعد البخار منه... الموجودات مصطبغة حوله بفضية الثلج الميت...

يمد يده يلمس جسد الرجل الماثل أمامه...

ذات الطول... ذات العمر... يفصل بينهما نصف متر في المكان وخمسمائة عام في الزمان...

- إنت حقيقي؟

- حقيقي أكتر من أي حقيقة عرفتها يا خالد...

- إنت إيه وعايز مني إيه؟

- قلتلك قبل كده... إنت وريثي... إنت حي وهايبقالك نسل... هبدأ مملكتي الجديدة بعد الطوفان من فوق المقطم... على أنقاض مملكة قديمة مش عايز منها غيرك...

- يعني إيه... مش فاهم حاجة بجد... يعني إيه المطلوب مني؟ أنا من ساعة ما اللي في جسمي ده طلع وأنا مش عارف أنا مين ولا أيه ولا المفروض أعمل إيه... من ساعتها وأنا بعمل اللي أي حد بيقول عليه لأني مش فاهم... مش فاهم... جسمي لأول مرة ما بقاش

جسمي... عقلي مابقاش ملكي... أصوات وصراخ وهلاوس... كأني بلعت الميدان كله بناسه بهمه وبثواره ببلطجيته... إمام يقولي اتعالج... أتعالج... وقف الدوا بيتعبك... أوقف... قول الحقيقة يا خالد... أقول... غيّر شوية فيها لمصلحتنا... أغيّر... اكذب يا خالد... أكذب... حب يا خالد... أحب... اتجوز... حاضر... موت يا خالد... حاضر!

يندفع خالد في ثورته إلى الحجرة ويمسك سكينًا بلاستيكيًا من صينية الغداء ويهم أن يغرسه في رقبته... يتوقف وينظر إلى صلاح الدولة بتهكم...

- آه صحيح... محدش أمرني أموت لسه، حتى السكينة بلاستيك...

ألقى السكين أرضًا وارتكن إلى الحائط المثلج... أشعرته البرودة براحة من آلام جروحه النفسية والمعنوية...

- أنا هنا علشان أفهّمك... آخد بإيدك من حياة مش بتاعتك أصلًا... إنت مكانك مش هنا... مكانك فوق... عملت كل شيء يفكرك بأصلك... وكنت مع كل خطوة بلاقيك فعلًا بتفتكر... خلاياك فاكرة إنك ابن الملك... حتى جسمك... خليته شبه جسمي بالضبط... السباحة... المبارزة... حتى اللغات اتعلمتها بسرعة زيي...

أصوات تكتكات تتعالى وكأنها تقترب في الظلام... شيء بارد يتحسس كتف خالد...

عقرب!

الآف العقارب تحتل الحوائط والأسقف... تطرق بأقدامها الثلج...

- ماتخافش يا خالد...

- ـإيه ده... أنا تعبت... صحوني بقا من الكابوس ده...

- هاصحيك... خالد... الناس اللي تحت دول... أتباعك... مريديك... بيموتوا بعض علشانك وعلشان خلافات تانية بينهم... فاكر لما الضوء من ضهرك وقف الخناق وضرب النار لحظة ما الناس شافته؟

- فاكر... بس دي لحظة وراحت لحالها...

- لا يا خالد... لما تعرف مقدار قوتك ممكن نورك ده يهدم كل المشاكل اللي تحت في لحظة... كل الناس دي هاتشوفك... معجزة... إله نوراني بيهدي السلام للبشر... ساعتها مفيش حد مش هايسجدلك ويآمن بك...

- يا رجل؟! طلعني من الموضوع ده... مش هاتعذب دنيا وآخرة كمان...

- مفيش آخرة... هخليك تعيش للأبد زيي... كان قدامي إني أقتلك يوم ما عملتلك العملية وأخليك كائن أبدي... بس أنا محتاج حياتك... دمك اللي بيجري في عروقك... محتاج النور اللي طالع منك علشان البشر يسجدوا... ويسكتوا وبإرادتهم... لما نملكهم يا خالد ممكن ساعتها تبقا زيي...

- الناس دي مش ملك حد... دول ملك اللي خلقهم...

- اسمع اللي بيقولوه دلوقتي؟ مجرد حيوانات بتاكل في بعض... اللي هاتعمله ده لمصلحة البشرية كلها... هاتبقا معبود البشرية المعذبة في العالم!

ضحكة مجنونة أضاءت وجه صلاح الدولة... تراجع خالد محتميًا بحجرته...

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...

- إنت بنفسك اللي قلت إني مش شيطان...

- لو رفضت اللي إنت بتقوله هاتعمل إيه؟

تراجع صلاح الدولة في صمت إلى عمق الممر... ثم عاد حاملًا نورين، يتعمد إبقاء وجهها في الظلام...

- هاضطر أقتلك... لمصلحتك... وأحولك زيي... وساعتها هاتحتاج لشخص حي تاكله..!

- إنت مجنون!

- كوريتشينا... والدتك... هي السبب إني ما حولتكش في العمليات... للحظة حسيت إني مقدرش أغامر وأقتلك وما أعرفش أرجعك تاني... معرفش إزاي أقنعتني بكده... الحقيقة إن ساعتها فعلًا مكانش وقت مناسب... قوتي لها ارتباط كبير بالموت... بالتعذيب... عارف ليه الناس اللي تحت دي تحت؟ علشان الدم والقتل هم اللي إدوني القوة علشان أعمل كل ده...

أشار إلى الثلوج من حوله... جاءته سيدة الجبل وسط القتلى والمصاحف المنتهكة حرماتها تحت سنابك الخيل... أتته على فُرش من الدماء تحت راية الدين... تحت راية الكلمة والخداع...

- نورين... ماتخافيش...

تتمتم نورين من خلف كمامة فمها وتحاول التملص من فوق كتف صلاح الدولة...

- إنت ما سبتش أي اختيار قدامي...

- لا في طبعًا... اسمع كلامي والناس اللي تحت ونورين يعيشوا... أو ارفض... وهاعملك زيي دلوقتي... ونورين والناس اللي تحت دول يموتوا في ظلامنا إحنا الاتنين... خالد... ماتبقاش أناني... فاكر أنانيتك عملت إيه في والدتك؟ بقا الست تضحي بكليتها وصحتها

علشانك وانت مش دريان؟ هاتكرر نفس الغلطة تاني؟؟!

شيطان مبتسم واثق يتمتع بقوى غير بشرية... أسقط في يد خالد... جلس منهارًا على السرير تنهمر الدماء من ظهره ملتحمة في نهر الدماء في الأسفل... يفكر في حل ثالث غير مطروح...

* * *

يتكسر زجاج النافذة خلف إمام من البرودة... لقد سمع كل حرف من مساومة صلاح الدولة الأخيرة...

نظر صلاح الدولة نحوه مبتسمًا في ثقة...

- اتعمدت أعلي صوتي علشان تسمع... بتحب خالد مش كده؟ بتحبه لدرجة إنك تعرض نفسك للموت مرتين؟ مرة تقع من الإرتفاع ده، ومرة على إيدي؟

- أنا عرفت إنت مين... خالد... الرجل ده هو صاحب شركة دالت وصاحب المستشفى دي والدكتور النصاب محرم ثابت صاحبها صوريًا... هو ممول الواحة والبو سي بي... حتى ستوكس بتاعته! فاهم هو مسيطر على حياتك ودمرها قد إيه؟هاتثق فيه تاني؟

يهز خالد رأسه نافيًا في ألم... يدعو الله صدقًا أن يجعله هباءً منثورًا فلا يجد له صلاح الدولة جسدًا يستغله...

- دكتور إمام... بحترم مهنتك... أنا كمان طبيب... الناس اللي زيك خصوصًا اللي بيحبوا خالد لازم يبقوا معانا وجنبنا تحت أي ظرف... إنت تستاهل حياة أحسن من كده... تستاهل علم أكتر بكتير من الفتافيت اللي بيسمحولكم تعرفوها... متخيل علم يسمحلك إنك تهزم الموت؟

- مش هاتخيل علم ولا غيره يهزم إرادة ربنا سبحانه وتعالى... يا أستاذ صلاح... اسمعني... ربنا إداك حاجة مش عند أي حد... حياتك غريبة أوي بس أكيد كانت لحكمة... حتى الكلام اللي قالتهولك الست اللي فوق الجبل...

يبتلع أمام ريقه ويهز ساقه لا شعوريًا قلقًا من العقارب... يقترب أكثر وهو يتكلم بصوت متهدج من البرودة...

صوت لا أثر للخوف فيه...

- الكلام ده ممكن كان يتم فعلًا بس بطريقة مختلفة خالص... مافيهاش حاجة لما تبقا رئيس ولا حاكم... مافيهاش حاجة لما تبقا غني وعالم وبتسيطر على وسائل الإعلام وعلى الكلمة... كل ده ممكن وحلال طالما ما بيئذيش حد... كون إن حضرتك مش مؤمن بالله عز وجل، فالله يهدي من يشاء... أنا مين علشان أحكم عليك بالكفر... مش يمكن ربنا يهديك؟ بس موضوع الألوهية أستغفر الله العظيم... والكلام اللي بتقوله لخالد ده...

انفجر صلاح الدولة ضاحكًا... وضع نورين المرتجفة أرضًا ثم خلع سترة البذلة وألقاها... أمسك بمقبض السيف وسار متباطئًا نحو إمام...

- عبد الله... لسه أولادي مدفونين في هدومك... مش عارف إنت مدفون فين... بس بقيت خلاص تراب...

- عبد الله؟

- إخرس! خفت مني ورميتني في حجر أقرب مملوك وقبضت التمن... قبضت التمن ووقفت تصلي لربك بعدها وضميرك مرتاح؟ ما إنت أكيد صليتله... خفت مني يا عبد الله علشان أنت مش قدي ولا إيمانك باللي بتعبده قد خوفك مني...

- يا أستاذ صلاح... حضرتك عشت كتير أوي... وأكيد عارف ومتأكد إن مفيش إله غير ربنا سبحانه وتعالى... ماتضحكش على نفسك... مين اللي خلقك؟ مين اللي خلق الست بتاعة الجبل؟ هه؟ مين اللي خلق الأرض اللي إنت عايز تملكها؟ مين اللي خلق الناس اللي بتتحكم فيهم زي مايكونوا ملكك... ماتضحكش على نفسك بكلام خايب وفوق! عامل جو الثلج ده زي ما أوهمت خالد في حكاياتك علشان تخوفه وتحسسه إنك دلوقتي قادر تعمل نفس الجو اللي عملته سيدة الجبل معاك... مخادع!

ألصق صلاح جبينه بجبين إمام... نظرة ثابتة جالت بين ناظري الرجلين... نظرة ثابتة حادة، نظرة رجل، لرجل...

أمسك إمام في حركة مفاجأة مقبض سيف صلاح الدولة المائل ناحيته واستله... تراجع خطوتين للوراء رافعًا السيف إلى أعلى...

- أنا هاخد خالد ونورين معايا وهانمشي... وإنت هاتروح لحال سبيلك...

- وإلا هاتموتني؟؟ قضيت ربعميت سنة من الخمسميت سنة اللي عشتهم في محاولات فاشلة لقتلي... والنتجة زي ما إنت شايف... ولا خدش!

- خالد... تعالى معايا...

يقوم خالد محنيًا غارقًا في الدماء، شاحب الوجه من النزف... يهتف بصوت واهن...

- إمام... امشي إنت أرجوك... دي معركتي أنا... خلي بالك من أمي وأختي...

- مش هامشي يا خالد... مش هاسمح للجدع ده يأثر عليك...

ارتكن صلاح الدولة بجسده على الحائط وعقد ذراعيه مبتسمًا يدير ناظريه بين الرجلين أمامه... قوس شفتيه لأسفل راسمًا وجهًا حزينًا تمثيليًا ومسح دمعة ساخرة عن خده بكفه...

- كفاية بقا... خليه يقتلني يا خالد وخلاص ما تكسرش بخاطرة... تعالى يا دكتور... بس خلي بالك السيف ده أكبر من المشرط بكتير هه...

مزق صلاح قميصه وفتح ذراعيه متقدمًا ببطء نحو إمام...

- ماتتكسفش... خالد مش هاياخد منك السيف... إلعب براحتك...

يتعالى صوته تدريجيًا وتزداد حدته...

- خايف... خايف؟؟؟

- لا!

يطعن إمام صلاح الدولة بالسيف فيتفاداه الأخير ببساطة شديدة... يطير السيف إثر طعنة الهواء ويتردد رنينه في الردهة الصامتة...

- إمام... امشي أرجوك... صلاح... أنا موافق... تعالى وسيبك منه... بكرة... بكرة يسجد لنا زيهم...

مناورة ساذجة من عقل ينسحب تدريجيًا من الحياة...

لا يزال صلاح الدولة يتقدم وإمام يتراجع... يمد يديه يحاول انتزاع طفاية حريق من مكانها...

تتراجع شفتا صلاح الدولة للوراء كاشفة أنياب نضيدة لامعة...

يتقدم خالد ببطء يحاول فك وثاق نورين...

- مكانك يا خالد... صوت زحف رجلك والدم اللي بينقط ده... مكانك!

دون أن يلتفت صلاح الدولة يتوقف خالد عن التقدم... نورين تمد يديها الموثوقتين نحو صوت سقوط السيف... ما الغرض من تلك المحاولة الطفولية؟ هو إحساس بشري زائف بالأمان في وجود السلاح...

يزمجر صلاح الدولة فترتج الحوائط وتهرع العقارب هربًا في كل الاتجاهات...

ثلاثة منها يمسكهم صلاح الدولة ويطعن بأذنابهم صدر ورقبة إمام...

يسقط أرضًا ممسكًا بأماكن اللدغات...

- لدغة العقرب مش مميتة يا دكتور زي ما إنت عارف طبعًا... بس مين قال إني عايز أموتك دلوقتي؟ اللدغة دي بتخرس... بلعومك اتشنج ولسانك تقل ومش هاتقدر تتكلم... الأعراض دي مش بتفكرك باللي عملتوا فيكم السنين اللي فاتت بقوتي اللي إنت مكدبها؟ ضغطك هاينخفض... سامع دقات قلبك؟ حاسس بنفسك؟ أنا سامع... وحاسس...

يركع صلاح الدولة جواره ويخلع قميصه الحريري طلبًا للراحة... طغراء ظهره كالجمر الملتهب تحت غطاء من جليد شفاف...

يهمس في أذن إمام المتألم مكتوم الصرخات...

يهمس له بأسرار سم العقارب ويشرح له ما سيشعر به تفصيلا في إستمتاع سادي..

يهرع خالد نحو إمام فيدفعه صلاح الدولة إلى آخر الممر، يسقط فوق زجاج النافذة المهشم...

- ده كلام دكاترة مالكش دخل بيه... يا بني!

بلا مقدمات ينهش صلاح الدولة صدر إمام شبه المشلول... يرى بعينيه دماءه ولحمه بين أنياب الوحش القابع فوقه...

يزحف خالد على كفيه وركبتيه ثم يجاهد كي يرشق قطعة الزجاج في وجه صلاح الدولة، يمسك الأخير يده كطفل وينزع عنه قطعة الزجاج... يدفعه مرة أخرى لذات المكان...

السيف بالقرب من نورين على الجانب الآخر من الممر... تتظاهر بأنها لا تعرف مكانه... تنتظر حتى تستطيع شم عطر صلاح الدولة أو سماع صوته في مرمى يديها...

تفرغ الحياة من إمام على الأرض الباردة... قلبه المنتزع لا يزال يلوكه صلاح الدولة في نشوة مختلة...

قلب بذل آخر دقات حبه بين مخالب الكراهية...

يزأر خالد بدوره... شحوب وجهه ونظرة الغضب تجعله شديد الشبة بعدوه... وجده...

- طلع الغضب اللي جواك... اغضب... احقد... اقتل... خالد... إنت جربت السيطرة بمجرد كلمة عاملة أزاي... ماتبقاش غبي...

- أنا مش غبي... إنت اللي جبان ومغرور... هاقتلك يا صلاح الدولة... هاتشوف...

- ممكن تقدر تقتلني... لو بقيت زيي..

- لو بقيت زيك هبقا شيطان... وعمر الشيطان ما بقتل شيطان زيه... مش هابقا زيك مهما تعمل... عارف... إنت أصلًا ماتعرفش تعمل

زي اللي عملته الساحرة دي معاك... لو كنت تعرف مكنتش هاتقف ترغي معايا كل ده...

لا يزال صلاح الدولة مبتسمًا، باردًا... يتسلى بلعق كفيه من دماء إمام دون أن يولي خالد انتباهًا...

- بصلي لما أكلمك...

يلتفت صلاح الدولة فجأة ضاحكًا محمر الأسنان...، عيناه متسعتان عن آخرهما في جنون...

يقف خالد مرة أخرى ممسكًا بقطعة الزجاج... كفه دام إلا أنه لا يعبأ... يتمنى لو يقتل نفسه فيغلق على الشيطان بوابة العبور...

يجري بما تبقا له من قوة، يرفع قطعة الزجاج عاليًا، يتلقاها صلاح الدولة بيده، فيستل خالد الخنجر المعلق بجنب عدوه، يمسك صلاح الدولة يد خالد ويضربها بالحائط فيسقط الخنجر...

يدور خالد وينشب أسنانه في اللحم البغيض... يضمه صلاح الدولة نشوة وألمًا...

- آآآآآه... اغضب أكثر!

يبصق خالد سائلًا شفافًا مرًّا من فمه... يلكم صلاح الدولة في أنفه وينحني في سرعة ممزقًا عضلاته ألمًا ويمسك الخنجر... يطوقه صلاح الدولة ويجبره على الوقوف...

يكبله من الخلف، يمرر كلتا ذراعيه من تحت إبطي خالد ثم يضم كفيه خلف رأسه فيعجز خالد تمامًا عن الإفلات...

ظهر خالد يغرق صدر صلاح الدولة بالدماء... طاقته تنفد فتتداخل الرؤى أمامه وينسحب وعيه...

تفعم رائحة الدم المختلط بعطر صلاح الدولة المميز أنف نورين... توجه أذنها نحو صوت عراك الرجلين... تخشى أن تمسك بالسيف وهي لا تعرف إن كان صلاح الدولة ينظر إليها أم لا...

((.. يقترب منها ويمسك كفها... تشعر بفتحة هائلةٍ باردة كالثلج تحتل ربع رأسه تقريبًا... تحاول أن تجذب يدها إلا أنه يمسكها في مكانها كي تشعر باندمال الجرح السريع..))

لكن السيف الدمشقي هو سيف لازم صلاح الدولة طيلة عمره... تشبَّع - وفقا لنظريات الطاقة التي يؤمن بها صلاح الدولة - بهالته وروحه وماضيه...

إن لم يكن من الموت بد فمن العار أن تموت جبانًا...

صدى الصوت في الممر البارد والهدوء القاتل المصطنع ينبئانها باتجاه زمجرة صلاح الدولة... هو يوليها ظهره الآن...

تمسك السيف محاذرة أن تصدر أي صوت... تقوم ببطء شديد وترفع السيف بكلتا يديها لأعلى...

تدعو الله لأول مرة في حياتها بصوت خفيض...

- يا رب... ساعدنا...

تخطو الخطوات القليلة الباقية وتغرس السيف بكل قوة في جسدهما... بكل ثأر قديم أو جديد لصلاح الدولة...

بكل حب مريض أسر قلبها الصغير...

ينغرس السيف حتى المقبض في جذع صلاح الدولة وينفذ إلى ظهر خالد تحية...

التحم الاثنان كجسد واحد نصفه أبيض ونصفة أسمر...

لم يصرخ أي منهما...

لم يصدر أي صوت لمدة ثانيتين... ثم بدأ كل شيء...

* * *

«أنا خلود سامي...

في يوم ٧ رمضان مش فاكرة سنة كام... كل سنيننا كانت شبه بعض...

وقفنا قصاد بعض... ناس بتهتف... ناس بتقتل... ناس بتنقذ... ناس بتحرق... وناس يأست من إنها تعيش بس برضو ماعرفتش تموت... فسكتت...

الغريب أن كله كان بيقول «الله أكبر»! للحظة ماعرفتش مين مع مين، ومين ضد مين...

ولحد دلوقتي ماعرفتش...

بس كل اللي فاكراه إن نور شق الضلمة حوالينا وفينا... نور خرج من الدور العاشر للمستشفى... نور ماشفناش حتى فيه بعض...

جميل أوي إنك تشوف النور بس... وماتشوفش الضلمة تاني..»

* * *

توقف قلب رفعة عن النبض...

توقفت الأجهزة التي كانت تمدها بالحياة...

لحظتها، غشى النور المكان رغم الحوائط والحواجز...

قامت رقية من بين دموعها... ضمت كفيها فوق قلب رفعة وضغطت مرات ومرات...

ولم تيأس...

لعلها لم تمت...

كعنقاء، لعلها تبعث من رمادها مجددًا...

شكر خاص

د.أسامة عبدالمتعال عميد كلية الصيدلة جامعة الأزهر

د. جيداء مكي أستاذ الطب النفسي بجامعة الإسكندرية

د. صيدلي: محمد مأمون

الكاتب الصحفي محمد الصفتي

محمد عربي، مصطفى علام، إسلام عثمان، حنان الكرارجي، شيم الشافعي، أحمد سعد، أحمد صبري غباشي..

وكل من ساهم في إخراج هذا العمل إلى النور